مكتبة

كيئتشيرو هيرانو

أحد الرجال

ترجمة: ميسرة عفيفي

رواية



أحد الرجال



alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

العنوان الأصلي: Aru otoko



نُشر هذا الكتاب بدعم من مؤسسة اليابان (برنامج دعم الترجمة والنشر).



هيرانو، كيتشيرو.
أحد الرجال: رواية / كيتشيرو هيرانو؛ ترجمها عن اليابانية ميسرة عفيفي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٣٢١ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789778721942
١- القصص اليابانية
أ- عفيفي، ميسرة (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٧٦٥ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

كيئتشيرو هيرانو

أحد الرجال

رواية



ترجمها عن اليابانية
ميسرة عفيفي





تمهيد

تعرفتُ إلى بطل هذه الرواية معرفة حميمية في فترة ما إلى درجة أنني كنت أناديه «السيد كيدو». وأعتقد أنكم ستفهمون سريعًا ما أقصده حين أقول كنت أناديه بوضع لقب «سيِّد» قبل اسم العائلة، وهي الطريقة المعتادة دائمًا لدى الجميع من دون حميمية ولا غيرها.

لقد قابلت السيد كيدو في طريق عودتي من لقاء أدبي في إحدى مكتبات بيع الكتب.

كنت أريد أن أبرد حماسي قليلًا قبل العودة إلى بيتي بعد استمراري في التحدث مدة ساعتين ونصف الساعة، فدخلت حانة عثرت عليها مصادفة. وكان السيد كيدو يجلس على الكاونتر يشرب بمفرده في تلك الحانة.

وكنت أسمع من دون تعمُّد حديثه مع مالك الحانة. وفي لحظة عفوية ضحكتُ معهما فعرضا عليَّ أن أشاركهما الحديث.

قدَّم السيد كيدو لي نفسه، لكن كان كل ما ذكره من اسم ووظيفة وسيرة ذاتية كذبًا. لكنني صدقته لأنه ما من سبب يجعلني أشك فيما يقول.

كان يضع على عينيه نظارة بعدسة مربعة بإطار أسود، ولم يكن وسيمًا إلى درجة تُبهر الأعين، لكن كانت ملامحه عميقة تناسب تمامًا الحانة المعتمة. ما من شك أنه بملامحه تلك محبوب من النساء حتى بعد أن أصبح في منتصف العمر وزادت تجاعيد وجهه وشاب شَعره. وعندما قلت له ذلك عوج رأسه فقط وقال بقليل من الريبة:

- كلَّا، مطلقًا.

لم يكن يعرفني فشعر بالخجل عندما قلتُ له ذلك، مما أشعرني أنا أيضًا بالخجل قليلًا. وهذا الموقف يحدث لي كثيرًا.

كان يملك فضولًا شديدًا تجاه عمل الروائي، لذا سألني أسئلة متنوعة لرغبته في معرفة تفاصيل كثيرة. ثم قال لي فجأة بتأثر شديد:

- أعتذر إليك.

استفسرتُ مندهشًا عن سبب اعتذاره، فقال لي إن اسمه الحقيقي «كيدو»، وإنه كذب في كل ما قاله لي. وبعد أن طلب مني أن أخفي ذلك الأمر عن مالك الحانة، قال لي إنه محامٍ، وإنه في عمري نفسه، أي من مواليد عام ١٩٧٥.

ولأنني كنت طالبًا بليدًا في كلية القانون، كنت كلما التقيت شخصًا يعمل في مهنة تتعلق بالقانون أحسُّ برهبة، لكن بفضل اعترافه هذا، لم أشعر وقتها بمشاعر الوضاعة المعتادة. وأقول ذلك لأن السيرة الذاتية الكاذبة التي حكاها لي السيد كيدو كانت تدعو إلى الشفقة.

سألته سؤالًا مباشرًا؛ لِمَ كذب عليَّ مثل تلك الكذبة؟ وذلك لأنني رأيت أن سلوكه ذلك غريب. فتجهَّم وجهه، وظل يبحث عن كلمات يقولها ثم قال:

- إنني أحافظ على اتزاني النفسي بواسطة محاكاة معاناة الناس وعذابهم.

ثم ضحك ضحكة كئيبة جدًّا ساخرًا من ذاته:

- كما أن صائد المومياوات يصير مومياء. كذلك إحساس أن تكون صادقًا بفضل الكذب! لكن يقتصر كذبي على هذا المكان وهذا الزمان المحدودَين فقط. مجرد وقت قصير جدًّا، لأنني في كل الأحوال أحب ما أنا عليه الآن وأتمسك به. من الضروري أن أفكر في ذاتي، لكن كلما فعلتُ ذلك ساء الوضع. ولا أستطيع فعل شيء تجاه الأمر برمته. فأنا أفعل كل ما أستطيع فعله، وأعتقد أنه بمرور الوقت ستنعدم حاجتي إلى الكذب. أنا نفسي، لم أعتقد أن تؤول الأمور إلى هذا المآل.

أحسستُ بخيبة أمل تجاه تعمُّده هذا الإيحاء، لكن كان فضولي شديدًا

تجاه ما قال. وكذلك لم أستطِع التخلي تمامًا عن الانطباع الجيد الذي بدأ ينبت داخلي نحوه.

واصل السيد كيدو حديثه:

- لكنني أعِدك بألا أكذب عليك بعد الآن.

إذا استثنيتُ كل ما يتعلق بتلك الكذبة الأولى، فإن السيد كيدو كان ودودًا وهادئًا وطيب القلب. يحمل قلبًا حساسًا وسريع التأثر، لكن يمكن من خلال كلماته وحديثه معرفة أن شخصيته معقدة وذات أغوار عميقة.

الحديث معه يشعرني بالمتعة. يفهم جيدًا ما أقوله وأفهم جيدًا ما يقوله. والعثور على مثل ذلك الإنسان نادر جدًّا في هذا الزمان، أليس كذلك؟ كان حب الموسيقى أيضًا نقطة تلاقٍ مهمة بيننا. علاوة على أنني قدَّرت أن ثمة ظروفًا قاهرة جعلته يستخدم اسمًا مستعارًا.

عندما زرتُ الحانة في المرة التالية، في اليوم نفسه من أيام الأسبوع، كان السيد كيدو يشرب وحيدًا، فدعاني إلى الجلوس بجواره. جلسنا بعيدًا عن مالك الحانة، ثم أصبحنا نرتبط معًا باللقاء في ذلك المقعد نفسه مرات عديدة، ونتحدث معًا حتى وقت متأخر من الليل.

كان يشرب القُودكا دائمًا. وكان مع نحافة جسمه لا يتأثر بالكحول، مع أنه كان يقول إنه يثمل ثملًا ممتعًا، إلا أن نبرة حديثه كانت دائمًا هادئة لا تتغير مهما مرَّ من وقت.

ثم أصبحت علاقتنا حميمية. إن العثور على صديق شُرب جيد في فترة منتصف العمر أمر نادر الحدوث. لكن اقتصرت العلاقة بيننا على تلك الحانة فقط، ولم يطلب أحدنا من الآخر طريقة للتواصل. على الأرجح أنه كان متحرجًا. أما أنا، لكي أكون صادقًا فكنت ما زلت أحذر منه. ثم لم أعد أقابله منذ فترة طويلة، وربما لن أقابله مرة أخرى. وبعد ذلك فسَّرتُ عدم مجيئه إلى الحانة أنه لم يعد يحتاج إلى الكذب.

يبحث الروائي دائمًا في كل مكان، بوعي ومن دون وعي، عن شخصيات تصلح أن تكون أبطالًا لرواياته. وبصفة خاصة ينتظر أن تحدث المعجزة في يوم ما، فتظهر أمام عينيه شخصية مثل مورسو[١] أو مثل هولي غولايتلي[٢].

إن الشخصية المثالية لبطل الرواية يجب أن تكون استثنائية جدًّا، ولو امتلكت الشخصية، سواء أكانت رجلًا أم امرأة، شيئًا ما يُمثِّل نموذجًا للإنسان أو العصر، يجب أن تُصفَّى من خلال الخيال لتصير ذات بُعد رمزي.

عندما أسمع قصة إنسان كانت حياته مليئة بالتقلبات بين الشدة والرخاء، يأتيني إحساس بإمكانية تحويلها إلى رواية، ومن بين مَن يتحدثون إليَّ أشخاص يلمحون بطريقة غير مباشرة بما يعني «يمكنك أن تقتبس ذلك في رواية».

لكن عندما أبدأ التفكير بجدية في تلك الحكاية الصاخبة، أتراجع سريعًا. وربما لو كتبتُ مثل تلك الروايات لبيعت كُتبي أكثر فأكثر.

لكنني أعثر على نماذج لأبطال رواياتي أكثر من بين معارفي.

وعلاقاتي التي تستمر طويلًا يكون أساسها الاهتمام، لأنني بالطبع لست من النوع الذي يستمر في علاقة مع إنسان من دون أن أكون مهتمًّا به. ثم في لحظة ما، أنتبه فجأة إلى أن هذا الإنسان هو الشخصية التي كنتُ أبحث عنها لتكون بطلة الرواية المقبلة، فأُصاب بذهول شديد.

ربما يكون السبب أن بطل الروايات الطويلة يجب أن يتعايش مع القارئ وقتًا طويلًا إلى حدٍّ ما، فمن الأنسب أن أستغرق وقتًا طويلًا متأنيًا ليتعمَّق فهمي لذلك الشخص الذي يصلح بطلًا لها.

بدأ السيد كيدو يحكي خلال لقائي الثاني معه سبب استخدامه اسمًا مستعارًا، كانت قصة معقدة ومتشابكة. بدأت أفهم سبب حكايته تلك القصة

(١) بطل رواية «الغريب»، تأليف ألبير كامو. (المترجم).

(٢) بطلة رواية «إفطار عند تيفاني»، تأليف ترومان كابوتي. (المترجم).

لي وأنا أفكر بعمق عاقدًا ذراعَي أمام صدري. إنه لم يقُل بلسانه: «يمكنك أن تحوِّل تلك القصة إلى رواية»، لكنني أعتقد أنه فكَّر في ذلك وهو يحكي.

لكن السبب الذي دفعني إلى التفكير فعلًا في أن أجعله بطلًا لروايتي هو أنني قابلتُ مصادفة محاميًا يعرفه جيدًا.

وعندما سألته عنه وعن صفاته الشخصية، قال على الفور ومن دون تردد:

– السيد كيدو إنسان عظيم. يعامل أي سائق تاكسي معاملة رقيقة جدًّا، ويرشده إلى الطريق إن كان لا يعرفه، بعناية وأريحية إلى درجة مؤثرة.

ضحكتُ، لكنني وافقته أن مَن يفعل ذلك في هذا الزمان – خصوصًا لو كان غنيًّا! – هو إنسان عظيم.

والحكايات الأخرى التي سمعتها منه، كانت متنوعة وغير متوقعة، وبها مواقف مؤثرة لم يبُح بها السيد كيدو بنفسه، ومن خلالها استطعتُ أخيرًا أن أرى صورة حية مجسَّمة للسيد كيدو، وأن أتفهَّم لِمَ بدا في وحدة كلما أراه. لقد كان حقًّا شخصية درامية.

وعندما بدأت أكتب الرواية، سألت مجددًا ذلك المحامي وأشخاصًا آخرين لهم علاقة به، وجمعت بنفسي المعلومات التي تحرَّج السيد كيدو من ذكرها بسبب واجب الالتزام بحماية أسرار العميل، وخلقتُ حبكة روائية باستخدام الخيال. إن السيد كيدو نفسه لم يتحدث مع شخص غريب عن أشياء عرفها من خلال وظيفته إلى تلك الدرجة من التفاصيل، لكنني اتبعت الضرورة الروائية لفعل ذلك.

ستظهر في الرواية شخصيات كثيرة بل عجيبة، مما قد يتساءل معه القارئ: لِمَ لم يجعل المؤلف هذه الشخصية الجانبية أو تلك هي بطلة الرواية؟!

لقد غرق السيد كيدو تمامًا في ملاحقة أحد الرجال، لكنني شعرت بأنه يجب رؤية ذلك الرجل من خلال السيد كيدو الذي يلاحقه.

ثمة لوحة فنية رائعة للفنان رينيه ماغريت بعنوان «ممنوع النسخ»، لرجل

ينظر إلى المرآة، لكن الرجل الذي في المرآة يعطيه ظهره وينظر هو أيضًا إلى عمق المرآة نفسها. في هذه الحكاية ما يشبه ذلك. ربما يجد القرّاء مغزى هذه الرواية من خلالي أنا الذي فُتنتُ بالسيد كيدو.

وقد تجعلهم كلمات هذا التمهيد يشكُّون في أن مَن قابلته في الحانة هو السيد كيدو حقًّا! وهذا شك في محله، لكنني أنا شخصيًّا أؤمن أنه هو.

كان من الطبيعي أن أبدأ الحكي بالكلام عنه، لكنني قبل ذلك أريد أن أكتب عن ريئه أولًا. لأن التجارب القاسية والغريبة التي تدعو إلى الشفقة التي مرت بها تلك السيدة هي البداية التي بدأت منها أحداث هذه الرواية.

١

في منتصف سبتمبر من سنة ٢٠١١ انتشر بين أهالي البلدة الخبر الحزين لموت زوج السيدة ريئه صاحبة محل الأدوات المكتبية.

يتذكر اليابانيون جميعًا تلك السنة بزلزال شرق اليابان الكبير، لكن على العكس من ذلك، كان أهالي بلدة سايتو التي تقع في منتصف محافظة ميازاكي، يتذكرونها بموت هذا الرجل. فليس من النادر في أهالي بلدة ريفية صغيرة لا يزيد عدد سكانها على الثلاثين ألف نسمة، وجود مَن لم يلتقِ أحدًا من شمال شرق اليابان منذ مولده وحتى الآن، وكانت والدة ريئه مثلًا أحد هؤلاء.

عند النظر إلى الخارطة نعرف أن طريق ميرا العتيق الذي يصل حتى كوماموتو متخطيًا مناطق كيوشو الجبلية، يخترق مركز البلدة، لكن عند الذهاب إليها بالفعل نجدها بلدة بسيطة على جانبي الطريق. والطريق يستغرق حتى مدينة ميازاكي أربعين دقيقة تقريبًا في اتجاه جنوب الشرق.

إنها بلدة بها العديد من المميزات؛ فمحبو التاريخ القديم عندما يسمعون اسم بلدة سايتو تطرأ على أذهانهم مباشرة مقابر النبلاء الأثرية العملاقة التي تقع داخل المدينة. أما محبو لعبة البيسبول فيطرأ على أذهانهم أنها موقع معسكر الربيع لذلك النادي الشهير. ومحبو السدود يعرفونها بأكبر سد في جزيرة كيوشو. لكن ريئه مثلها مثل باقي أهالي البلدة لا تهتم كثيرًا بتلك الأمور. بل تحمل ريئه محبة خاصة لأشجار الكرز في حديقة المقابر الأثرية.

في ثمانينيات القرن العشرين وبسبب تزايد الهجرة إلى المدن، أصبحت البلدة الجبلية الصغيرة مهجورة بلا سكان، وعُرِض فيلم تسجيلي عنها عام ٢٠٠٧، فظهر في البلدة السياح المهووسون بـ«الأماكن المهجورة» الذين بدت في أعينهم نظرات السخرية من أهالي البلدة.

ازدهرت الاستثمارات العقارية الجديدة في مركز البلدة في أثناء عصر الفقاعة الاقتصادية، لكن الآن بسبب قلة المواليد وزيادة المسنين، أصبح يُطلق على السوق المركزية بمحلاتها المغلقة اسم «مقابر عصر شوا الأثرية».

يُعَد محل «سيبوندو» للأدوات المكتبية المملوك لأسرة ريئه أحد المحلات القليلة التي ما زالت باقية في سوق البلدة على طريق ميرا.

جاء دايسكيه تانيغوتشي زوج ريئه الراحل للإقامة في هذه البلدة، قبل أن تصبح تلك القرية المهجورة حديث الناس بقليل. ثم توظف في شركة إيتو للغابات مستجدًا وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. كان بلا خبرة سابقة، ومع ذلك استمر في العمل بجد واجتهاد على مدى أربع سنوات، مما جعله ينال احترام رئيس الشركة وتقديره، وفي النهاية سقط صريعًا في عمر التاسعة والثلاثين تحت شجرة أرز قطعها بنفسه.

كان قليل الكلام وليس له أصدقاء يتحدث إليهم باستثناء زملاء العمل، وما من أحد يعلم شخصيته بالتفصيل فيما عدا زوجته. أفضل وصف يوصف به أنه كان لغزًا، لكن ليس ذلك أمرًا نادرًا في صفات الغرباء الذين يأتون للإقامة في المدن شبه المهجورة.

اختلف دايسكيه تانيغوتشي عن المهاجرين الآخرين في أنه تزوج ريئه بعد أقل من عام من بداية إقامته في البلدة.

وريئه هي الابنة الوحيدة لمالك محل الأدوات المكتبية في البلدة، الذي لا يجهله أحد وأُسس في عهد جدها، وهي وإن كانت غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما، إلا أنها تفكر بعقلانية وتُعَد محل ثقة الجميع، ولذا اندهش أهل

البلدة من زواجها هذا، لكن فكر الجميع أنها وافقت عليه بعد أن عرفته جيدًا وحكمت عليه أنه خالٍ من العيوب. وبذلك توقف سكان البلدة مؤقتًا عن البحث عن ماضي دايسكيه.

لقد فرح رئيس شركة إيتو جدًّا بهذا الزواج، لأن امتلاك أسرة يعني بالتأكيد ارتفاع احتمالية إقامته بالبلدة إقامة دائمة، وانبهر انبهارًا شديدًا من قدرته على استمالة قلوب النساء مقارنة بطباعه الهادئة. وعُدَّ حالة مثالية للمهاجرين من قِبل موظفي البلدية المسؤولين عن الهجرات بين المدن والأرياف.

لا أحد في البلدة يذكر دايسكيه بسوء، ربما أحد الأسباب أنه زوج ريئه. وإن حاول شخص خبيث تحريض أحد على أن يغتابه، يدافع الجميع عنه ويسخطون على المحرِّض. أي أنه كان موضع حبهم ورعايتهم.

ربما يكون وصف «إنسان هادئ» أقرب له من «إنسان كئيب»، فهو لا يبادر من نفسه بالاختلاط بالناس، لكن إن تحدث إليه أحد يتجاوب ويتحدث معه بمرح. له طابع هادئ يميزه، وكثيرًا ما وصفه رئيس الشركة بقول: «إنه إنسان عظيم». لا يغضب ولا يتعصَّب، وذو عاطفة فياضة دمثة، ويقول رأيه في أخطار العمل أو في عدم فاعلية الأداء، بلا تردد ولا جبن. ومن المعتاد أن يميل الحديث في موقع العمل الذي تكثر به حوادث الإصابات إلى العصبية والفظاظة، لكن مجرد وجوده جعل مشكلات العمل أقل.

يستغرق العامل ثلاث سنوات لكي يصبح عاملًا يُعتمد عليه، بداية من قطع الأشجار بالمنشار الكهربائي إلى استخدام الآليات العملاقة في قطع الأشجار ونقلها، لكن دايسكيه أصبح موضع ثقة بعد سنة ونصف السنة فقط. فقد كانت صحته جيدة بدنيًّا ونفسيًّا، ويأخذ القرار الصحيح في كل المواقف.

كان يندمج في العمل في صمت بلا شكوى حتى في أيام ذروة الصيف

شديدة الحرارة وأيام الشتاء شديدة البرودة التي يهطل فيها الثلج، إلى درجة أن مدير الموقع هو الذي يبادره بالقول: «إن تعبت من العمل قُل لي فورًا». لا يمكن الحكم على عامل يعمل لأوَّل مرة في هذه المهنة، قبل أن يمارس العمل بالفعل. لكن كان إيتو يتفاخر أمام أصحاب الشركات المنافسة أن دايسكيه صفقة ناجحة، وأحيانًا ما كان يُرجع السبب في ذلك إلى أنه تخرَّج في الجامعة.

وكان مثل هذا العامل هو الأول في تاريخ شركة إيتو التي بدأت منذ جيل الجد ومستمرة لثلاثة أجيال.

تعاطف جيران ريئه معها من كل قلوبهم بعد موت دايسكيه، قالوا: «إن هذه الفتاة سيئة الحظ». وهي كلمة كثيرًا ما يقولها بتأثر كبار السن من خلال تجاربهم الطويلة وهم في حالة من التعاطف.

إن أي إنسان مُعرَّض للمصائب. لكن يميل الناس إلى التفكير في أن المصائب العظيمة لا تقع إلا مرة واحدة في العمر، أو ربما لا تقع إطلاقًا. يتخيل السعداء ذلك بسبب قلة معرفتهم بالحياة. لكن مَن تعرَّض للمصائب مرة يرجو رجاء حارًّا ألا تتكرر. لكن يحدث أن تلاحق مصائب عظيمة يكفي جدًّا وقوعها مرة واحدة إنسانًا بإلحاح، مرتين أو ثلاث مرات. وفي وسط المصائب العظمى، تكثر حالات الذهاب إلى المعابد لطرد الأرواح الشريرة وحالات تغيير الاسم.

فقدت ريئه في تلك الفترة أحب ثلاثة أشخاص إليها على التوالي، من ضمنهم زوجها الذي رحل مبكرًا.

لقد نشأت ريئه في مسقط رأسها ببلدة سايتو حتى تخرَّجت في المدرسة الثانوية، ثم درست في جامعة بمحافظة كاناغاوا وتوظفت، ثم تزوجت في عمر الخامسة والعشرين زوجها الأول المهندس المعماري، وأنجبت منه ابنها الأكبر يوتو، ثم أنجبت منه ابنًا ثانيًا اسمه ريو.

لكن أصيب ريو بورم في المخ وهو في الثانية من عمره، ولم يكن هناك علاج لحالته فمات بعد ذلك بستة أشهر. وسبَّب ذلك لها حزنًا مهولًا فاق قدرتها على التحمُّل. حزن تجربه ريئه لأوَّل مرة بعد أن عاشت سعيدة من طفولتها إلى شبابها وحتى نضوجها.

اختلفت ريئه في الرأي مع زوجها حول علاج ريو. ولم تستطِع أن تعتبر الجرح العميق الذي جُرحت به وقتها كأنه لم يكن. وبعد رحيله لم تطِع زوجها الذي أراد مواصلة الحياة معها. فحدث بينهما صراع شديد حول الطلاق إلى أن اتفقا على ذلك بعد أحد عشر شهرًا. ولأنها وكَّلت محاميًا جيدًا استطاعت الحصول على حق حضانة ابنها الذي كان الزوج متمسكًا به بشدة. وفي النهاية وصلت إليها بطاقة بريدية شديدة اللهجة من حموَيها اللذين كانت علاقتها بهما جيدة منذ زواجها يصفانها فيها بأنها «ليست آدمية!».

ثم مات والدها فجأة بعد ذلك بوقت قصير في ميازاكي. ووقتها قررت أخذ ابنها والعودة نهائيًّا إلى مسقط رأسها.

ولأنها كانت «فتاة صالحة حقًّا» منذ طفولتها، أحسَّ جميع أهالي البلدة بالشفقة عليها والتعاطف مع مأساتها.

كانت صغيرة الجسم جميلة الملامح، تنمُّ عيناها وهي تنظر دائمًا إلى الأفق البعيد عن طريقة تفكير تختلف عن الآخرين. هادئة الطباع تميل إلى الصمت، ويسخر منها أصدقاؤها قائلين: «آه. ظهر مجددًا وجه ريئه عديم المشاعر!» عندما لا تجد ما تفكر فيه.

لم تكن من الأوائل دراسيًا، لكن مع ذلك كانت نتائجها لا بأس بها. ولذا لم تذهب إلى مدرسة البلدة الثانوية، بل ذهبت إلى مدرسة في مدينة ميازاكي يستغرق الذهاب إليها فقط ساعة كاملة بالباص لكي تُتاح لها فرصة أفضل لدخول الجامعة. وتفهَّم أصدقاؤها قرارها ذلك مقرِّين بأنه يعبر تمامًا عن

شخصيتها. ومع كونها طالبة هادئة إلا أن طالبين أو ثلاثة طلاب في كل سنة دراسية من المتوسطة إلى الثانوية، يقفون داخل الفصل أو في الممرات بين الفصول ينظرون إليها بحب من بعيد.

كان والداها يفخران بابنتهما الوحيدة التي تخرَّجت في جامعة بمدينة يوكوهاما وتزوجت مهندسًا معماريًّا، ورُزقت منه ابنين. وما من أحد كان يكره مشاعرهما السعيدة تلك أو يراها سيئة.

فيُفترض أن حياة ريئه كان يجب أن تختلف في كل الأحوال. ولم يشك في سعادتها تلك شخص واحد، بداية من أقرانها إلى كبار السن، لذا عندما عرفوا أنها فقدت طفلها الرضيع وطُلقت وعادت إلى البلدة، شعروا باستياء لا يمكن وصفه تجاه عدم حصولها على ما تستحقه أكثر من شعورهم بالتعاطف معها. لكن في الوقت نفسه شعروا بالقلق وتساءلوا هل هذه هي حقيقة هذا العالم الذي يعيشون فيه؟ وربما كان من الطبيعي ألا يُسيء أحد القول في دايسكيه تانيغوتشي الذي تُوفي بعد ثلاث سنوات وتسعة أشهر فقط، لأنه زوج ريئه تلك.

كانت ريئه تدير المحل نيابة عن والدتها في الوقت الذي تعرَّفت فيه إلى دايسكيه. وكان ذهنها شاردًا في أغلب الأحيان، سواء وقت وقوفها على ماكينة البيع في المحل أم وقت مقابلة مندوبي شركات الوكالة أو مندوبي البلدية، أو عندما تقود السيارة لتوصيل الأدوات المدرسية إلى مدرستها المتوسطة. كان مَن يقابلها من معارفها يواسيها، لكن لأن المحل كان منذ عهد والدها متعاقدًا مع إحدى كبريات شركات البيع الإلكتروني والبريدي فلم يكن عدد الزبائن الجُدد قليلًا. وكان ذلك أسهل لها.

وعندما تكون ريئه بمفردها تفكر في ابنها المُتوفى وتبكي بشدة. لا يمكنها أن تنسى ما حدث قبل أن يرحل بشهر تقريبًا، عندما عادت إليه في غرفته بعد مشاورة مع الطبيب فوجدته يتأمل السقف بهدوء. تُرى فيمَ كان

يفكر؟ وبمَ كان يشعر؟ لقد وُظفت مَلَكة التفكير التي يُفترض أن يعيش بها لعشرات السنين، فقط من أجل إدراك موته المرتقب. بالطبع يُفترض أنه لم يعرف الحالة المرعبة التي تحدث داخل جسمه، حتى موته. عندما تتذكر ذلك المشهد لا تستطيع الاستمرار واقفة، تجلس في مكانها كما هي وتُخفي وجهها بيديها.

وإذ تفكر في نمو يوتو الذي تبقى لها، توقن أن عليها بقدر الإمكان قضاء حياتها الآن في بشاشة ومرح من أجله. كان عزاؤها الوحيد أن يوتو نفسه ربما بسبب عدم معرفته بالموت لصغر سنه، بات مفعمًا بالحيوية والنشاط بدرجة غير متوقعة بعد العودة إلى مسقط رأسها.

ثم تذكَّرت والدها. والدها الذي لم يرفع صوته ليعنفها طوال حياته، والذي استمر يغدق عليها دائمًا حبًّا بلا حدود. ومع أنها لا تؤمن إيمانًا خاصًا، إلا أن عائلتها ممَّن يُطلق عليهم «بوذيون طقوسيون» من طائفة الأرض الطاهرة، ولذا كانت تتخيل كثيرًا والدها يتولى رعاية حفيده ريو في الجنة، فتشعر بالراحة قليلًا. قالت لها أمها نفس ما فكرت فيه صراحة: «لقد ذهب الجد إلى الجنة مبكرًا قليلًا لكيلا يشعر ريو بالوحدة. ذهب إليه سريعًا لقلقه عليه. لا ريب أنه فضَّل أن يذهب بدلًا منكِ، فأنتِ أمامك وقت طويل على الذهاب».

وجدت ريئه في العيش بمسقط رأسها بعد غياب أربعة عشر عامًا بعض العزاء. لكنها تعاني العدمية أحيانًا، عندما تفكر بقلق: هل أنا بخير؟ يمر الزمن عليها من دون أي إحساس وكأن الوثاق الذي يربطها بهذا العالم قد انفك. ثم تطفو على ذهنها فجأة فكرة أن الموت ليس مخيفًا، مثلما تطفو في لحظة معينة قمامة ترسبت في قاع بحيرة. «فحتى ريو الصغير خاض تجربة الموت وينتظرني هناك مع أبي». ثم تحس ببرودة شديدة في جسدها من تلك الفكرة الطائشة.

ظلت منذ عودتها تطالع بمشاعر الغيرة حسابات أصدقائها السابقين في يوكوهاما بمواقع التواصل الاجتماعي. لكن بعد أسبوع من الاستمرار في متابعتهم فقدت الاهتمام بكل ما يتبادلونه هناك من كلمات وصور، إلى درجة أدهشتها هي شخصيًّا.

كان المحل خاليًا دائمًا، لكن استطاعت ريئه أن تدبر بصعوبة المعيشة لها ولأمها وابنها بفضل وجود تعاقد مع الشركات. لكن المستقبل ليس مشرقًا.

كانت تعود مرتين كل عام في عطلتَي الشتاء والصيف، وتلاحظ كساد المحلات وزيادة المغلقة منها، ولكنها عندما استقرت وعاشت بالفعل، شعرت بمشاعر وحدة مَن تُرك بمفرده في بيت كبير ينهار.

ترددت ريئه في الماضي على قاعة لتعليم البيانو لمدة ثماني سنوات، بمبنى مكون من طابقين على الجانب الآخر من الطريق أمام المحل، أصبح هذا المبنى الآن أطلالًا لا يسكنه أحد. بل إن جدرانه لم تُشوَّه بكتابات عشوائية لعدم وجود شباب يفعلون ذلك.

كانت ريئه تعبر الطريق وتتردد على ذلك المبنى مرة في الأسبوع، ثم تعود إلى المحل وتؤدي واجباتها المدرسية إلى أن ينتهي والدها من العمل. إنها تشتاق الآن اشتياقًا شديدًا إلى الوقت الذي كانا يقضيانه وحدهما عندما تجلس بجواره في سيارته ويقودها عائدًا إلى البيت.

من وقت إلى آخر تمر أفكار عديدة على ذهنها: أتعود إلى العاصمة مرة أخرى، أم تذهب إلى هاكاتا وتبحث هناك عن عمل؟ لكنها تخاف أن تأخذ تلك الأفكار بجدية، فتتركها تختفي.

أحسَّت ريئه أن بيت العائلة ضعيف تمامًا تجاه البرودة، مع أن الجو يُفترض أن يكون أدفأ من يوكوهاما كثيرًا، لكن ربما كان سبب ذلك طول مدة سكنها في عمارة سكنية في يوكوهاما وليس في بيت مستقل. وكانت غرفة الاستحمام بصفة خاصة شديدة البرودة، فأصيبت هي ويوتو مرتين

بنزلة برد في ذلك الشتاء، ومرضتهما أمها الناجية الوحيدة من البرد وهي مذهولة.

زار دايسكيه تانيغوتشي محل الأدوات المكتبية لأوّل مرة في فبراير من العام التالي لعودة ريئه إلى بلدتها. في مساء يوم بعد تعافيها من نزلة البرد.

دخل دايسكيه بمفرده فجأة إلى المحل في الوقت الذي كانت تتوقع مجيء طلاب المدارس العائدين من المدرسة لشراء كراريس وأقلام. كانت الدنيا قد أظلمت بالفعل، وتفكر أنه حان الوقت لكي تترك أمها في المحل وتعود إلى البيت لإعداد وجبة العشاء.

كان عدد الزبائن الذين يدخلون المحل قليلًا، ولذا جذب انتباهها ذلك الزبون الذي لا تعرفه وقد بدا من عمرها نفسه تقريبًا. وكان غريبًا أن ما حمله وأتى به إلى ماكينة البيع ليس مفكرة فقط، بل عِدة رسم كاملة من دفتر وألوان مائية. كان نحيلًا وقامته تجعلها هي قصيرة القامة تنظر إلى أعلى قليلًا، وكان يرتدي ملابس متواضعة مكونة من معطف كحلي وبنطلون جينز. وشعرت بلا سبب معين بأنه ليس من أهل البلدة.

تخيلت وهي تنزع بطاقة السعر من على دفتر الرسم، حياته الجديدة التي بدأها في هذه البلدة، وفكرت في السبب الذي جعله يفعل ذلك. إن أي شخص من هذه البلدة، سيشعر مثلها بأن فعله هذا عجيب. قالت له مرة ثانية وهو يغادر المحل: «شكرًا جزيلًا». لكنها شعرت من خلال ظهره هذا بأن له حياة تمتلئ بالعديد من الحكايات التي يجب أن تُحكى.

زار المحل مرة ثانية قبل أن يمر شهر على تلك المرة، وكما هو متوقع اشترى دفترَ رسمٍ وبعضًا من الألوان.

كان يومًا تهطل فيه أمطار شديدة الغزارة، وفي الوقت نفسه أتت صديقة أمها القديمة السيدة أوكومورا تحمل معها هدية من جذور الخيزران.

قالت له ريئه عندما رأته يستحي من القدوم إلى ماكينة البيع:

- تفضَّل.
فقالت السيدة أوكومورا وهي تفسح له المكان:
- آه، أنا آسفة يا بُني، يبدو أنني أعطلك.
طأطأ دايسكيه رأسه في خجل، ووضع المشتريات على المكتب.
وجَّهت السيدة أوكومورا إليه الحديث قائلة:
- يا لها من أمطار غزيرة!
ابتسم دايسكيه قائلًا:
- أجل.
كانت سيارته البيضاء ذات المحرك صغير الحجم تقف أمام المحل.
وعندما سألته ريئه قائلة:
- هل تريد فاتورة؟
نظر إلى أسفل وقال:
- كلَّا، لا داعي لها.
كان يبدو عليه القلق من نظرات الناس إليه، فرفع وجهه فجأة إلى أعلى ونظر مباشرة إلى ريئه. فتحت ريئه عينيها على وسعيهما وكأنه تحدَّث إليها. لكنه ظل صامتًا وأبعد نظره عنها، ثم أومأ إليها إيماءة تحية، وخرج من المحل مسرعًا وسط المطر نحو سيارته.

بعد ذلك أيضًا كان هذا الزبون الذي لا تعرف اسمه، يأتي إلى المحل مرة كل شهر، ويشتري دفترًا وألوان رسم.
كان يأتي غالبًا في المساء، وفي البداية كان يشتري دفترَ رسمٍ كبيرًا من حجم A3، لكنه بعد ذلك أصبح يشتري مع الدفتر الكبير أيضًا دفترًا صغيرًا من حجم A5. إن مَن يحتاج إلى هذه الأشياء في الأغلب طلاب المدارس الثانوية المنضمون إلى نادي الرسم في مدارسهم، وأصبحت ريئه تتذكره تلقائيًّا كلما طلبت طلبية جديدة من تلك المواد.

مرت ستة أشهر تقريبًا، واقتربت نهاية العطلة الصيفية ليوتو.

وفي يوم تهطل فيه أمطار غزيرة، زار ذلك الزبون المحل زيارة غير متوقعة بعد الساعة الثالثة عصرًا بقليل.

كانت هناك غيوم كثيفة تغطي المدينة بأكملها، وسبَّب هزيم الرعد الذي يصدع في الأرض متأخرًا عن البرق الرعبَ لريئه أكثر من مرة.

وعندما فُتح باب المحل انهمر صوت الزيز الزاعق من أشجار الطريق في ذلك اليوم أيضًا مع الهواء الحار الرطب، فأغلقته مرة أخرى على الفور.

وكان ذلك الوقت هو الذي اعتادت السيدة أوكومورا القدومَ فيه لتحتمي من المطر، وتتحدث معها حديثًا طويلًا.

جلست السيدة أوكومورا على المقعد، وانهمكت في الحديث مع أم ريئه وهي تأكل كعكة الأرز الحلوة، ثم سألت دايسكيه الذي حمل كما هي عادته دفتر الرسم والألوان:

- هل تهوى الرسم؟

ابتسم مندهشًا وقال:

- أجل.

- أحد زبائني رآك وأنت ترسم، وقال إن رسمك جيد جدًّا. عند حشائش نهر هيتوتسوسيغاوا. لقد تراكمت اللوحات لديك إذن، أليس كذلك؟

أومأ دايسكيه إيماءة خفيفة فقط وقد انبسط وجهه قليلًا.

- ألا تُريها لنا هنا في المرة المقبلة؟ تريدين رؤيتها أنتِ أيضًا! أليس كذلك يا ريئه؟

أدركت ريئه أن هذا الطلب ليس نابعًا من مجرد فضول، بل هو من أجل البحث والتحري عن هذا الزبون الدائم الذي لا يُعرف له أصل من فصل. ثم تذكَّرت الآن وبعد كل هذه السنين رغبتها الشديدة في سن المراهقة في الهروب من هذه البلدة الريفية الهادئة بأي وسيلة.

وشعرت هي بالاعتذار تجاه ذلك الزبون الهادئ الجديد الذي انتقل للإقامة خصوصًا في بلدتهم.

- ألا ترين يا خالة أنه منزعج؟ أعتذر إليك. أرجو أن تأتي مرة ثانية ولا تشغل بالك.

- آه، كلَّا، فهو ليس شيئًا ذا بال بدرجة أن أريه لكما.

أومأ هكذا، ثم غادر المحل مسرعًا كما هي عادته.

نظرت السيدة أوكومورا إلى ريئه وأمها بالتبادل، ثم ضحكت ضحكات لها معنى.

٢

فكرت ريئه أن ذلك الزبون لن يأتي مجددًا. وعندما فكرت في ذلك شعرت بالوحدة قليلًا.

لكن لم يكن ذلك بسبب عدم قدرتها على لقائه، بل لأنها أشفقت على ذلك الرجل الذي يبدو وحيدًا عندما فكرت أنه سيرحل في النهاية عن تلك البلدة. إنه إحساس الوحدة الذي يشبه ما يحس به المرء عندما ينكسر شيء ظل يتعامل معه بحرص بالغ مخافة أن ينكسر، ثم فجأة يلمسه شخص فينكسر.

لكن خلافًا للتوقعات، زارها في الأسبوع التالي بمفرده في مساء أحد أيام الأسبوع. كان يبدو مهمومًا بنظرة أهالي البلدة المتشككة له.

وضع على الطاولة دفترَي رسمٍ وقال:

- هذان.

بسبب مشيه ممسكًا بهما من البداية للنهاية شحب لون الغلاف الأخضر.

لم يكن في المحل زبائن غيره، وكانت والدتها في الخارج، لذا لم يكن في المحل أحد سواهما.

اتسعت ابتسامة ريئه على امتداد خديها وقالت:

- أأحضرتهما من أجلي؟

بدأت الصفحة الأولى بمنظر عام لجزيرة أوشيما في مدينة ميازاكي. تعاريج الشاطئ المُسمَّى «لوح غسيل العفريت» الذي يشبه الموجات الهادئة،

وبوابة معبد أوشيما، وعلاوة على ذلك رُسم خط الأفق البحري البعيد وعمق البحر الذي يعكس السماء الزرقاء الممتدة فوق الرأس.

رفعت ريئه وجهها ونظرت إلى ذلك الزبون الذي لا تعرف اسمه، وقد وقف متصلب الملامح. يبدو أنه كان يحاول الابتسام، لكن ارتعش خدَّاه فلم يستطِع الابتسام بمهارة.

وعندما قلَّبَت الأوراق أكثر، وجدت رسومًا لأماكن متنوعة مثل نهر هيتوتسوسيغاوا الذي ظهر مرة في الجوار والحدائق القريبة منه والسد الذي في الجوار، وأشجار الكرز الممتلئة بالزهور عند المقابر الأثرية، أي الأماكن السياحية التي تبدو جاذبة للأغراب، وكذلك الأماكن التي ليس بها ما يميزها إلا أنها أيضًا تبدو نادرة ومثيرة في أعين الأغراب. بعض الرسوم مجرد رسوم تخطيطية سريعة، وبعضها الآخر ملون بالكامل.

لم تكن لوحات تُشعر بموهبة متميزة قَطُّ. لكنها أيضًا لم تكن لوحات رديئة بلا موهبة، تذكرت ريئه لوحات الطالب الذي كان أفضل مَن يرسم في فصلها في المدرسة المتوسطة.

أغلب الناس يرسمون لوحات حتى نهاية المرحلة المتوسطة في حصص الرسم والفنون، ثم يتوقفون عن الرسم تمامًا بعد ذلك. لو أُعطي شخص فجأة قلم رصاص وورق رسم بعد أن يكبر ربما يرسم لوحات مثله. لم تتطور الطريقة والتقنية عن تلميذ المرحلة المتوسطة.

لكن الجميع انقطعوا عن الرسم، بينما استمر هو. ربما كانت تقنية الرسم بالفعل كما هي. لكن ماذا عن الحالة النفسية؟ أليس النضج أو حتى الشيخوخة لا تتسامح مع مثل هذه البراءة الطفولية؟!

تأثر قلب ريئه بشدة عندما وجدت شخصًا ناضجًا يبدو أنه لا يختلف عن سنها، مستمرًّا في رسم مثل تلك اللوحات البريئة في صمت بمشاعر مسترخية، بعد أن وصل إلى النصف الثاني من ثلاثينيات عمره، ليس مرة واحدة على سبيل اللهو، لكن على مدى يملأ عددًا كبيرًا من دفاتر الرسم.

تُرى هل ما زالت عينا ذلك الرجل تريان العالم بتلك الملامح الهانئة؟ تُرى ما تلك الحياة التي يمكنها أن تتقبل ذلك بهدوء وسلام؟

استمرت في تقليب الصفحات ببطء على مدى ربع الساعة تقريبًا. لم تكن تريد أن يقاطعها أحد عن ذلك. لم تكن تريد أن يأتي الآن أي زبون. هكذا كانت تتمنى.

وأخيرًا، توقفت عيناها أمام لوحة في نهاية الدفتر الثاني.

لوحة مبنى مركز الباصات التي يستخدمها طلاب المدارس الثانوية يوميًا للذهاب إلى المدارس والعودة منها في ميازاكي.

لقد مرتْ من أمامه حتى الآن مرات كثيرة، لكنها عندما رأت لوحته، لسبب مجهول تجمعت الدموع فجأة في عينيها واضطربت لفعلها هذا.

ظلت ريئه تفكر مرات كثيرة بعد ذلك اليوم، لماذا بكت فجأة وقتها؟

وفي النهاية لم تجد تفسيرًا إلا أنها كانت وقتها تعاني حالة شديدة من عدم الاستقرار النفسي. ليس فقط الحزن على موت ابنها ريو ووالدها، بل لقد فاضت مشاعرها الوجدانية التي ارتفعت من دون أن تدري تجاه ذاتها منذ عودتها إلى موطنها، في النهاية خرقت قطرات ضئيلة جدًّا التوتر السطحي فخرجت وفاضت.

عندما كانت تجلس في غرفة انتظار تلك المحطة كل يوم تنتظر الباص الذاهب إلى مدينة ميازاكي، لم تكن تحلم أنها ستتوظف في يوكوهاما عاصمة كاناغاوا وتتزوج وتعيش هناك، ثم تنجب طفلين، وتفقد أحدهما سريعًا، ثم تُطلَّق وتعود إلى هذه البلدة مرة أخرى.

محطة الباصات في تلك اللوحة بألوانها المائية المنعشة، وعلى الرغم من مرور خمسة عشر عامًا بالفعل، لم تتغير قَطُّ عن المبنى في ذاكرتها الذي تحن إليه. الشيء الوحيد الذي تغير هو أن المبنى لا يحتوي على صورتها في عمر المراهقة وهي ترتدي الزي المدرسي.

عامة، ربما مرت مثل هذه الأفكار سريعًا بعقلها الباطن في أثناء تذكرها

لها مرارًا وتكرارًا فيما بعد. في تلك اللحظة، بمجرد أن برز داخلها شيء ملأ قلبها، وحطَّم كل ما عداه من مشاعر وأفكار.

مهما حاولت أن تخدع دموعها فلم تستطِع، وخرجت عن سيطرتها، فمسحتها بباطن أصابعها وهي تقول ضاحكة:

– لوحات رائعة. أعتذر إليك. إنها أماكن أعرفها جيدًا، فيبدو أنني تذكرتُ الماضي.

ثم أغلقتْ دفتر الرسم بهدوء لكيلا تقع الدموع عليه فتبتل اللوحات، وغطت فمها بإحدى يديها، وظلت فترة تقاوم البكاء، ثم ابتسمت مجددًا ابتسامة بشوشًا.

لكن ما أثار دهشتها أن «الزبون الدائم» الذي كان حتى وقتها يقف صامتًا، ظل يحملق إلى وجهها بثبات، وقد احمرت عيناه فجأة وذرف الدموع مثلها تمامًا. ثم طأطأ رأسه مسرعًا وكأنه رأى سرًّا مكشوفًا أكثر من أنه فعل ذلك خجلًا، وتوجه إلى رفوف البضائع القريبة. وبعد قليل عاد وفي يده قلم جاف أحمر يبدو أنه أخذه في يده بعشوائية، وكان وقتها قد مسح دموع عينيه.

وظل في أثناء انتظاره الحساب مغلقًا فمه بصرامة، ولم ينطق ببنت شفة.

وريثه كذلك لم تتكلم، ولم تفهم قَطُّ ما حدث. لكن كان الهدوء الرائق الذي تنيره مصابيح النيون في كل أركانه، قبل مجيء الليل، محببًا جدًّا لها ولم تكن تريد تحطيمه.

زار دايسكيه المحل في المرة التالية بعد أسبوع.

ولأوَّل مرة تُلقي عليه تحية حميمية «يومك سعيد»، وليست التحية الرسمية للزبائن «مرحبًا بك في محلنا». أجاب عليها دايسكيه أيضًا «يومكِ سعيد»، وبعد أن انتهى من دفع ثمن ورق التصوير وغيره من أدوات العمل التي اشتراها، رفع وجهه وقال لها:

– معذرة!

- نعم!

فتحت رينه عينيها على وسعيهما وانتظرت بأمل.

- إن لم يكن الأمر مزعجًا لكِ، هل يمكن أن نصبح صديقَين؟

- ماذا؟ أجل.

أومأت رينه مذهولة. ثم شعرت بارتفاع نبضات قلبها الذي لم تعرف أهو بسبب الدهشة أم بسبب الفرحة!

تُرى كم مرَّ من زمن منذ آخر مرة سمعت فيها كلمة «صديقَين»؟ شعرت بأنها تسمعها بعد غياب طويل، لكن من المؤكد أن ذلك غير حقيقي. بل على العكس لقد سمعت تلك الكلمة ورأتها بكثرة تدعو إلى النفور سواء وقت أن كانت في يوكوهاما أم بعد عودتها إلى مسقط رأسها. بل إنها كانت متصلة مع «الأصدقاء» مثل الآخرين من خلال الفيسبوك الذي لم تعد تفتحه كثيرًا في الوقت الحالي، وهنا في أي مكان تذهب إليه يمتلئ بأصدقاء الطفولة والصبا.

لكن كلمة «صديقَين» التي لفظ بها لسانه كان لها رنين طازج مختلف عن كل ذلك. ولكن مثل هذا الطلب المباشر ربما لم يُوجَّه إليها حتى في صغرها. وعندما تفكر في هدوء، فطلبٌ كهذا عندما يخرج من لسان إنسان ناضج يعطي انطباعًا منفرًا، لكن ربما رؤية دفتر الرسم ذلك أعطاها الأمان.

لكن، تُرى ماذا يعني أن نصبح صديقَين؟

لم تكن حتى متأكدة من الأمر الذي وافقت عليه.

- ما اسمك؟

- اسمي دايسكيه تانيغوتشي.

أخرج من جيبه بطاقة اسم واحدة كان قد أعدها سابقًا. حاول جاهدًا أن يُخفي رعشة يده. كُتب في البطاقة اسم شركة «إيتو للغابات» ورقم الهاتف الجوال وعنوان الإيميل.

- آسفة فأنا لا أملك بطاقة اسم حاليًّا، اسمي رينه تاكيموتو. سأكتبه لك.

مدت رينه يدها إلى ورقة صفراء معدة للصق بجانب ماكينة البيع.

- إن لم يكن ثمة مانع، ما رأيك في تناول وجبة معًا يوم الأحد المقبل؟
قالت ريئه وكأنها تبوح بسر بنبرة لا تحتمل سوء الفهم:
- الأحد يجب عليَّ رعاية طفلي.
- هل أنتِ متزوجة؟
- كنت. حصلتُ على الطلاق وعدتُ إلى بيت أهلي مع طفلي.
- حقًّا؟ آسف فلم أكن أعرف.
- لو كنت تعرف لكان ذلك مرعبًا! ولذلك على الرغم من قول «نصبح صديقَين» فليس أمامنا إلا الحديث معًا هنا. هل لديك مانع من ذلك؟
- بالتأكيد لا مانع. هذا كافٍ جدًّا.
- أحيانًا أذهب للبيع خارج المحل، لكن في أغلب الأحوال أنا هنا كل يوم. وكما ترى لديَّ وقت كثير بلا عمل، لذا أرجو أن تريني لوحاتك مرة ثانية. وما من ضرورة لشراء شيء.

وبعدها أصبح دايسكيه تانيغوتشي يزور المحل مرة كل عشرة أيام تقريبًا، وتدريجيًّا أصبح الحوار أطول، ثم في وقت ما أصبحت تطلب من أمها الوقوف في المحل ويذهبان معًا لشرب الشاي. كان يعمل في قطع الأشجار من الغابات، فعمله ينتهي قبل الساعة الرابعة. والآن يعمل في غابة جبلية قريبة، فقال إنه يأتي سريعًا بعد الانتهاء من العمل.

في أحد الأوقات، جربت ريئه أن تسأله عن ماضيه الذي كانت تحرص فيما مضى ألا تتطرق إليه.

كان دايسكيه ذلك اليوم في عطلة من عمله بسبب تواصل هطول الأمطار منذ ليل اليوم السابق، فزارها في فترة الظهيرة وكانا وقتها يتناولان معًا وجبة الغداء في مطعم قريب يُقدِّم وجبة سمك الثعابين المشوي.

كانت تلاحظ أنه لا يرغب في الحديث عن نفسه وعن أصله كثيرًا، لكنها مؤخرًا شعرت من كلماته بأنه يريد منها أن تسأله.

بعد انتهاء الطعام، تردد دايسكيه قليلًا ثم بدأ يتحدث وهو يشرب الشاي الساخن.

كان الابن الثاني والأخير لعائلة تملك نُزلًا للينابيع الساخنة في منطقة إيكاهو بمحافظة غونما، ولديه شقيق يكبره بعام واحد فقط.

نشأ شقيقه مدللًا، لم يكن شريرًا في جذوره، إلا أن اطمئنانه أنه في النهاية سيرث هو النُّزل لأنه الابن الأكبر، جعله يهمل دراسته، وبدأ في مرحلة المدرسة المتوسطة ينحرف سلوكيًّا، مما أتعب والديه كثيرًا. ومع ذلك استطاع بصعوبة دخول جامعة خاصة في طوكيو، ثم ذهب للدراسة في أمريكا لمدة عامين، ثم بعد عودته إلى اليابان فتح مع صديق له مطعمًا في طوكيو.

وكان والداه غارقَين لآذانهما في حب ذلك الشقيق، واستمرَّا في إقناعه بالعودة إلى النُّزل بعزيمة لا تلين، لكنهما يئسا في النهاية، وقررا مرغمَين أن يرث الأخ الأصغر دايسكيه النُّزل. كان دايسكيه من حسن الحظ أو سوئه، متواضعًا في حياته مقارنة بشقيقه، وتخرج في كلية الاقتصاد في جامعة حكومية إقليمية.

وبعد بدايته العمل في نُزل والده ظل هدفه الأكبر تشجيع والديه اللذين أُصيبا بخيبة أمل في شقيقه الأكبر، فعمل بجد واجتهاد. بدأ الوالدان وإن كان ذلك تدريجيًّا، يتقبلان فكرة الاعتماد على الابن الأصغر في حمل عبء مستقبل النُّزل. لكن، بعد مرور مدة من الزمن، فشل الابن الأكبر في مشروعه التجاري، فعاد إلى والده يبكي محمَّلًا بديون كبيرة. فجعله الأب يتعهد بوراثة النُّزل في مقابل أن يسدد عنه ديونه. ورفعت الأم يدها موافقة على ذلك القرار، ووُعِد دايسكيه مستقبلًا بعد أن يصبح الأخ الأكبر رئيس النُّزل أن يصير هو نائبه.

بصرف النظر عن مُسمى الوظيفة، لكنه فهم أنه يجب عليه العمل على أرض الواقع بجدٍّ لدعم ومساندة النُّزل. لكنه كان يخشى أن تسوء بسبب

ذلك علاقته مع شقيقه الأكبر. كان يتساءل منذ الماضي البعيد لماذا يحب والداه شقيقه لمجرد فقط أنه «الابن البكري»، لكن لم يفهم السبب حتى الآن. لقد كان يحب شقيقه، لكن لم يكن شقيقه يحبه.

بعد عدة سنوات أُصيب الوالد بسرطان الكبد. كان في الحادي والسبعين من العمر، وكان في مرحلة متأخرة جدًّا والطريقة الوحيدة لإنقاذه كانت عملية زرع كبد. ومع ذلك قيل لهم إن احتمال إنقاذه ليس بنسبة عالية. ولم يكن الوقت يسمح بانتظار توافر كبد من مريض مات دماغيًّا، وكان الحل الوحيد هو نقل جزء من كبد أحد أفراد العائلة. وبعد الفحص وُجد أن الشقيق الأكبر غير صالح بسبب ارتفاع نسبة الدهون في الكبد. وكانت كبده هو بحالة جيدة وصالحة للتبرع. لسخرية الأمر لم يكن مهملًا في صحته مثل شقيقه.

في عملية زراعة الكبد يتعرض المتبرع بجزء من كبده أيضًا لمخاطر حدوث مضاعفات. وحتى الموت غير مستبعد. لأوَّل مرة في حياته يحني والده رأسه أمامه ويقبض على يده باكيًا ليطلب منه أن يكون «بارًّا بوالده». وقالت أمه وشقيقه إنهما يتمنيان أن يطيل عمر الوالد، لكنهما لم يقولا له مباشرة إنه يجب عليه تنفيذ أمنية والده. لكنهما أيضًا لم يقولا له إنه ليس ملزمًا بفعل ذلك. كان الثلاثة يتشاورون دائمًا معًا في غير وجوده ولم يحث أحد الأب على تغيير رغبته. وعندما يذهب للزيارة ويجدهم في ذلك الوضع كان الجو يتكهرب. كان يعلم أن الوقت ضيق وأن الأمر عاجل.

وفي نهاية الأمر وافق على أن يتبرع بجزء من كبده. فهو أيضًا يتمنى مثلهم أن يطول عمر والده، وكان متفهمًا لمشاعر أمه وشقيقه. ولذلك اتخذ قراره الحاسم بالتقدم بنفسه والتبرع بكبده بمشاعر متقبلة من دون ضغوط.

فرح والده كثيرًا لقراره. وكانت تلك هي المرة الوحيدة طوال عمره التي قال له فيها والده «شكرًا». وقال شقيقه الأكبر إنه سيتنازل له عن إرث والده كله في المستقبل. وكذلك بدت الفرحة على أمه.

لكن، من سوء الحظ كانت حال والده تسوء بأسرع من المتوقع، وفي النهاية باتت الحالة ميؤوسًا منها تمامًا في أثناء فترة تردده في اتخاذ قرار الموافقة على التبرع.

مات والده ووجهه يمتلئ بتعبير مخيف للغضب وللحقد.

حزن عليه الجميع، لكن لم تواسِه أمه وكذلك شقيقه قَطُّ بكلمات رقيقة على قراره الذي أصبح بلا معنى.

- أما أنا فكما هو متوقع شعرت بالارتياح. كنتُ أريد إنقاذ حياة أبي، لكنني كلما كنتُ أبحث في الأمر يزداد خوفي. وهكذا، بعد موت أبي شعرت بأن شيئًا داخلي قد انكسر ولا يمكن أن يعود إلى حالته الأصلية بأي طريقة. ولذلك قطعت كل صلتي بأهلي وتركت المدينة. كانت رغبتي أن أذهب إلى أبعد مكان ممكن، وليس في نيتي لقاؤهم مرة أخرى. وهذه آخر مرة أتحدث فيها عنهم.

سمعت رينه حديث دايسكيه صامتة حتى النهاية من دون أن تقاطعه. وتخيلت مشاعره بعد أن وصل في نهاية رحلة طويلة إلى هذه المدينة النائية واختياره العمل البدني الشاق، وبخاصة في تقطيع أشجار الغابات الذي يتصف بالخطورة الشديدة، وقضائه عطلات الأسبوع وحيدًا يرسم اللوحات، ثم بعد مرور ستة أشهر استطاع أن ينطق بقول: «هل يمكن أن نصبح صديقَين؟».

تعاطفتْ مع حالته وشعرت بأن الصداقة التي بينهما تحتم عليها أن تبوح له بأسرار تناسب اعترافاته تلك. فتحدثت إليه عن موت طفلها بمرض نادر، وعن طلاقها من زوجها الذي اختلفت معه في طريقة علاج الطفل الراحل، وعن قرارها العودة إلى مسقط رأسها، ثم عن موت والدها مباشرة بعد موت طفلها وعودتها.

بعد أن ظل دايسكيه يرنو طويلًا إلى رينه، طأطأ رأسه قليلًا، وأومأ إيماءة خفيفة مرتين. أخذ عدد الزبائن في المطعم يقل، ورُفعت أواني سمك الثعابين

من على المائدة. ظل الاثنان في صمت. وأخيرًا مدَّ دايسكيه ذراعيه وكأنه يستجمع شجاعته، ثم أمسك يد ريئه التي فوق المائدة. ربما من الأفضل القول إنه غطاها برقة وحنان. كان سلوكًا لم تتوقعه ولكن دفء يدَيه الممتلئتين بالبثور من كثرة استخدام المنشار أعطاها مواساة، فشعرت بسعادة. وربما لو لم يفعل هو ذلك لفعلته هي بنفسها.

ظلت ريئه على حالتها تلك لم تتحرك. ظلت فترة تفكر وهي تسقط عينيها على الكوب البلاستيكي الشفاف الذي أظلم كثيرًا، هل يجب عليها أن تترك نفسها لذلك التغيير الذي هب فجأة على حياتها أم لا؟

بعد الزواج أقام دايسكيه في بيت ريئه، وأنجب الاثنان طفلة أطلقا عليها اسم «هانا» أي زهرة. ووقع الحادث لدايسكيه في الغابة عندما بلغ يوتو الابن الأكبر الثانية عشرة من عمره، وبلغت هانا الثالثة من عمرها.

وعندما وصلوا جميعًا إلى المستشفى كان دايسكيه قد لفظ أنفاسه الأخيرة. ولأنه عمل في منتهى الخطورة فقد سبق أن تحدثا معًا عن حدوث ذلك أكثر من مرة، فقال لها ألا تتصل بعائلته في محافظة غونما، وأنه لا يرغب في أن تكون لهم به علاقة حتى بعد موته.

حافظت ريئه على رغبة دايسكيه بعد موته وحتى انتهاء مراسم الذكرى السنوية الأولى، لكنها قررت بعد أن تناقشت مع والدتها أن تكتب رسالة إلى عائلته لإبلاغهم. لأنها كانت ترغب في استشارتهم فيمَ تفعل في عظامه المتبقية في البيت.

وكانت تحمل مشاعر ندم أنها ربما كان يجب عليها أن تصلح ما بين زوجها وعائلته في أثناء حياته. لقد كان موتًا مفاجئًا ترك خلفه العديد من الأمور العالقة.

بعد تسلمه الرسالة جاء كيوئتشي تانيغوتشي في الحال إلى ميازاكي.

اختلف انطباع ريئه عن كيوئتشي كثيرًا والذي رسمته في خيالها من خلال الصور فقط، عن انطباعها وهي تستقبله عند مدخل البيت بعد أن نزل من السيارة التي استأجرها من المطار.

كان يرتدي سترة كحلية فوق بنطلون أبيض، ويلف حوله حزامًا عليه شعار ضخم لإحدى الماركات الشهيرة. كانت تعرف أنه لا يشبه دايسكيه مطلقًا، ولم يكن مثلما قال عنه دايسكيه مهملًا مع أصله الطيب، بل كانت ملامحه على العكس تعطي انطباعًا بثقة بنفسه تجعل من الصعب الاقتراب منه.

حيته ريئه بقولها:

- أشكرك على قدومك عبر تلك المسافة البعيدة.

لكن كانت ملامح كيوئتشي تجاه ذلك السلوك «الأسري» الذي يحاول إذابة الجليد بينهما، وكأنه لمس شيئًا مرعبًا. ثم أخذ يحملق إلى تلك المرأة التي تتخذ اسم عائلته تانيغوتشي نفسه وهو يقول:

- الجو هنا أكثر دفئًا بكثير.

توقفت عينا ريئه على صورتها هي وأمها ووجهاهما يمتلئان بابتسامة مرتبكة انعكست داخل نظارته الشمسية المتدلية على صدره.

مشت أمها في المقدمة لترشده إلى غرفة المعيشة، لكن تبعته من خلفه رائحة عطره التي لا تلائم النهار، لتجعل كل روائح الحياة اليومية لبيت أسرة ريئه الريفي تنتفض منزعجة. بينما يجلس على الأريكة أدار كيوئتشي نظره في قلق على خزانة أواني الطعام المزينة بالصور وعلى السقف المنخفض. وكأنه على وشك أن يقول من دون وعي: هل مات في مثل هذا المكان؟

لقد أبلغته ريئه بالفعل في الرسالة متى جاء دايسكيه إلى هذه البلدة وطبيعة الحياة التي كان يحياها.

وعندما قدمت له القهوة لم يلمسها. بل قال:

- أعتذر عن إزعاجكم.
كانت كلمة غير متوقعة بالنسبة إلى ريئه.
- كلّا، بل نحن نعتذر عن عدم استدعائك لحضور الجنازة.
- أرجو أن ترسلي إليّ فاتورة تكاليف الجنازة وتكاليف المقبرة وغيرها من المصاريف.
- كلّا، لا داعي لذلك.
- من المؤكد أنه قال عني أمورًا سيئة.
كاد كيوئتشي يُخرج علبة السجائر من جيبه، لكنه أوقف حركة يده. بعد أن نظرت ريئه إلى وجهه لثوانٍ معدودة قالت:
- لم يتحدث عن ماضيه كثيرًا. لكن قال إن علاقته مع العائلة...
- لم يكن يرغب في لقائنا. لا داعي لمراعاة شعوري فأنا أعرف ذلك. منذ صغره وهو عبارة عن كتلة من عُقد النقص، وفي أثناء شعوره الدائم بالظلم، انحرفت طبيعته. ولم تكن طبيعتنا متوافقة، في الأصل، شخصيتانا مختلفتان. وهذا أمر شائع بين الإخوة، أليس كذلك؟ لماذا لم يستطِع العيش حياة لائقة؟ لا أصدق أنه اضطر إلى الموت دهسًا تحت الأشجار. كان غير بار بأهله حتى في موته. إنني لم أستطِع إخبار أمي بالخبر بعد.
لم تستطِع ريئه التعبير عن ذلك في ملامحها، لكنها كانت تعارض طريقة كلامه تلك ومضمونَه. ولم تكن تعتقد أنه يتعمد الكلام بطريقة فظة هكذا لكي يتغلب على حزنه لفقدان شقيقه الأصغر، لأنها كانت تحب من كل قلبها حنان دايسكيه الهادئ، فكان رأيها أن رؤيته بتلك الصورة البشعة تعود إلى مشكلة لدى كيوئتشي ذاته. وأخيرًا فهمت الآن لماذا كان زوجها يكره لقاء شقيقه إلى تلك الدرجة، وأحست أنها تريد أن تعتذر إلى زوجها عن إلحاحها المستمر عليه أن يتواصل مع ذلك الشقيق.
- إن لديه طفلة أليس كذلك؟ أقصد لدايسكيه!

- بلى، إنها الآن في روضة الأطفال.
- أنا أيضًا لديَّ ثلاثة أطفال. لا مشكلة من تربيتها بمفردك، أليس كذلك؟
- بلى.
- ابنة أخي! كنت أريد أن أرى وجهها، لكن لا أستطيع البقاء طويلًا. أرجو أن تسمحي لي بإشعال البخور من أجله، وأن تسمحي لي بالعودة اليوم.
- أرجو أن تشعل له البخور، تفضَّل من هنا.
- آه، لقد نسيت، هذه حلوى نصنعها في نُزلنا، طعمها لذيذ جدًّا، أرجو أن تقبليها. إنها حلوى يابانية تقليدية، لكن يمكن كذلك تناولها مع الشاي أو مع القهوة، أو مع أي مشروبات.
قال كيوئتشي ذلك وقدم لها كيسًا ورقيًّا به علبة حلوى.

أرشدته ريئه إلى المذبح البوذي وقالت له: «تفضَّل». كانت أمها تراقبهما من مكان قريب.

جلس كيوئتشي على الأرض جلسة تقديم البخور، وبعد أن حملق فترة إلى صورة الفقيد التي تُزين المذبح التفت إلى الخلف وقال:
- ما هذه الصورة؟
- صورة له قبل عام من الوفاة.
- آها، صورة مَن؟
- تقصد أي صورة؟ آه، هذان أبي وابني.
- ابنك؟ آه، لا، لا أقصد هذه. ألا توجد صورة للراحل دايسكيه؟
- إن تلك هي صورته.
تجهَّم وجه كيوئتشي وصنع تجاعيد بين حاجبيه تدل على الانزعاج. ثم ألقى نظرة ثانية على الصورة ونظر عاليًا تجاه وجه ريئه بارتياب.
- هذا ليس دايسكيه.
- ماذا؟!

أخذ كيوئتشي يوجه نظره إلى ريئه وأمها بالتبادل بعينين غاضبتين ومذهولتين، ثم ضحك وخدّاه متشنجان.

- أنا لا أفهم شيئًا. ماذا؟ هل انتحل ذلك الشخص اسم أخي؟ ماذا؟ دايسكيه تانيغوتشي أليس كذلك؟

- بلى إنه هو. هل اختلف عما كان عليه في الماضي؟

- كلَّا، كلَّا، ليس الأمر أنه اختلف عن الماضي. إنه إنسان آخر تمامًا. مَن هذا الرجل؟

- أليس هو دايسكيه؟ ألستَ شقيقه الأكبر كيوئتشي؟

- أنا فعلًا كيوئتشي.

استمر الصمت فترة.

- هل قدمتم أوراق الزواج، واستخرجتم شهادة الوفاة من البلدية؟

- قدمناها بالتأكيد. ولقد ظل شقيقك يحمل صور العائلة دومًا.

- آسف، لكن هل يمكن أن تريني إياها؟ هل هي موجودة الآن؟

أحضرت ريئه ألبوم الصور، فتناوله كيوئتشي وجلس على الوسادة متربعًا. ثم أخذ يقلب الصفحات من أول صفحة وهو يغرق عنقه داخل الألبوم مستمرًّا في الهمس:

- مَن هذا؟ لا أفهم شيئًا، مَن؟

كانت ريئه في حالة اضطراب، لكنها شعرت في ضحكات كيوئتشي التي تتسرب منه بالإهانة والسخرية من حياتها الزوجية مع دايسكيه. ثم بدأت تشعر بالامتعاض وهي تتساءل مَن هذا الشخص؟ وليس مَن هو دايسكيه. اقتربت الأم التي شعرت بمشاعر الخوف نفسها من ابنتها وأمسكت ذراعها.

إن هذا الألبوم يحتوي على صور أُخذت بكاميرا رقمية وأُعجب بها دايسكيه فطبعها ووضعها فيه.

قلَّب كيوئتشي الألبوم حتى آخر صفحة وهو ينظر بتمعن إلى صور ذلك الرجل الذي يصر على أنه دايسكيه مع ريئه ويوتو وهانا. ثم عندما رأى

كيوئتشي صورة قديمة له مع والديه أحسَّ بالذهول. إنه يتذكر سبب عدم وجود أخيه الأصغر في تلك الصورة. ذلك لأن دايسكيه هو الذي التقطها لهم.

رفع وجهه أخيرًا، ونظر عاليًا تجاه وجه ريئه وعلى فمه نوع من التشنُّج، ثم أبعد عينيه عنها على الفور في غموض. وقال بخيبة أمل:

- في كل الأحوال، إن لم تكن لديكِ خدعة مريبة، فأنت امرأة مسكينة حقًّا، لقد خدعكِ هذا الرجل. إنه ليس شقيقي الأصغر. إنه شخص تنكر باسم «دايسكيه».

سألته ريئه بملامح حادة:

- ما معنى ذلك؟ مَن يكون إذن؟

- أنا أيضًا لا أدري. لأنني أرى صورته تلك لأوَّل مرة في حياتي. في كل حال، لا بديل عن الذهاب إلى الشرطة. إنها قضية نصب واحتيال، أليس كذلك؟

٣

ظل أكيرا كيدو غارقًا في التفكير وهو يقف بجوار باب قطار خط طويوكو عائدًا من طوكيو إلى بيته في يوكوهاما.

لقد كان حسَن الحظ في أنه استطاع الجلوس من محطة شيبويا، إلا أنه انتبه لوقوف امرأة حبلى بجواره فتنازل لها عن مقعده. كانت ترتدي معطفًا يخفي بطنها، لكنها كانت في شهرها الثامن تقريبًا.

لم يكن القطار مزدحمًا بشدة، لكن لم يتنبه لها أي راكب آخر. وحتى طفلها الذي في بطنها فكأنه لا وجود له، وإن قال إنه تنازل عن مقعده لفردين، سينظر الجميع بعضهم إلى وجوه بعض متعجبين من الألغاز التي يقولها.

نزلت المرأة الحبلى في محطة تاماغاوا، وعند مرورها من أمامه انحنت له مرة أخرى. وأبلغته كلمة «شكرًا» بتحريك فمها فقط تقريبًا من دون أن يصدر منها صوت، بعينين تحتويان على مشاعر ألفة. ومن دون وعي استجاب كيدو لذلك وقال لها: «اعتني بنفسك»، وكأنه يتحدث إلى إنسان يعرفه جيدًا.

تركت الابتسامة التي تبادلها مع تلك المرأة أثرًا مستمرًّا لمشاعر مريحة للقلب. ثم فكر في الجنين الذي لم يدرك هذا الحوار البسيط المتبادل بينهما. لم يكن يعلم هل هو ذكر أم أنثى، لكن في كلتا الحالين فهذا الطفل يحتاج إلى مثل هذه الأفعال الخيرة من المجهولين من أجل أن يُولد بالسلامة وينمو ليكبر. ثم شعر براحة أنه أحدهم.

ينتشر اكتئاب منتصف العمر حتى في محيط كيدو، وكان منذ أيام يتحدث

مع زملائه في مكتب المحاماة بسخرية أنه استعدادًا للوقوع قريبًا في كراهية الذات تلك التي لا قاع لها، يجب عليه بذل جهد أكبر في حياته العادية من أجل تجميع أدلة على أنه ليس إنسانًا مريعًا للغاية.

تصطبغ النوافذ بلون الغروب في كل مرة يتخطى القطار المباني، بسرعة تكاد تُفلت منه رؤية آخر أشعة للشمس بعد ذوبانها في الأفق.

ثم أمست صورته المنعكسة على زجاج النافذة داكنة. وعندما أزاح بصره عن النافذة فكر بمشاعر كئيبة في ظروف موكلته ريئه تانيغوتشي.

لقد مر بالفعل ما يقرب من ثمانية أعوام على توليه قضية طلاقها في عام ٢٠٠٤.

كانت تُسمَّى وقتها «يونيدا» تبعًا لاسم عائلة زوجها، وعندما طُلِّقت في نهاية مفاوضات استمرت عامًا كاملًا، وعادت إلى اسم عائلتها الأصلي تاكيموتو، كان عمله قد انتهى. وإذ تسلم منها «إيميل» الشهر الماضي، بعد انقطاع الاتصال منها تمامًا، ولأن اسم عائلتها قد تغير إلى تانيغوتشي، في البداية لم يعرفها، ثم لما عرف أنها ريئه هنأها في سره على زواجها.

لكن عندما تلقى منها اتصالًا هاتفيًّا وتحدث إليها، أبلغته بوفاة زوجها الثاني، بل إن زوجها الذي يُفترض أن اسمه «دايسكيه تانيغوتشي» اتضح بعد موته أنه شخص آخر. بمعنى أن مجهولًا انتحل شخصية «دايسكيه تانيغوتشي» وتزوَّج ريئه وعاش معها وأنجب منها. لكن لم يكن «دايسكيه تانيغوتشي» اسمًا وهميًّا، بل هو اسم حقيقي وله وجود في سجلات الهوية.

شك كيدو في حدوث مثل هذا الأمر. من المؤكد أنه ليس من النادر أن يكذب الشخص وينتحل اسمًا آخر ليخفي هويته. وكيدو نفسه من الجيل الثالث لمقيمين في اليابان وحصل على الجنسية اليابانية وهو في المدرسة الثانوية، ولذا فهو يفهم إلى حدٍّ ما الظروف التي تجعل شخصًا يريد إخفاء هويته.

لكن، ليس من السهل أن ينتحل المرء اسمًا له وجود حقيقي وليس اسمًا من صنع الخيال. وهذا أيضًا، لم ينتحل فقط ذلك الاسم، بل إنه تزوَّج رسميًّا

وقدَّم أوراق الزواج واستخرجَت أسرته شهادة وفاة بعد موته، وفي كل مرة، كانت البلدية تتأكد من أنه الشخص القانوني نفسه الذي يحمل ذلك الاسم. وكان يحمل رخصة قيادة وبطاقة تأمين صحي، وبهما كان يقود سيارته ويتلقى العلاج في المستشفيات، ويدفع أقساط معاش التقاعد بلا تقاعس. وكل المستندات الرسمية تثبت أن الذي مات هو «دايسكيه تانيغوتشي» والماضي الذي كان يحكيه الشخص نفسه عن أسرته في محافظة غونما ليس به تناقض. ومع ذلك كان وجهه لشخص آخر ويصر على ذلك شقيقه الذي جاء لزيارة زوجته بعد الذكرى السنوية الأولى لوفاته، بعد أن رأى صوره.

تُرى ما أصل تلك الحكاية وما حقيقتها؟

فكَّر كيدو فيما يمكن للمحامي أن يفعله في هذه الحالة. ثم قرر مبدئيًّا مساعدة رينه في ترتيب ما يتعلق بالميراث. وذلك اليوم بعد أن حضر محاكمة في قضية بمحكمة طوكيو المحلية، انتهى لتوه من مقابلة كيوئتشي تانيغوتشي شقيق دايسكيه تانيغوتشي في بهو فندق سيرليان في حي شيبويا.

كان كيوئتشي هو رابع مالك لنُزل الينابيع الساخنة في منطقة إيكاهو في محافظة غونما. جاء اللقاء بشعر مجعَّد ابتلَّت أطرافه فقط متطايرة إلى أعلى، وقبل أن يلقي التحية عليه قفزت رائحة نفاذة لا يدري أهي رائحة العطر الذي يضعه أم رائحة مُثبِّتات الشعر!

كانت ملابسه وكأنها قد أُعدت من خلال منسق ملابس في تقرير لمجلة رجالية بعنوان «الأسرار الخفية لجاذبية الرجل في منتصف العمر!». وقال إنه يأتي كثيرًا في رحلات عمل إلى طوكيو، واليوم سيذهب بعد هذا اللقاء إلى حي روپونغي لمقابلة أصدقاء قدامى وقت كان يعيش في طوكيو «لتدفئة العلاقات القديمة» على حد قوله. واندهش كيدو من ابتسامته الخبيثة التي حملت معاني بذيئة نوعًا ما وهو ينطق كلمة «تدفئة العلاقات القديمة».

كانت صورة زوجته منشورة على صفحة النُّزل في الإنترنت على أنها

«مالكة النُّزل الجميلة»، فهل يعني ذلك أن لديه عشيقة من زمن إقامته في طوكيو؟ كان ذلك أمرًا لا أهمية له، لكن لا بد أنه يملك أعصابًا حديدية لكي يتخذ وضعية مَن يقول «أنت تفهم، أليس كذلك؟» لمحامٍ يقابله لأوَّل مرة في حياته.

لكن أيًّا كانت تلك الدردشة التي تمت على سبيل التعريف بالنفس - أو في النهاية ومن ضمنها ذلك - كان حديث كيوئتشي مباشرًا وصريحًا، وعمليًّا، وبلا تردد أو حيرة، وكان انطباعه أن أقواله على الأرجح ليس فيها كذب. بمعنى أن الرجل الذي تزوجته ريئه ليس «دايسكيه تانيغوتشي» الحقيقي.

انحنى كيوئتشي ناحيته لكي يبرز متعمدًا أنه سيصرح له بما في قلبه وهو يحرص على ألا يستمع أحد غيره إلى ما سيقوله فأخفض صوته وقال:

- أنا أشك أن دايسكيه ما زال حيًّا. أعتقد أن ذلك الرجل الذي انتحل شخصيته قتله في لحظة ما. هذا أمر محتمل جدًّا. إن تلك الزوجة كانت معها صور عائلتنا في غونما. صورة التقطها دايسكيه بنفسه لنا في الماضي. أمر مقزز. لقد ذهبتُ معها إلى الشرطة. لكن لكي أكون صريحًا، فنحن نتعامل مع زبائن ونزلاء ولذا لا أرغب أن يُعلَن هذا الأمر، إن كان الأمر كما تقول تلك الزوجة فهي أيضًا ضحية، لكنها حصلت على مبلغ التأمين على الحياة، لذا يجب عليَّ البحث والتحقق من الأمر.

كان كيدو من خلال طبيعة عمله معتادًا المشكلات العائلية، وهو أيضًا لديه شقيق يصغره، لذا كان يعرف تمامًا تعقيد العلاقة بين شقيقين في منتصف العمر. لكنه أحسَّ أن كيوئتشي مع إبدائه القلق على حياته، إلا أن مشاعره تجاه شقيقه الأصغر بدت باردة جدًّا.

جرب كيدو أن يسأله عن ملابسات عملية زراعة الكبد التي سمعها من ريئه. قاطعه كيوئتشي وهو يبدي صراحةً استياءه من الأمر:

- الأمر مختلف تمامًا. يبدو أن منتحل شخصية أخي فهم الأمر خطأ! ربما

بحث في الإنترنت. أو ربما تحدث دايسكيه إليه بالأمر بعد تحريفه. كنا نرغب جميعًا أن يعيش والدي. حتى دايسكيه نفسه. أليس هذا هو الأمر الطبيعي؟ لكننا لم نجبره على التبرع قَطُّ! من المستحيل فعل ذلك. لقد عرض من نفسه أن يكون هو المتبرع. لكنه بعد ذلك بدأ يحرِّف الأمر ويقول ما لم يحدث. إنه دائمًا هكذا. حتى وراثة النُّزل، لقد طلب في البداية أن يرثه هو، لذا تنازلت له عنه! بصراحة لم أكن مهتمًا بمجرد نُزل في الأرياف لا قيمة له. لكن في النهاية جاءني أبي وأمي يبكيان ويقولان إنه لا يصلح للأمر، لذا قبلتُ على مضض العودة. إن دايسكيه يحمل ضغينة تجاهي، قائلًا إن الابن البكري أهم أو الابن الأكبر محبوب إلى آخره، مجرد عقدة الاضطهاد كالأطفال. ألا ترى أنه غبي؟ يجب ألا أقول ذلك لك أيها المحامي، ولكنني أشعر بخيبة أمل شديدة تجاه أخي هذا. لقد سبَّب للعائلة إزعاجًا لا حدود له. اختفى فجأة وقلقت أمي عليه قلقًا عظيمًا. إن قُتل فالأمر أهون، أما لو أصبح مشبوهًا وتورط في جريمة مريبة فسينتهي أمر النُّزل.

كان كيوئتشي مع انفعال مشاعره يسيطر على نفسه بصعوبة كيلا يصرخ غاضبًا، في النهاية أبدى إيماءة تدل على عدم جدوى الكلام، ثم تنهد وقال:

- بالتأكيد نحن نقلق عليه، لأننا أسرة واحدة. لكن...

ثم بعد ذلك استمر الحديث بعض الوقت ولا يدري كيدو كيف آل الحديث إلى وجبة سلحفاة البحر التي يفخر بتقديمها النُّزل.

كان كيدو يومئ بما يناسب كلامه، وبدأ كلامه وهو ينوي أن يوافقه الرأي، قائلًا:

- في نُزل قديم بكيوتو...

لكن كأن كيوئتشي كان ينتظر تلك الكلمة، قال اسم ذلك المكان الشهير الذي يتردد عليه عمالقة الأدب والكتابة منذ الماضي البعيد وقال:

- إن مثل ذلك المكان القديم ذو رائحة كريهة لا يمكن تناول الطعام

فيه، ولا يُرضي أذواق اليوم. إن كبير الطهاة لدينا طباخ عبقري جدًّا، عثرت عليه بعد بحث في مطاعم لا حصر لها. ليس هذا مجرد تفاخر ولكنها الحقيقة.

لقد قضى كيدو فترة تدريبه على المحاماة في كيوتو، وحدث أن صحبه المحامي الذي يتدرب معه مرة إلى ذلك المطعم الشهير. ولقد تأثر بجودة الطعم وندرته التي تليق بشهرته. وحتى الآن يغرق مع ذلك المحامي في تلك الذكريات، ولذا كان على وشك أن يقول في النهاية: «أنت شخص كريه جدًّا» وهو يبتسم ابتسامة متكلفة. إنه لا يعرف «دايسكيه تانيغوتشي» جيدًا، لكنه يعتقد أن مَن لديه شقيق مثل هذا فمن الطبيعي أن تجتاحه الرغبة في الهروب من البيت، وشعر كيدو بالتعاطف قليلًا مع دايسكيه.

بعد عودته إلى البيت، كانت وجبة العشاء لا تختلف عن المعتاد، لكن أشعل ذلك المنظر العادي من الحياة اليومية مشاعر عارمة لديه على غير العادة.

كان بيته عبارة عن شقة في الطابق التاسع من عمارة قريبة من الحي الصيني بيوكوهاما اشتراها قبل أربع سنوات، واقترض الزوجان كلٌّ على حدة قرضًا يُسدد خلال خمس وثلاثين سنة من أجل شرائه. تعمل زوجته كاوري موظفة في شركة سيارات وتصغره بثلاثة أعوام، ولديهما طفل اسمه «سوتا» في الرابعة من العمر. كان يريد إنجاب طفل ثانٍ على الفور، وكان البيت أيضًا يتسع لوجود طفلين كما كانا يخططان، لكن لم يحدث، ومؤخرًا لا يتحدث الاثنان عن ذلك.

كان يأكل الوجبة الصينية التي اشتراها من الحي الصيني وهو يُحذِّر سوتا الذي يقف فوق كرسيه كثيرًا في أثناء تناول الطعام. ثم دخلا معًا للاستحمام.

يبدو أن سوتا يُقرأ عليه في روضة الأطفال كتاب عن الأساطير اليونانية معد خصوصًا للأطفال، ويبدو أنه لم يفهم لماذا تحوَّل نركسوس إلى زهرة نرجس، فسأل والده وهو يحكي له ملخص الحكاية تلخيصًا ركيكًا.

أجابه كيدو بجدية قائلًا:

- أمر صعب الفهم، لكنني أعتقد أن زهرة النرجس ظهرت في تلك الحكاية أولًا، ثم حدث تخيُّل بعد ذلك. لماذا هي بذلك الجمال؟ لماذا تُميل عنقها؟ من المؤكد أن الأمر كان كذلك.

لكن بدا أن سوتا غير مقتنع، وأنه يرى والده يتهرب من الإجابة. وبذلك أصبح البحث عن السبب الحقيقي واجبًا منزليًّا لكيدو.

بعد الانتهاء من الاستحمام، تأمل الاثنان معًا موسوعة ألترامان في غرفة الطفل، فأدرك الأب أخيرًا أن تعلق سوتا بـ«تحوُّل» نركسوس مرجعه إلى «تحوُّل» ألترامان. وبعد ذلك في أثناء تنويمه بعد إطفاء النور، نام هو نفسه بجواره. وعندما استيقظ في وقت متأخر من الليل، كانت غرفة الزوجين مظلمة أيضًا، فلم يفتح بابها.

كان يستخدم غرفة الأطفال الأخرى مكتبًا له مؤقتًا، وبعد أن وضع فيها سريرًا لاستخدامه في أخذ غفوة قصيرة في أثناء العمل، أصبح الزوجان ينام كلٌّ منهما في غرفة منفصلة مؤخرًا. وفي النهاية أدى ذلك إلى أن ينام الاثنان نومًا جيدًا ومريحًا.

وهكذا لم يتحدث مع زوجته بعد آخر حديث عن حفل الكريسماس في روضة الأطفال على مائدة العشاء.

بعد أن أمسى وحيدًا في غرفة المعيشة، شعر بالرغبة في أن يسكر قليلًا، فأخرج الفودكا التي يضعها في ركن المجمدات في الثلاجة لكي تبرد جيدًا، وجلس على كرسي بجوار النافذة. كان احتلال تلك الزجاجة ماركة فنلنديا مساحة من ركن المجمدات في الثلاجة الممتلئ عن آخره بالقدر المسموح به من الأطعمة المجمدة سببًا دائمًا لشكوى زوجته.

صار الصقيع الملتصق بالزجاجة ماءً في شكل اليد التي يمسكها بها، ثم تساقط الماء قطرات. كانت الفودكا التي صُبت في الكأس مثلجة جدًّا إلى

درجة اللزوجة، وانتشرت داخل فمه لسعة تشبه اللهيب المعسول. وأعادت الرائحة التي اخترقت أنفه إلى ذهنه ذكرى رائحة المُطهِّر عند تطعيمه صغيرًا، وهو أول وعي له بـ«الكحول».

شغَّل ألبومًا لحفل حي لفريق «في إس أو بي» بصوت مخفض، وأنهى شرب الكأس الأولى وهو يستمع إلى تنويعات لأغنيتَي «على طريق الدولفين الأخضر» و«ستيلا في ضوء النجوم» في الإعادة الثانية لهما بناءً على طلب الجمهور. امتد ذيل طويل لصوت ساكسفون تينور يمكن وصفه بأنه قمة الشهوانية للعازف واين شورتر ليضربه مخترقًا أعماقه إلى درجة الإيلام.

وبعد إعادة سماع تلك التنويعات لثلاث مرات متتالية أوقف مشغل الموسيقى. تكفي الموسيقى إلى هذا الحد، فلقد شعر بأنه يسقط في الهدوء والسكينة من داخله وخارجه على السواء.

كان يحب وضعه في أثناء سُكْره من الفودكا. يغطس مباشرة في خط مستقيم متوجهًا نحو هوة عميقة من الثمالة وكأنه يمارس الغطس الحر. الطريق في المنتصف رائق إلى درجة الصفاء، ولا تلاحقه الكلمات مطلقًا، بل إنه عندما يلتفت إلى الخلف يجد المذاق نفسه وكأنه يتألق بعيدًا فوق سطح الماء.

وبعد أن شرب الكأس الثانية مباشرة بعد الأولى، ابتعد أخيرًا عن الحياة اليومية ابتعادًا كاملًا، ووصل إلى قاع الوحدة المنعزل. ثم استند بجسمه إلى مسند ظهر كرسي الاسترخاء بحركة منعدمة الإرادة مثل دمية طُوِّحت بعيدًا. ظل فترة على ذلك الوضع، مائل العنق غارقًا في سُكْره.

«إنني سعيد!».

فكر في شعور السعادة العنيف الذي هجم عليه فجأة وهو يمسك يد طفله الصغير في حجرته المظلمة بعد إطفاء نورها منذ قليل. ثم همس داخل صدره «إنني والد هذا الطفل»، كل كلمة من تلك الكلمات – ليس «الطفل» ولا «والد» فقط بل والحروف والأدوات التي تربط العلاقة بينهما! – جعلته

في نشوة. كان شعورًا واقعيًا كبيرًا إلى درجة أنه كاد يُفقده كيانه، ولكنه في النهاية شعر بأنه انعكاس لحالة قلق تعتريه تجعل هذا الموقف البسيط، شيئًا خاصًا جدًا بتلك الدرجة. بل إنه تنبأ أنه سيتذكر هذه الليلة بالذات في المستقبل البعيد على أنها أسعد أوقات حياته كلها.

كانت بداية علاقة كيدو مع كاوري بناءً على «تعارف بواسطة أصدقاء»، لكن كان ذلك الموضع اجتماعًا مبتذلًا لشرب الخمر لا يمكن التحدث عن تفاصيله للآخرين. لقد اكتشف كلٌّ منهما وجود الآخر بالكاد وسط حوار فاحش على الدوام وهما يضحكان ويخبطان أكفهما معًا متظاهرَين بالحيوية.

في كل مرة يتذكر كيدو ذلك، يفكر ساخرًا من نفسه، ألم تكن هناك طريقة أخرى للتعارف بين هذين الزوجين الجادين إلى درجة مملة تناسب مستقبلهما هذا غير تلك الطريقة؟! بعد زلزال شرق اليابان الكبير الذي حدث العام الماضي، أمست حياتهما الزوجية بلا جنس مطلقًا، وكان ذلك أيضًا يعطي مرارة ساخرة لأفكاره.

والحقيقة أنه لم يحدث أن تذكرا معًا يوم التعارف ذلك بعدها ولو مرة واحدة، وفي غضون إخبار الآخرين أنهما تعرفا عن طريق أصدقاء، كادا هما أيضًا يصدقان ذلك.

كانت كاوري ابنة عائلة غنية تسكن في يوكوهاما منذ زمن بعيد، والدها طبيب أسنان، وشقيقها الذي يكبرها بأربعة أعوام طبيب باطني، ومؤخرًا حوَّل جزءًا من عيادة والده لتكون عيادته وبدأ العمل بها. إنها أسرة محافظة لكنها متسامحة، وعند شراء شقتهما ساعدت الأسرة بجزء كبير من مقدمة التعاقد.

وعندما ذهب كيدو ليطلب موافقة الأسرة على الزواج، استقبله الأب ضاحكًا وهو يقول:

- حتى المقيم لو مرت ثلاثة أجيال صار يابانيًّا حقيقيًّا.

وإزاء كلمة الترحيب تلك التي لا يبدو بها أي نوايا سيئة، لم يجد كيدو إلا أن يحني رأسه فقط ويقول:

- يسعدني جدًّا قولك هذا.

وعندما انتشرت المسلسلات الكورية في اليابان، كانت حماته تسأله عن كوريا، لكنها عندما أدركت أنه ليست لديه إجابة كافية ومقنعة لأنه لا يستطيع حتى أن يقرأ أو يفهم اللغة الكورية، أصبحت لا تسأله بعد ذلك.

كان الوقت الذي بدأ فيه كيدو يعي أصله في علاقته مع عائلة كاوري هو وقت حدوث زلزال شرق اليابان الكبير حين بدأت وسائل الإعلام تشير مرات كثيرة إلى مذابح الكوريين الكبرى التي وقعت في أثناء زلزال كانتو الكبير في عام ١٩٢٣.

وقتها عرف لأوَّل مرة ما كان غافلًا عنه وهو أن منطقة يوكوهاما كانت أحد أهم مصادر شائعة «شغب وتمرُّد الكوريين». وفجأة تذكر ما قاله له حموه في أول لقاء، وفكر أن تلك الكلمة كان لها مغزى عميق.

إن جد كاوري يعيش حاليًّا في دار المسنين، ومن المرجح أنه عايش ذلك الزلزال وهو طفل صغير. ومن المؤكد أن والد ذلك الجد الذي رحل منذ زمن بعيد كان وقتها في عمر الكهولة. لقد تدمرت يوكوهاما بالكامل، ويقال إن ثمانين بالمائة من أحياء المدينة تدمرت من الحرائق، تُرى كيف تصرفت أسرتها في أحداث الشغب الوحشية التي حدثت في أثناء تلك الزوبعة؟

بالطبع لم يسأل كيدو حماه، وأيضًا لم يسأل كاوري. بعد زلزال شرق اليابان الكبير، كانوا أحيانًا يتبادلون الحديث عن الزلزال المتوقع حدوثه إن آجلًا أو عاجلًا في العاصمة، لكن لم يحدث أن ذُكر زلزال كانتو الكبير مرجعًا ولو مرة واحدة.

«تُرى ماذا يعني الماضي بالنسبة إلى الحب؟».

سأل كيدو نفسه هذا السؤال الافتراضي وهو يفكر بشأن زوج ريئه الراحل.

«إن الحقيقة هي أن الحاضر نتيجة للماضي. بمعنى أن حب إنسان ما حاليًّا، هو بفضل ماضيه الذي جعل منه ما هو عليه الآن. إن الجينات لها تأثير، ولكن الشخص نفسه سيكون إنسانًا مختلفًا إذا عاش ظروفًا مختلفة. لكن ما يحكيه المرء للناس، ليس كل الماضي بحذافيره، وبصرف النظر عن تعمد ذلك من عدمه، فالماضي الذي تشرحه الكلمات ليس هو الماضي نفسه. فهل يكون ذلك الحب خطأً إن اختلف ذلك مع الماضي الحقيقي؟ هل يتحوَّل كل شيء إلى سراب لو كان كذبًا متعمدًا؟ أم يتولد من ذلك حب جديد؟».

لقد تخرَّجت زوجة كيدو في جامعة كيو، وبخلافه هو الذي تربى في كانازاوا، ولكونها فقط في مسقط رأسها الذي تربت ونشأت فيه، فهي ما زالت حتى الآن لها علاقة بأصدقاء المدرستين المتوسطة والثانوية. وسمع منها شخصيًّا ذكريات الطفولة المتنوعة ويعرفها جيدًا، ومن الطبيعي أنه لم يطرأ عليه قَطُّ شك في أن ذلك كله «كذب».

ولو افترض أن زوجته حكت له حياة إنسان آخر مختلف عنها تمامًا على أنه «ماضيها»، فلا شك أنه كان سيصدقها. ويُفترض أنه سيفهمها على أنها تلك الشخصية التي حكتها. بل على العكس يُفترض أن كاوري هي التي تشك في ماضي كيدو الذي أتى من مدينة بعيدة، لكن اعترافه المبكر بحقيقة أنه مقيم من الجيل الثالث، كان أساس ثقتها تجاه صدقه.

لو ثمة فرصة للانتباه إلى تناقض، لكان ذلك عندما يقابل شخصًا يعرف ماضي كاوري – صديق طفولة أو أحد الأقارب – أما لو كانت تعيش، مثل «دايسكيه تانيغوتشي» في بلاد لا يعرفها فيها أحد وبعد أن قطعت علاقتها بأسرتها، فإن لم يُعهد بالأمر إلى مكتب تحريات خاص، فما من وسيلة للتأكد من ذلك.

همس كيدو في سره: «كلَّا إنه ليس دايسكيه تانيغوتشي». وكأنه يحاول إعادة ترتيب ذهنه الذي على وشك الاضطراب. زوج ريئه رجل آخر انتحل

اسم «دايسكيه تانيغوتشي»، وقرر كيدو مؤقتًا بناءً على عادته الوظيفية أن يطلق عليه اسم «X».

بعد أن سمع كيدو قصة «X» من ريئه، ظل يلاحقه على مدى اليوم. فهو يفكر في أمر «X» في أثناء مشيه وفي أثناء ركوبه القطار بل في أثناء تناوله الطعام مع أسرته، بالضبط مثل لحن يظل يتردد في الأذن بلا توقف.

ماذا يُطلق على مثل هذه الظاهرة؟ لقد سمعت أنها تُسمَّى في حالة الموسيقى «دودة الأذن».

في مرحلة ما من الحياة تعيشها على أنك إنسان آخر تمامًا! لم يفكر كيدو من قبل في مثل هذه الفكرة. بالطبع كان في مراهقته كثيرًا ما يتوق إلى أن يكون مثل هذا الشخص أو ذاك ممَّن يعجب بهم. وكان يتعذب من الغيرة والرغبة في أن يكون ذلك الفتى الذي تحبه الفتاة التي يحبها من طرف واحد. لكن كل ذلك كان مجرد أوهام سخيفة.

كما همس سرًّا أكثر من مرة اليوم، إنه يشعر بأن حياته الحالية نعمة كبيرة. فهو يحتك في عمله كثيرًا بمآسي الناس. وبصفة خاصة في القضايا الجنائية تكون أكثرها مأساوية إلى درجة تُشعره بأنها تقع في عالم آخر تمامًا، وتجعله يمتن أن حياته مختلفة عن ذلك.

مرة أخرى همس في سره: «أنا الآن سعيد!»، لكنه كان صوتًا غاضبًا يحاول السيطرة على هواجس مريبة هاجت داخل قلبه مجددًا.

التخلي عن أي شيء وكل شيء، وأن تَضحَى إنسانًا آخر، يمكنه تفهُّم مثل ذلك التفكير، وأن به سحرًا وجاذبية. ليس بالضرورة في حالة اليأس فقط، بل يمكن التلاعب بتلك الأمنية من خلال ملل يشبه عطلة قصيرة من السعادة. ثم احترس من محاولة البحث في أعماق قلبه أكثر من ذلك.

إذا كان ذلك الانتحال حقيقة، فإن «X» يكون قد ارتكب عدة مخالفات قانونية – بصرف النظر عن رفع الشرطة الأمر إلى القضاء من عدمه – مثل تزوير وثائق رسمية والكذب في أوراق حكومية. وإن وصل الأمر إلى قضية

قتل عمد، كما يدعي كيوتشي، فليس أمامه إلا استشارة زميله في المكتب الخبير في القضايا الجنائية.

آخر كأس، هكذا فكر كيدو وهو يصب الكأس الثالثة من الفودكا. بقي فوق المنضدة أثر دائرة من الماء الذي تساقط من الزجاجة. وبدت له الدائرة وكأنها تقليد متهالك لهلال في سماء الليل البعيدة.

فكر كيدو في ظروف ريئه التي فقدت على التوالي ثلاثة من أسرتها؛ طفلها الصغير ووالدها الذي كان في بداية شيخوخته، ثم زوجها في ريعان شبابه.

تذكر ملامح وجهها الذي يشبه وجه فتاة صغيرة بعينيها الواسعتين، فتعاطف من أعماق قلبه مع مأساتها. كانت صغيرة البنية، ولكنها تملك في تدوير كتفيها متانة لا تجعلها تبدو ضعيفة، ويبدو أن ذلك هو الذي يسندها من جذورها فلا ترتعد أمام المِحن، ولا توافق على ما يشرحه لها إلا إذا اقتنعت به حقًّا.

إن فقدان إنسان طفلَه في سن السنتين ونصف السنة بسبب المرض، أمر يوقعه في يأس كامل بما لا يمكن لكيدو أن يتخيله، إلا أنها واجهت الموقف بصلابة وكانت تبتسم أمام ابنها الآخر الذي تبقى لها. من المفترض أن يكون ذلك الابن في المدرسة المتوسطة حاليًّا.

وكانت مصممة على الطلاق بإرادة حديدية، ورفضت التصالح مع زوجها رفضًا قاطعًا لم يتزعزع!

كان سبب خلافهما هو الصدام بانفعال حول طريقة علاج الابن.

كان اسم الطفل ريو، وساءت حالته الصحية في يوم عيد ميلاده الثاني، وفي المستشفى المجاور لبيتهم، جرى تشخيصه بورم جرثومي. ورم في المخ. كان أمرًا مفاجئًا أربك الزوجين بشدة، لكنهما تفاءلا عندما قيل لهما إن نسبة الحياة خلال خمس سنوات هي ٩٨٪ من خلال العلاج الإشعاعي والعلاج الكيماوي. ووقتها لم تؤخذ كالمعتاد في تلك الحالات عينة حية

من المخ بسبب معارضة الزوج الشديدة. شرح لهما الطبيب أن أخذ عينة حية من المخ له مخاطر عظيمة لأن سن الطفل صغيرة. وإن لم يكن ورمًا جرثوميًّا، سيكون ورمًا سرطانيًّا خبيثًا في منطقة لا يمكن السيطرة عليها أو فعل شيء تجاهها، ولذا أصر الزوج على أنه من غير المنطقي تعريض ابنه لمخاطر عظيمة لمجرد معرفة أن المرض غير قابل للعلاج، وأقنع ريئه بذلك. كانت ريئه ترى أنه يجب أخذ عينة، لكنها في أثناء النقاش حول المخاطر التي تُسبِّب القلق، لم تستطِع الاعتراض.

وبعدها، استمر ريو على مدى ثلاثة أشهر يتحمل العلاج القاسي وهو يتعذب من القيء. وكان عبء تمريضه ملقًى على ريئه بمفردها، فتركت عملها في البنك الذي تعمل به منذ تخرجها في الجامعة.

لكن لم يصغر الورم قَطُّ، بل على العكس كان يزيد. وعرفوا من خلال الأشعة المقطعية على المخ أن ريو مصاب بمرض آخر هو ورم أرومي دبقي. بالضبط كما شُرح في المخاطر أوَّل مرة، ما من علاج لهذا المرض. وقال الطبيب لهما إنه لن يعيش إلا بضعة أشهر. ثم أضاف:

– من الأفضل أن تقضيا معه ما تبقى من وقت في البيت بقدر الإمكان.

ذهبت ريئه بريو إلى مستشفى آخر، لكن لم يتغير التشخيص. ثم لفظ ريو أنفاسه الأخيرة بعد أربعة أشهر فقط. أي أنه لم يعِش بعد ذهابه إلى المستشفى لأوَّل مرة إلا سبعة أشهر لا غير. بل خاض ثلاثة أشهر منها معذبًا في علاج لا معنى له.

غرق الزوجان في حزن هائل، وحاول الزوج حث زوجته على تخطي تلك المأساة التعيسة والعيش معه ومع ابنهما الآخر. لكنها رفضت ذلك بعناد وإصرار وطلبت منه الطلاق.

لم تكن ريئه تعتقد أن زوجها هو سبب موت ابنها. بل على العكس استمرت في عذاب الإحساس بمسؤوليتها الذاتية عن ذلك، لكنها رفضت بحزم العيش مستقبلًا مع إنسان مثله.

ومع تعاطفه معها كان على كيدو أن يشرح لها أن ذلك فقط لا يُعَد سببًا قانونيًّا حاسمًا للطلاق. علاوة على ذلك كان كيدو يُبدي شفقته أيضًا على الزوج. أي نعم أنه أخذ قرارًا خطأً لا يُمكن تعويضه، لكن كيدو سأل شقيق زوجته وهو طبيب، فأخبره أنه قرار صعب بالنسبة إلى غير المتخصص، ويبدو كذلك أن شرح الطبيب وقتها كان غير كافٍ، وفي كل الأحوال، قال إنه لا يفهم سبب غضب الزوجة على زوجها إلى تلك الدرجة.

ومع ذلك قبِل كيدو توكيلها لأنه أحسَّ بنقاء في شخصيتها الإنسانية على الرغم من تعقيدها، وكأنها تطلب منه أن يعاملها بحكمة عميقة.

وعندما قابل زوجها بعد أن بات محاميها، بدأ كيدو يفهم تدريجيًّا سبب صلابة موقفها تجاهه. صب عليه الزوج سيلًا من الشكاوى والاستياء منها، قال له إنه يؤمن بأنه إنسان عاقل مثله «لأنه محامٍ»، ثم انتقد غرابة وغباء زوجته التي تحاول أن تلقي عليه بالمسؤولية، وأصر على مدى حبه لها، وحكى له باكيًا معاناته من فقدان ابنه الصغير، ثم حثه أن ينصحها بالعودة إليه. وفهم أنه كما قالت عنه ريئه ليس «إنسانًا شريرًا»، لكن، بكبريائه هذه المتعاظمة جرح زوجته، وعذَّب طفله الذي لم يكن يملك إلا فترة قصيرة يحياها، وكان مظهره الآن وهو على وشك أن يضيع حياته كلها هباءً، مثيرًا للشفقة.

استمر كيدو في مفاوضات الطلاق لمدة عام كامل، وظل يسمع من الزوج ما يريد قوله حتى يرتاح باله، وفي الوقت نفسه اجتهد في أن يجعله يفهم أنه ما من أمل في أن يستعيد حب ريئه مرة أخرى. وأظهر الزوج مشاعر الاحترام والتبجيل تجاه كيدو، وكان ذلك تطورًا غريبًا، وكان يعيد شرح ما يذكره كيدو من مصطلحات قانونية معقدة بطريقته الخاصة، فكان يجد مواساة جديدة لكبريائه في قدرته على فهمها فهمًا جيدًا. وكان يستميت في بذل جهده لكي يُفهم كيدو أنه إنسان صالح، وتلك حالة متكررة تحدث كثيرًا من الشخص المتهم بالعنف الأسري.

بعد مرور عشرة أشهر تقريبًا أصبح ذلك الزوج نفسه يشتكي تعبه من

مفاوضات الطلاق، وفي الوقت نفسه، لمح كيدو تحسنًا في حالة الزوج النفسية فلم يفوت الفرصة، وسلك سبيلًا غير محمود بأن تعاقد مع مكتب تحريات خاص وجعله يتحرى عن الزوج. ثم عندما أظهر كيدو للزوج صورة حميمية له مع امرأة وهما يخرجان من البيت الذي انتقل ليسكن فيه بعيدًا عن أسرته في أثناء مفاوضات الطلاق، وأخبره بضرورة إنهاء تلك المفاوضات، لم يوافق الزوج فقط على الطلاق بل وافق أيضًا على غير المتوقع على التنازل لريئه عن حق حضانة طفلهما الذي كان حتى النهاية متمسكًا به.

ثم عانت ريئه معاناة جديدة بموت زوجها الذي تزوجته بعد ذلك، بل كان ينتحل زورًا هوية غير هويته واستمر يخدع زوجته إلى أن مات.

تُرى لماذا؟

تنهد كيدو ثم أقام ظهره، ونظر إلى الساعة التي اقتربت بسرعة البرق من الثانية. بدأ يفكر في السبب لكن منعه التثاؤب الثقيل. لقد عرَّفه كيوتشي على بعض الأشخاص الذين ربما يعرفون مصير شقيقه، وبخاصة حبيبة دايسكيه السابقة، ثمة احتمال كبير أن تكون على علم بوسيلة التواصل معه.

بصرف النظر عمَّن هو «X» في الواقع، لكن من الممكن تتبُّع سجلات نقل السكن من البلدية ومعرفة تحركات دايسكيه تانيغوتشي. يجب البدء بالبحث من هذا الطريق.

أنهى كيدو ثُلث كأس الفودكا المتبقي في شربة واحدة. على الرغم من أنها لم تعد مثلجة لكنها لسعت لسانه بسبب مرارتها، ثم أطلق التنهيدة الأخيرة لذلك اليوم.

٤

زار كيدو حبيبة دايسكيه تانيغوتشي السابقة واسمها «ميسوزو غوتو»، في نهاية يناير من عام ٢٠١٣ بعد أن استقر وهدأ العمل في بداية العام الجديد. كان يومًا باردًا تساقط فيه الثلج الخفيف في الصباح، لكن من حسن الحظ بعد الظهيرة اعتدل الطقس وتلصصت السماء الزرقاء من بين ثغرات الغيوم.

كان رقم هاتف ميسوزو الجوال الذي أخبره به كيوئتشي خارج الخدمة بالفعل، لكن لأنها تعمل مصممة مواقع إلكترونية، فإنه عندما بحث على الإنترنت بكلمات مناسبة وصل إلى صفحتها على الفيسبوك. وعندما أرسل إليها رسالة يشرح لها الظروف جاءه بعد وقت قصير رد منها. كانت متهيِّبة، لكن بدا عليها القلق على دايسكيه. كانت تعمل مصممة مواقع مستقلة، وقالت إنها تساعد صديقًا لها يملك حانة في منطقة أراكيتشو بحي شينجوكو، وطلبت منه أن يقابلها في الحانة. قلق كيدو من مدى مناسبة المكان للتحدث فيه حديثًا جادًّا، لكنها على الأرجح كانت حذرة من اللقاء معه بمفردها.

كانت الحانة على مسافة قريبة جدًّا من محطة يوتسويا سانتشوميه، وتقع في حارة ضيقة قديمة عميقة تمتلئ بالمطاعم والحانات. جرب كيدو أن يتفقد المكان الذي يأتيه لأوَّل مرة، فوجد بالإضافة إلى الحانات عديدًا من المطاعم التي يبدو من مظهرها أنها تُقدِّم وجبات شهية، مثل مطعم سوشي، ومطعم الكاري ومطعم ألماني ومطعم إسباني، ومطاعم أكلات يابانية مثل التونكاتسو وغيره. كان كيدو قد تناول وجبة خفيفة من معكرونة السوبا في

طابق أسفل مبنى نقابة المحامين، لكنه ندم على ذلك وفكر أنه لو كان يعلم أن المكان به هذا التنوُّع من المطاعم لفضَّل تناول وجبة الطعام هنا.

وعندما سأل شريكه في مكتب المحاماة المحب للكتب عن المكان، أخبره أنه كان شهيرًا ببيوت الدعارة وذُكر في رواية «قبل وبعد فصل المطر» من تأليف كافو ناغاي، وأنه في ذروة الفقاعة الاقتصادية كان هناك فندق عشَّاق تحوَّل مبناه الآن إلى مقر لدور نشر. كانت سيارات الأجرة كثيرة في الطريق، وتزاحم الناس زحام بداية الأسبوع.

في الطابق الثاني من مبنى متعدد الأغراض ظهرت لوحة كُتب عليها «صَني». كانت بحروف صفراء اللون لتوحي بأشعة الشمس، ورأى كيدو أنه من الذكاء تسمية حانة تعمل في الليل باسم «صَني»، لكنه سمع فيما بعد أن صاحب الحانة أخذ الاسم من أغنية شهيرة لبوبي هيب.

كانت الحانة ضيقة تحتوي داخلها على منضدتين بأريكتين للجلوس وطاولة طويلة أمام الساقي بعدد ستة مقاعد فقط، وكانت درجة عتمتها جيدة، وتنساب موسيقى ألبوم حفل حي لراي تشارلز من الحانة وقت دخول كيدو. بدا أنها حانة مخصصة «لموسيقى الروح»، وتُزين الحائط في مكان ضيق أسطوانة لمارفين غاي، وصورة لستيفي وندر في طفولته. دخل كيدو الحانة وقد تخطت الساعة الثامنة ليلًا.

كانت المنضدتان ممتلئتين ويجلس على مقاعد الطاولة زبون بدا أنه زبون دائم، وكان يتدرب على الألعاب السحرية باستخدام عملات فضية وهو يشرب جعة غينيس.

عندما دخل كيدو قالت امرأة من الجهة الداخلية للطاولة: «مرحبًا بك»، لكنه لاحظ أنها عندما رأته بدا على وجهها تعبير «ربما هو».

تعتمر قبعة سوداء مرصعة بحلي، ويتدلى شعرها فاتح اللون على كتفيها النحيلتين مغطيًا أذنيها. وجهها مريح ذو أنف مستقيم، تضع عدستين بلون رمادي في مقلتيها اللامعتين لمعانًا يتناسب مع تألق شفتيها.

ورأى كيدو صادقًا أنها امرأة جميلة. ترتدي كنزة شبكية سوداء فضفاضة مع بنطلون جينز دينيم مهلهل وبه ثقوب كثيرة، وكان مظهرها يليق بموسيقى الروك أكثر من موسيقى الصول.

كانت تجلس على مقعد في الجهة الداخلية للطاولة الطويلة، تضع يديها على ركبة بنطلونها المهلهل، وتتحدث مع رجل يبدو في الخمسينيات من عمره، وقد نبتت لحيته التي تكاسل عن حلاقتها ويرتدي سترة سوداء. يبدو أنه مالك الحانة وكان مظهره مطابقًا تمامًا مع ذوق هذه الحانة.

- أنا المحامي أكيرا كيدو الذي تواصلت معكِ.

بعد أن ألقى تلك التحية، نظر مالك الحانة واسمه تاكاغي إلى بطاقة الاسم التي قدمها كيدو وكأنه يقول هل أنت محامٍ حقًّا؟

- ألا يضع المحامون شارة المحاماة؟

- آه، لم تعد الآن إلزامية، لكني أحملها معي.

قال كيدو ذلك وأخرج الشارة من حقيبته وأراها له. لكن كان تاكاغي يُظهر على ملامحه تعبير «وهل مثلي يعرف أهي حقيقية أم لا بمجرد رؤيتها!»، لكن ميسوزو لم تخفِ فضولها الشديد، لكن من دون مبالغة، قائلة:

- أوه، هذه أوَّل مرة أراها. هل يمكن أن ألمسها؟

- بالطبع، تفضلي.

عرف كيدو ذلك فيما بعد، لكن كانت ميسوزو في الأصل زبونة دائمة للحانة، ثم بدأت منذ عام تساعد المالك يومين في الأسبوع على سبيل الهواية. ظن كيدو أنها حبيبة المالك، لكنه لم يكن متأكدًا بسبب سلوك ميسوزو الذي لا يوحي بذلك.

في كلتا الحالين، كان تاكاغي هو الذي نصحها بأن يكون اللقاء اليوم في هذه الحانة. لم يُبدِ تجاه كيدو تحريات وقحة أكثر من ذلك، لكن من المؤكد أنه ظل على ارتيابه منه.

- تفضَّل. ضع معطفك هنا. ماذا تشرب؟

سألته ميسوزو بوجه بشوش. كانت نبرتها بطيئة ذات طبيعة متميزة، وصوتها من النوع الذي به بهجة مملة. جفناها السفليان منتفخان انتفاخًا محببًا، مما جعل انطباع الوجه المنسق أكثر ليونة.

- إذن، من فضلك، نبيذًا أبيض ماركة شيميه.

فلأنه لا يمكن أن يطلب ماءً فقد حرص كيدو على أن يطلب مشروبًا لا يستغرق وقتًا في إعداده. وبعد أن شرب شربة واحدة، أسرع في التحدث عن لُب الموضوع:

- كما ذكرتُ في رسالة الإيميل إليكِ، لقد أتيت للحديث بشأن دايسكيه تانيغوتشي.

- هل ما زال مصيره مجهولًا؟

- أجل، هل تعرفين هذا الرجل؟

أراها كيدو صورة «X» الذي عاش حياة زوجية مع ريئه بهوية كاذبة.

بعد أن أخذت ميسوزو الصورة في يدها ونظرت إليها بعض الوقت، هزت رأسها بالنفي وأعادتها إليه.

- أليس هذا دايسكيه تانيغوتشي؟

- نعم. ليس هو. هل انتحل هذا الرجل شخصية دايسكيه؟

- أجل.

- الوجه مختلف تمامًا، وكذلك هيئة جسده، إن هذا الشخص ليس كبير الحجم، أليس كذلك؟ أكيد. لقد كان دايسكيه أطول مني، ربما كان طوله ١٧٢ سنتيمترًا.

- إذن، هل هو شخص لم يسبق لك رؤيته من قبل؟

سلمت إليه ميسوزو ظرفًا بنيًا كانت قد جهزته سابقًا وقالت:

- هذه صور دايسكيه. كنتُ قد جهزتها لك. إنها صور في أثناء علاقتنا معًا، ولذا مر عليها أكثر من عشر سنوات.

كان الظرف يحتوي على ثلاث صور.

لم يكن كيوئتشي يحمل أي صورة حديثة لشقيقه. لا حيلة في عدم وجود صور في أثناء الطفولة لهذا الجيل، لكن حتى بعد سن الرشد، وربما بسبب علاقتهما السيئة، لم يتبادلا التقاط الصور بعضهما لبعض بآلات التصوير الرقمية. أراه صورة عائلية قديمة واحدة فقط، كان دايسكيه في تلك الصورة العائلية كأنه شخص آخر عن الذي يجلس في مواجهة ميسوزو في الصورة التي أعطتها له.

ينظر بثبات مع بعض الحياء إلى آلة التصوير التي تمسك بها حبيبته، بل كانت ملامح ميسوزو وقتها على وشك أن تبرز في عينيه. لم يكن يشبه «X» حقًّا.

- لا بأس في الاحتفاظ بهذه الصور لديك، إن كانت ستفيد. فأنا لم أتواصل معه على مدى أكثر من عشر سنوات، وليس لي أي علم به ولا بعلاقاته الآن.
- أهذا صحيح؟ لقد أخبرني شقيقه الأكبر السيد كيوئتشي أنكِ ربما تعرفين وسيلة التواصل معه، لذا اتصلتُ بكِ.

وضعت ميسوزو ثلجًا في الكأس، وصبت فيها سينزانو روسو ثم شربت منها شربة واحدة، وعقدت حاجبيها.

- أنا أعرف دايسكيه منذ أن كنا في المدرسة الثانوية. نرتبط ثم نفترق، كانت العلاقة طويلة جدًّا. ربما لهذا السبب اعتقد كيوئتشي ذلك.
- معنى هذا أنكِ تعرفين السيد كيوئتشي معرفة جيدة؟

كان سؤالًا بديهيًّا، لكنها أومأت وهي قلقة بشأن شيء. ثم عندما نظر إليها مجددًا، كانت عيناها تقولان: ثم ماذا؟!

- هل كانت علاقة الشقيقين سيئة؟
- أعتقد أن دايسكيه كان يحب شقيقه كيوئتشي. كانا شقيقين على طرفَي النقيض، لكن لم تكن العلاقة سيئة قبل وصولهما إلى مرحلة المدرسة الثانوية.

قالت ذلك ثم كانت على وشك أن تقول شيئًا، لكنها ترددت قليلًا ثم سكتت. لاحظ كيدو ذلك، لكنه طاوعها في تغيير مجرى الحديث إلى اتجاه مختلف.

- أعتقد أن المشكلة كانت الوالدين أكثر منها الشقيقين. أمر كثير الحدوث، الصراع على مَن يرث بيت العائلة، كان تفكير الوالدين متذبذبًا. رفض كيوتشي أن يرث مهنة العائلة، لذا راهن الوالدان على دايسكيه. لكن بدلًا عن إعطاء دايسكيه الميراث على الفور أبقيا الوضع غامضًا لكي يرث كيوئتشي في أي وقت إنْ تغيرت رغبته. وبهذا بات مستقبل دايسكيه معلقًا في الهواء.
- هل كان دايسكيه نفسه يرغب في أن يرث نُزل العائلة؟
- أجل كان يرغب في ذلك، لأنه كان يحب النُّزل. فهو نُزل عتيق وشهير جدًّا في ينابيع إيكاهو الساخنة.
- سمعتُ ذلك، واطلعت على الموقع الإلكتروني. المبنى الجديد على الطراز الحديث، لكن المبنى الأصلي عظيم بطرازه المتميز العتيق.

ابتسمت ميسوزو ابتسامة مريرة توحي بالسخرية وهي تقول:

- هذا المبنى الجديد من ذوق كيوئتشي. الغرف كلها ملحقة بها غرف استحمام في الهواء الطلق، ويمكن رؤيتها من على السرير. وثمة حفاظ على الخصوصية بصرامة في كل غرفة على حدة، والديكور الداخلي أنيق، لكنه مبتذل وفاحش.

انطلقت ضحكات كيدو على الرغم منه بمجرد سماعه آخر كلمة، وشرب من كأس الجعة بمرح مختلف عما كان عليه حتى تلك اللحظة. ومع قرقعة حنجرته لمرور الجعة بها، تسربت منه الضحكات مرة أخرى. وأصابت العدوى ميسوزو فضحكت معه وهي تهز كتفيها بمرح.

- بالتأكيد لن يكون مكانًا لائقًا لرحلات عائلية إذن.
- بل مجرد فندق عشَّاق غالي السعر. لقد حدث أن فُضحت مذيعة

تلفزيونية عندما صُورت هناك قبل عدة سنوات مع عشيقها في رحلة خيانة زوجية.

– آه، أتذكر ذلك الخبر؛ فضيحة ينابيع إيكاهو الساخنة. هل كان ذلك النُّزل؟ على ذكر ذلك عندما بحثت في الإنترنت ظهرت لي مثل هذه النتائج. لكنني لم أقرأها باهتمام.

– لقد ظل كيوئتشي يعيش حياة لاهية وعابثة قبل أن يعود إلى النُّزل، فهو يعرف تمامًا كيفية الوصول إلى رغبات الزبائن. يعرف طلبات ورغبات المحبين الذين يذهبون في رحلة مثل هذه. دايسكيه لا يدري عن ذلك شيئًا لأنه شخص جاد ومستقيم. وكما سمعت فالمبنى الجديد يحقق نجاحًا كبيرًا. واستقبل النُّزل في أثناء الزلزال المتضررين منه، فحاز سمعةً جيدة.

وهكذا ظلت ميسوزو وهي تُقلِّب في ذكرياتها عن حبيبها السابق، تبتسم ابتسامة حنين وفي الوقت نفسه ابتسامة حزن.

كان كيدو يستمع في صمت، لكن باتت الجعة لا تكفي ولذا طلب كوكتيل غيملت الڤودكا.

أجابت ميسوزو:

– حاضر.

وهزت الكوكتيل وهي تمسكه بيدين ليس بهما أي استعراض وكأنها تُعِد طعامًا في بيتها بمفردها. وأحسَّ كيدو أن استرخاءها هذا وعدم حماسها مع أنها تقابله لأوَّل مرة، يدلان على شخصيتها.

ثم شعر بأن كوكتيل الغيملت ذو طعم رقيق متألق ومثلج بدرجة مناسبة، وكان قد التصق به الصقيع وهو يُصب في الكأس وفارت منه رَغاوٍ دقيقة تدل على أنه مُزج جيدًا حتى رقَّت غلظة الكحول.

– آه، يا له من طعم لذيذ!

لم يكن يجاملها، بل كان إحساس كيدو الحقيقي. بدت أسنانها البيضاء

وهي تبتسم من السرور الذي يدل على أنها تهوى هذا العمل كما قالت. ثم أمسكت طرف بلوزتها الشبكية التي انحرفت قليلًا فبان تجويف عظمة الترقوة، فأعادتها إلى وضعها الأصلي.

عكست القلادة ذات الألماسة الصغيرة أشعة الضوء، فلمعت كنغمات الزخرفة.

جاء مَن يبدو أنه زبون مستديم، وجلس على بُعد مقعد من كيدو، وبدأ يتحدث حديثًا صاخبًا مع مالك الحانة. ثم تغيرت الموسيقى إلى ألبوم حفل حي لكرتس مايفيلد، وتردد صدى أصوات جمهور الحفل داخل الحانة. كان كيدو حريصًا على أن يسمع منها معلومات أكثر عن دايسكيه تانيغوتشي قبل أن تزدحم الحانة.

– هل انقطعت العلاقة بينك وبين دايسكيه بعد موت والده؟

– ربما. لقد حضرتُ الجنازة، وبقيتُ بعض الوقت في بيت العائلة. وقتها كنت قد انتقلت للإقامة في طوكيو، فكنا نلتقي مرة كل أسبوعين مثلًا.

– وقتها كنتما...

– كنا حبيبين. لكنه في النهاية اختفى فجأة من دون أن يقول شيئًا.

– أحقًا هذا؟! وبعد ذلك، لا اتصال بالهاتف أو حتى رسالة إلكترونية؟

هزت ميسوزو رأسها بالنفي.

– ظل هاتفه خارج الخدمة.

– وهل تأثر دايسكيه نفسيًا بموضوع زراعة الكبد؟

– مَن الذي قال ذلك؟ كيوتشي؟

– كلًا، بل قاله هذا الرجل صاحب الصورة الذي مات وهو ينتحل اسم دايسكيه. لا أعرف كيف أدعوه، لذلك أطلقتُ عليه اسم «X». يبدو أنه قال ذلك للمرأة التي تزوجها وسمعته أنا منها.

– ما هذا! ماذا يعني هذا؟ أمر لا يحتمل!

– لا أدري. ربما كان «X» يعرف دايسكيه وقابله. ثم سمع منه تلك

الحكاية، ألا ترين أن هذا ما حدث؟ ثم انتحل ذلك الشخص اسمه بعدها لأسباب مجهولة، وعاش حياته على أنه هو، جاعلًا من ماضي دايسكيه ماضيه شخصيًا.

- لماذا؟ فليست له حياة يحسده عليها الآخرون. هل يطمع في الميراث مثلًا؟

ظهر ظلٌّ سريع لحاجبَي ميسوزو على جبهتها الجميلة التي تبدو تحت حافة القبعة.

- لا أدري ما الهدف من فعله ذلك. ومن الطبيعي التفكير أن الحصول على الميراث أحد الأسباب، وإحدى مهام عملي هي معرفة تلك الحقائق وترتيبها.

- هل دايسكيه بخير؟ وماذا فعلت الشرطة؟

- مبدئيًا تلقت بلاغًا للبحث عنه بوصفه مفقودًا، لكنها لم تفعل أكثر من ذلك.

- أليس من الأفضل إثارة ضجة أكثر من ذلك؟ الحديث إلى قنوات التلفزيون مثلًا؟

- ربما يحدث ذلك في النهاية، لكن لا يرغب كيوئتشي ولا زوجة «X» في ذلك.

- لماذا؟

- الزوجة ما زالت في حالة اضطراب من المفاجأة. وهو أمر طبيعي. وكيوئتشي يقول إن عمله يعتمد على الزبائن ولا يريد أن تحدث فضيحة، إن وصل الأمر إلى جريمة قتل.

تنهدت ميسوزو تنهيدة عميقة بملامح وجه تدل على خيبة الأمل.

- ألا تكون كوريا الشمالية قد اختطفته؟

هكذا تدخل في الحوار تاكاغي مالك الحانة، وكان كيدو يظن أنه لا يسمع حديثهما.

أبدى كيدو حركة مبهمة لا توضح هل هو يومئ موافقًا أم يلوي عنقه معترضًا وهو يكتم حموضة ليمون كوكتيل غيملت الفودكا فوق لسانه.

فكَّر كيدو أن التوقيت يجعل حدوث ذلك مستحيلًا. ثم تمنى إذا تتابع الكلام في ذلك الاتجاه، ألا يسمع كلمات عنصرية تجاه المقيمين[1] على لسان ميسوزو التي حمل عنها انطباعًا طيبًا منذ بداية اللقاء، لذا أبعد وجهه عنها بلا وعي تقريبًا.

إن كيدو من الجيل الثالث لعائلة مقيمة في اليابان، ولكن والديه كليهما لم يربيا في أطفالهما الوعي القومي، وكذلك لأنه وُلد ونشأ في مدينة كانازاوا التي ليس بها حي كوري، وتربى منذ كان اسم العائلة كوريًّا هو «لي» من دون أن يخوض تجارب أو مشكلات لها علاقة بالعنصرية. ثم تغير اسم العائلة إلى «كيدو» عند دخوله هو إلى المدرسة المتوسطة، ولم يُبلغه والداه بالسبب، لكن مع ذلك ربما حدث أمر كان سببًا في ذلك. تملك أسرته حانة ليست متخصصة في الأكل الكوري بصفة خاصة. ومنذ أن كان في المدرسة الابتدائية كان المدرسون يأتون إلى الحانة كثيرًا، ويشربون الخمر حتى يسكروا تمامًا، ولذلك كان معروفًا حتى لمعلمي الفصول الأخرى.

وفي المدرسة الثانوية حصل مع والديه على الجنسية اليابانية. وكان والداه يؤخران تلك الخطوة، لكن كيدو كان يشعر بأنه لا فرق بين الأمرين

---

(١) «المقيمون» مصطلح يدل على الجاليات الأجنبية المقيمة في اليابان، وبخاصة الصينية والكورية منذ احتلالها لكوريا والصين في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج الاحتلال الياباني من أراضي كوريا والصين ظل عدد كبير منهم مقيمًا في اليابان لأسباب عديدة. كان عددهم يُقدَّر بأكثر من ثلاثة ملايين نسمة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، لكن عاد أكثرهم إلى موطنه الأصلي، فتقلص العدد حاليًّا ليصبح قرابة مليون نسمة. (المترجم).

لأنه لا يستطيع قراءة اللغة الكورية، وعندما يزورهم أقارب والديه آتين من كوريا الجنوبية، لا يشعر نحوهم إلا بأنهم أجانب.

وكان السبب المباشر هو نصيحة والده له بقوله إنه إن كان يقلق من جواز السفر في رحلة التخرج إلى أستراليا، فمن الأفضل الحصول على الجنسية اليابانية. واتَّبع كيدو تلك النصيحة، لكنه لن ينسى مقولة والده له وقتها، حيث قال: «ليس لديك شعور قومي تجاه كوريا الجنوبية، وإن حدث لك شيء في أثناء الرحلة فلن تحميك إلا الحكومة اليابانية. لأن الحكومة الكورية حاليًّا لا تدرك «شعورك» في هذا العالم».

لم يقُل والده ذلك إلا مرة واحدة، ولم يراجعه كيدو في ذلك، لكنه فهم أن والده على الأغلب كان يريد أن يقول «وجودك» وليس «شعورك». والحقيقة أنه لم يسبق له العيش في كوريا الجنوبية، ومن ثَمَّ فليس له «وجود» بوصفه مواطنًا هناك.

لكن، حتى الآن وبعد مرور ما يقرب من عشرين عامًا على ذلك، كلمة «شعورك» العجيبة التي قيلت وقتها، نُقشت داخل عقله ولم تفارقه. خياله المريب صوَّر له كأنه شركة مزيفة، وجوده ليس له «شعور واقعي» داخل دولة كوريا الجنوبية. وعلى العكس من ذلك كانت تلك على الأرجح هي المرة الأولى التي شعر فيها بشعور حقيقي بكوريا الجنوبية بوصفها دولة.

تُرى هل قال والده ذلك وهو يريد هذا المعنى؟

لم يتحدث والده معه حديثًا جادًّا بشأن الجنسية إلا ثلاث مرات بما فيها هذه المرة.

والمرة الثانية عندما حار في الطريق الذي يسلكه بعد المدرسة الثانوية، نصحه والده بالحصول على ترخيص من الدولة لمزاولة مهنة من المهن، لأنه ربما يلاقي عنصرية عند التوظيف.

لقد اندهش كيدو كثيرًا فقد تجنَّس بالفعل، وكان يعتقد أن والده يسخر في مثل هذا الزمن سخرية سخيفة، لكن كان وجه والده في منتهى الجدية.

وفي النهاية دخل كلية القانون من دون تفكير عميق مثل كثير من طلاب القسم الأدبي، لكن نتج تفكيره في أثناء الدراسة أن يصير محاميًا من تأثير كلمة والده تلك.

إضافةً إلى ذلك، المرة الثالثة التي قلق فيها الوالد من هوية ابنه كانت وقت زواجه. لم يعترض، لكن لأن جدته لأمه كانت ترغب بأي شكل أن ترتدي زي الجيوغوري التقليدي في مراسم الزواج، لذا اقترح عليه والداه أن تُقام مراسم الزواج خارج اليابان.

رفض كيدو قائلًا إنه لا داعي لذلك، لكن عندما عرف والدا زوجته أن والده يقلق على ابنه، قررا بعد تفكير عميق أن تُقام مراسم الزواج للأقارب فقط مع رحلة شهر العسل في هاواي، ثم إقامة حفل بسيط في مطعم باليابان بعد العودة. كان والدا كيدو متوترين جدًّا إلى درجة التذلل أمام حميه وحماته عندما ذهبوا إلى عائلة زوجته لطلبها للزواج، وفي حفل الزواج، فكان يتأملهما بمشاعر مشفقة وهو يحس بالخجل قليلًا.

كانت تلك هي درجة وعي كيدو تجاه جنسيته حتى وقت قريب جدًّا. ولا يتذكر أنه تعرض لموقف عنصري مهم. جاء إلى طوكيو بعد دخوله الجامعة، وسمع حكايات تعرُّض الجيل الثالث من المقيمين مثله لمواقف عنصرية حادة وخطيرة، إلى درجة أنه شعر بانعدام ثقته بنفسه لأنه لم يشاركهم تلك الآلام. وحتى فيما يتعلق برأيه في الأوضاع السياسية المعلنة بعد «تصريحات موریاما» من ارتداد عن ذلك والاتجاه لتصحيح التاريخ، فيمكن القول عنه إنه بليد الذهن تجاه كل ذلك.

لقد بدأ كيدو يحس بمشاعر كريهة وهو يفكر في معنى أن الناس تنظر إليه على أنه «كوري» بعد زلزال شرق اليابان الكبير في عام ٢٠١١، لأنه أصبح يفكر في مذبحة الكوريين التي حدثت هنا في يوكوهاما في أثناء زلزال كانتو عام ١٩٢٣.

ثم كانت الضربة القاضية، حينما زار لي يون باك جزيرة تاكيشيما في صيف العام الماضي، وهو ما أدى إلى وصول النزعة القومية داخل اليابان إلى الغليان، إلى درجة أن الإعلام أصبح يذيع مظاهرات اليمين المتطرف التي تطالب بطرد الأجانب، فلم يجد مفرًّا من أن يعترف بأن الدولة التي يعيش فيها بها أماكن لا يريد الذهاب إليها وأناس لا يريد لقاءهم مهما حدث. وكان ذلك أمرًا لا يجب بالضرورة أن يجربه أي شخص ولا أي شعب.

ثم اتصل به صديق من أيام الجامعة كانت علاقته به قد انقطعت لمدة طويلة، ومَن يدري ربما كان يقصد التعاطف معه، اتصل به ليقول له إن هناك صورة له من ألبوم تخرُّج المدرسة الابتدائية منتشرة على الإنترنت ومعها تعليق «المحامي أيضًا من المقيمين!».

وعندما اطلع على الرابط المرفق، وجد المحتوى عن قضية تعدٍّ وسرقة بالإكراه تولاها وقت أن كان أعزب يكاد هو شخصيًّا ينساها، وكان المتهم فيها بالمصادفة البحتة من المقيمين، مع خلط كثيرٍ من الأكاذيب مع الحقائق.

تُرى ما هذا؟ كان كيدو مذهولًا أكثر منه مجروحًا، وهو يرى ذلك الهياج الجنوني للتعبيرات العنصرية العنيفة التي عفَّى عليها الزمن، والتي لا يعرفها حتى المقيمون أنفسهم. لكنه عندما رأى اسمه وصورته أيام المدرسة الابتدائية، وتُصب عليه الشتائم واللعنات على أنه جاسوس ومتآمر، بالطبع لم يحس بارتياح. ليس هو فقط بل ومعلومات أنه «متزوج ولديه طفل». لقد غضب لذلك غضبًا جعل يده التي تمسك بفأرة الكمبيوتر ترتعش، وفي الوقت نفسه، خارت من أعماقه كل قواه، وأحسَّ أن حياته توقفت. تغلغل الاستياء بين ثقوبها ببرود وبات قادرًا على محوها كلها. شعر وقتها لأوَّل مرة بأن المزاج يشبه السوائل.

ولم يخبر زوجته بذلك حتى الآن. كان يجب عليه إخبارها، لكنه لم يُرِد ذلك ولم يستطِعه. قلقت زوجته من أخبار «خطاب الكراهية» التي تذاع في ذلك الوقت، بل قلقت كذلك حماته عاشقة الدراما والأعمال الفنية الكورية.

بصراحة لقد تعب من حساسيته تجاه العنصرية غير المتوقعة من المحيطين به، وقد كان لا يلتفت إليها فيما مضى ويُعدُّها خطأً ما.

كان كيدو بطبيعة الحال ينتقد نظام كوريا الشمالية الدكتاتوري، ويرى أن اختطاف اليابانيين جريمة لا يمكن وصف بشاعتها، وكان يتعاطف مع الضحايا وأسرهم من كل قلبه. وكان يتفهَّم إلى أي مدى كانت تلك صدمة لمجتمع المقيمين في اليابان وإلى أي درجة جرحهم ذلك جرحًا غائرًا. لكن كان يدرك ذلك من مكان بعيد نسبيًّا!

لكن الوضع يختلف إن تحدثنا عن طبيعة شعب. وعندما يتخيل أنه ربما كان هو أو جيله من أقاربه يعيشون تحت سيطرة هذا النظام، يقوده ذلك على الرغم منه دائمًا إلى الغرق في التفكير في نوع من أنواع القدرية.

وإن سُئل كيدو هل يتمنى توحيد شمال وجنوب شبه الجزيرة الكورية؟ فسوف يومئ بإيماءة ملائمة عاجزًا عن اختيار الكلمة المناسبة. ومع ذلك يعجز عن توقُّع وقت حدوث ذلك. وهذا هو رأيه نفسه عندما يُسأل عن تطبيع اليابان علاقاتها مع كوريا الشمالية وتعويضها عن أضرار الحرب.

تعمَّد كيدو تمرير الموقف بالصمت، لكن طال الصمت وبات ثقيلًا، ولذا تحدث بنفسه لكيلا يتجه الحديث إلى ما لا تُحمد عقباه:

- لقد كانت حوادث الاختطاف تلك في الثمانينيات. لقد بحثتُ قليلًا بسبب هذه القضية، اختُطف مثلًا رجل أعزب يعمل طباخًا في مطعم صيني في أوساكا، من مدينة ميازاكي إلى كوريا الشمالية بعد إيهامه بوجود عقد عمل. ثم جاء إلى اليابان أحد الجواسيس منتحلًا اسمه وشخصيته وماضيه تمامًا، وحصل على رخصة قيادة سيارة وبطاقة تأمين صحي، وظل يتجسس على مدى سنوات. ثم قُبض عليه فيما بعد عند ذهابه إلى كوريا الجنوبية.

في أثناء بحثه عن هذه القضية عرف كيدو لأوَّل مرة المصطلح الذي

تستخدمه الشرطة وهو «هاينوري»، ويعني انتحال جاسوس لشخصية فرد بعد سرقة هويته.

- أرأيت! ألم يمُت ذلك المدعو «X» في ميازاكي؟

حملق تاكاغي بعينيه عندما عرف أن ما خطر على باله فجأة له بعض الوجاهة على غير المتوقع. وكان الزبونان الدائمان أيضًا يستمعان إلى حديثه، فيئس كيدو من الحديث في ذلك المكان، لأنه سيعرِّض خصوصية موكلته للانتهاك.

- أجل، لكن الزمن مختلف تمامًا. مصادفة بحتة أن يكون المكان نفسه.

- لكن حتى هذه اللحظة، ألا ينتشر جواسيس كوريا الشمالية في كل مكان؟

- حقًّا؟! كل الدول لديها أجهزة مخابرات تسعى للحصول على المعلومات، لكن لا يصل الأمر إلى درجة أن «ينتشر الجواسيس في كل مكان».

- لكن ألا ترى خطورة أن مناهج التعليم في كوريا الجنوبية تُدرِّس عداء اليابان؟

حتى كيدو نفسه أصيب بخيبة أمل، وتجهَّم وجهه وهو يبتسم ابتسامة متكلفة.

- هل تقصد كوريا الشمالية أم الجنوبية؟

- كلتاهما تفعل الشيء نفسه.

- مطلقًا. إنهما تختلفان اختلافًا تامًّا. في كوريا الجنوبية بالطبع يُذكر في مناهج التاريخ أن اليابان كانت إمبراطورية استعمارية، لكن هذا لا يُسمى «تُدرِّس عداء اليابان». غالبًا تعليم التاريخ المعاصر لا يأخذ حيزًا كبيرًا من المنهج التعليمي، مثلهم مثل اليابان.

- لماذا إذن يكرهون اليابان إلى تلك الدرجة؟

- هل لديك أصدقاء هكذا؟

- كلَّا، لكن أليس هذا ما نراه في التلفزيون؟

- أنصحك إذن أن تذهب في رحلة سياحية إلى سيول، وتذهب إلى نادٍ ليلي هناك، وتصادق الشباب الكوري الجنوبي.

لم يرِد كيدو أن يصبح الحوار عاصفًا أكثر من ذلك، ولذا ضحك في النهاية بمهارة وطلب كأسًا ثانية من كوكتيل غيملت الفودكا.

لم يقُل تاكاغي شيئًا آخر أكثر مما قال، كأنه اندهش من نبرة كيدو الواضحة المقنعة.

وبدتْ ميسوزو تفكر في أمر دايسكيه بملامح وكأنها غير موجودة. وشعر كيدو بالعزاء لعدم اهتمامها بهذا الحوار.

وفي أثناء انتظار الكوكتيل، أمسك كيدو غلاف ألبوم «الأطفال وأنا» لبيلي بريستون الذي ينساب من سماعات الحانة وأخذ يتأمله. ربض الصمت يائسًا بين كيدو وميسوزو في أثناء ذلك اللحن الصاخب.

شرح لها بصوت خفيض حتى لا يتدخل تاكاغي في الحوار:

- ستكون مشكلة كبرى لو كان دايسكيه اختُطف من قِبل كوريا الشمالية. لكن انتحال «X» لهوية دايسكيه لم يكن منذ زمن طويل. أليس كذلك؟ إنه زمن مختلف تمامًا عن زمن حوادث الاختطاف. إضافةً إلى أن «X» كان يعمل في شركة للغابات في بلدة صغيرة بميازاكي. لو كان جاسوسًا لكوريا الشمالية فلن يفيده البقاء دائمًا في تلك البلدة الريفية.

قال لها ذلك وهو يهز كتفيه ويعي أن ثمة تشابهًا في الحالة النفسية بينه وبين «X»، وأن كليهما موضع شك في أنه ليس يابانيًّا.

قالت ميسوزو:

- تفضَّل الكأس الثانية.

ثم قدمت له الكأس بابتسامة مشرقة، وقالت من دون أن تجيب عن كلماته السابقة بشيء:

- كان دايسكيه إنسانًا بائسًا. هل تعرف مخاطر التبرع بالكبد؟

- كلًّا، لا أعلم بالتفصيل.
- على حسب ما سمعت وقتها، يموت في اليابان واحد من كل ٥٥٠٠ حالة.
- من المتبرعين؟
- أجل. أقل من نسبة ٠٢ ,٠٪. أي أنه يعيش أكثر من ٩٨ ,٩٩٪. ولكن ما بين عشرة إلى عشرين بالمائة منهم يعاني مضاعفات بعد الجراحة، ويصبح معرضًا للإجهاد، ويتألم من أي جرح، ويصاب باكتئاب نفسي.
- وهل طلب الأب من دايسكيه مباشرةً التبرع؟
- كلًّا، لم يطلب ذلك قَطٌّ! لكن لو لم يتمنَّ الأب والطبيب ذلك لقال: «لم يطلب أحد مني» أليس كذلك؟
- لقد قال كيوئتشي إن دايسكيه تقدم من نفسه، وطلب أن يكون هو المتبرع بإرادته.
- أعتقد أن دايسكيه قال ذلك فعلًا، لأنه كان «متعطشًا لحب العائلة».
قالت ميسوزو ذلك وهي تصبغ تلك العبارة المبتذلة بنبرة شفقة.
- ليس هذا فقط، كيف يمكنني تفسير ذلك؟ أعتقد أنه كان يشعر بالواجب. كان دايسكيه وقتها الوحيد القادر على إنقاذ والده من الموت. والمخاطر ليست أبيض بنسبة مائة بالمائة أو أسود مائة بالمائة، أليس كذلك؟ فمن المستحيل أن يكون هو ذلك الواحد من بين ٥٥٠٠ حالة. وكان يلوم نفسه بشدة على أنه لم يفكر هكذا. لماذا كان مرعوبًا من أن يفعل ما يفعله المتبرعون الآخرون بتلقائية من أجل أسرهم! أغلب المتبرعين يعيشون بعد الجراحة بلا مشكلات ولا عقبات. ومع أنه سمع ذلك من الطبيب، هو فقط الوحيد الذي ظل يفكر في تلك الأقلية الضئيلة التي تعاني المضاعفات بعد التبرع.
- ومع ذلك فمشاعره تلك مفهومة.
- أجل مفهومة، أليس كذلك؟ لكنه نوعًا ما ظل يلوم نفسه، وفي النهاية

اتخذ القرار. كنت وأنا بجواره أنظر إليه وأشعر بالأسى نحوه. لكني لم أستطِع أن أفعل شيئًا من أجله.

أومأ كيدو مرات عدة ببطء مبديًا تعاطفه مع دايسكيه ومشاركته الوجدانية مع ميسوزو. انسابت أغنية «أنتِ جميلة جدًّا» الشهيرة المعسولة ثلاثية المقاطع.

بعد كلمات المقطع الثاني التي تقول:

يشبه هذا الفرح والسعادة اللذان تجلبينهما الحلم تمامًا

كانت الأغنية على وشك الوصول إلى جوقة المغنين الذين يصل بهم الانفعال الدرامي إلى درجة انفعال المستمعين بالقول «يا لها من روعة!» مع عزف البيانو وآلات الإيقاع.

وعندما نظر كيدو فجأة إلى ميسوزو وجدها تذرف الدموع. وعندما ظن أن ذلك بسبب دايسكيه قالت وهي مندهشة من نفسها:

- أنا ضعيفة جدًّا أمام هذه الأغنية. مؤخرًا مع مرور العمر تزداد دموعي.

ثم ضحكت وهي تمسح دموعها. انجذب قلب كيدو إلى ملامحها المحببة تلك. ثم ابتسم استجابة لوجهها الضاحك، وسألها:

- أنا لا أعرف إلا نسخة جو كوكر الدسمة، هل هذه هي النسخة الأصلية؟

- أجل. أنا أحب نسخة المطرب الأصلي.

- هذه أوَّل مرة أسمعها. ربما أنا أيضًا كذلك. هذه النسخة رائعة حقًّا.

- أليس كذلك؟

- عندما كنتُ صغيرًا كانت مثل هذه الكلمات التي تمدح الآخر تشعرني بالخجل، ولكن كِبر السن، كما هو متوقع!

وبعد أن أطلقت ميسوزو تنهيدة ورفعت وجهها ثم مسحت دموعها مرة أخرى قالت وقد هدأت روحها:

- يرى كيوئتشي أن دايسكيه إنسان فاشل، فلا يعجبه مطلقًا ما يفعل وما يقول. حتى علاقتي بدايسكيه كان لا يفهمها أو يجب القول كان

لا يغفرها. كان يشعر بمشاعر منحرفة جدًا لأن شقيقه هذا هو الذي يمكنه إنقاذ حياة أبيه، ثم بدأ في النهاية ينفعل من حيرته وعذابه.

- مفهوم.

- كان يقول عنه إنه ليس بطلًا في مأساة إغريقية، وإن المخاطر ليست كبيرة، وإنه يتعمد أن يُحمّل العائلة الجميل عنوة. وقال إنه لو كانت كبده تتوافق مع أبيه لتبرع على الفور من دون كلمة واحدة.

- هل قال ذلك لدايسكيه وجهًا لوجه؟

- كان يتحدث مع أمه على مسمع من دايسكيه.

- حقًا؟!

- لذا فالهروب من البيت أمر طبيعي أليس كذلك؟ وفي النهاية لم يجد مَن يسانده، فقُتل أو خُطف...

لم تُكمل ميسوزو باقي الجملة، ثم هزت رأسها بملامح قلقة. فاهتز شعرها على كتفيها. ووضعته بيدها اليمنى خلف أذنها ووضعت الكأس على شفتيها.

- أعتقد أنه حي، أكيد. أعدك أن أبحث عنه حتى أجده.

كان كيدو متأكدًا من أن دايسكيه تانيغوتشي إنسان صالح. فاختياره للنساء جيد، وهذه المرأة أحبته في الماضي حبًا شديدًا.

وينطبق هذا أيضًا على «X» الذي أحب ريئه وأحبته. لكنه كان تخمينًا بلا مبرر منطقي، وذلك لأن زوج ريئه الأول كان غير صالح مع الاعتراف بأنه كان في وضع بائس.

تأمل كيدو صورة دايسكيه التي أعطتها له ميسوزو، ثم تأمل صورة «X» مجددًا. الأمر العجيب أنه أحسَّ فجأة أنه رأى ذلك الوجه من قبل.

لكنه وقتها لم يواصل التفكير أكثر من ذلك برأسه المخمور قليلًا. ثم نظر إلى الساعة وطلب فاتورة الحساب من ميسوزو وهو يشعر بالتحسُّر على فراقها.

٥

صُدمت ريئه يوم زيارة كيوئتشي بحقيقة لا تتخيلها، فذهبت معه إلى قسم الشرطة وهي مذهولة. طبعًا كانت لا تثق بكيوئتشي، لكنها قبل ذلك كانت ترى ضرورة إبلاغ الشرطة عن تلك الحالة المخالفة للقانون.

كان قسم الشرطة قريبًا من محطة الباصات العامة التي كانت تستخدمها دائمًا للتردد على مدرستها الثانوية، لكنها كانت تدخله لأوَّل مرة في حياتها.

فوقع أمر غير متوقع بالنسبة إليها.

تحدثت إلى الضابط في عُجالة بكل ما حدث، لكنها بدأت في منتصف الحديث تقلق من أن اكتشاف تلك الحوادث الغامضة سيُحدث ضجة على الفور. ولن يكون طفلاها يوتو وهانا بعيدين عن الموضوع إن بدأت التحقيقات على أنها جريمة. فالبلدة صغيرة تنتشر فيها الشائعات في لمح البصر. وربما يُنشر الخبر في الجرائد.

لكن، كان الضابط متعكر المزاج من البداية، وكان يعوج رأسه بغير اقتناع تجاه شرحهما المضطرب.

ثم سألهما:

- إذن، مَن الذي مات؟

ثم ومن دون أن يستشير شخصًا آخر في القسم جعل كيوئتشي يُقدِّم أولًا بلاغًا للبحث عن شقيقه دايسكيه تانيغوتشي على أنه مفقود. وسألته ريئه

عن الوسيلة التي تعرف بها هوية زوجها الراحل، لكنه إزاء ذلك السؤال لم يرُدَّ عليها، وقال إن الأهم الآن هو البحث عن دايسكيه.

ثم انقطعت الأخبار تمامًا من الشرطة. انتظرت أسبوعين ثم اتصلت بهم فأخبروها بفظاظة أنه لم يُعثر على اسمه بين قوائم المفقودين، وعندما سألت عن هوية زوجها، قيل لها:

- ما من وسيلة للبحث عنه حاليًّا.

ولم تعرف ريئه ماذا يجب أن تفعل.

واستشارتها لكيدو ليس فقط لأنها تثق بقدراته القانونية، لكن لأنها فقدت كذلك خلال إقامتها في مسقط رأسها سبع سنوات الإحساسَ بالواقع وحارت في أمرها. كان الوقت الذي عاشته في يوكوهاما وفقدت فيه ابنها ريو، الأكثر وضوحًا في ذاكرتها. ووقتها كان كيدو هو الوحيد الذي اعتمدت عليه.

أبلغته خلال الهاتف بعدم ثقتها بطريقة تعامل الشرطة، فقال لها كيدو خلال الهاتف بصوت رزين كما كان في الماضي:

- طبيعي، الشرطة لن تفعل شيئًا. فهناك آلاف من المفقودين كل عام. وبخاصة في حالة البحث عن هوية زوجك الراحل، فالشرطة لا تريد أعباء جديدة.

مع ذهول ريئه، إلا أنها أحسَّت بالعزاء لوجود مَن تشاركه وضعها هذا بهدوء، فسألته السؤال الذي لم تجرؤ على سؤاله للشرطة:

- تُرى هل زوجي متورط في جريمة؟

بعد أن فكر كيدو فترة أشار بحذر إلى مخالفات قانونية محتمل أنه وقع فيها، ثم توقف عند قوله:

- أعطيني بعض الوقت لكي أبحث قليلًا.

وفي نهاية شهر فبراير من العام التالي ذهب كيدو خصوصًا إلى ميازاكي.

قابلته في مكان الاستقبال في المحل، لكن لأنه قال إنه لم يتناول الطعام أخذته وذهبا معًا إلى مطعم سمك الثعابين المشوي القريب من محلها. كان ذلك المطعم هو الذي أخبرها فيه «X» لأوّل مرة بماضيه على أنه «دايسكيه تانيغوتشي». لكنها لم تتعمد اختياره، بل ما من مطعم غيره بالقرب من المحل يمكن الذهاب إليه سيرًا على الأقدام. مطعم يمكن أن تذهب إليه مع غريب عن البلدة.

شعرت عند لقائه مرة أخرى بعد مرور سبع سنوات أنه كبر في السن (وهي أيضًا). وبدأ كثير من الشيب يختلط بشعره على جانبَي رأسه.

قالت له:

- تبدو مشغولًا.

فأجاب:

- أجل، شهر فبراير العمل فيه كثير. لكن انتهى أغلبه.

ثم ضغط بإصبعه على طرف عينه تحت النظارة الطبية وابتسم.

كانا يلتقيان دائمًا في مكتب المحاماة في يوكوهاما، لذا شعرا بشعور غريب من اللقاء في هذا المكان. كلما توقف الحوار بينهما، كان كيدو يتأمل من النافذة مناظر البلدة الريفية المنعزلة المحاطة بالجبال، بنظرات تبدو وكأنه غرق تمامًا في تلك المناظر. ثم قال:

- طعام لذيذ.

ثم أجهز على وجبة سمك الثعابين المشوي الفاخرة مع حساء الميسو المحلي الذي قُدِّم بديلًا عن حساء كبد سمك الثعابين المعتاد تقديمه مع هذه الوجبة.

كان كيدو محاميًا رزينًا وطيب القلب، وحتى في أثناء مفاوضات طلاقها بعد أن فقدت طفلها شعرت بالعزاء مرات عدة من خلال ابتسامته الطيبة. وعندما قابلته مجددًا بعد غياب سبع سنوات، كان رجلًا مهذبًا لم

يتغير، لكن لمحت وحدة إلى حدٍّ ما في ملامحه. بل وبدا أنه لا يفطن إليها بنفسه.

أوصاها أولًا بضرورة إعادة علاقتها مع اسم عائلة تانيغوتشي إلى الوضع الصحيح.

إن كان زوجها الراحل ليس هو دايسكيه تانيغوتشي، فما من سبب لكي تستمر هي في حمل اسم عائلة تانيغوتشي، ووافقته على ذلك. لا يعني ذلك أنها لا تشعر بالحب والتعلق باسم «تانيغوتشي» الذي يُذكِّرها بزوجها الراحل، لكنها شعرت بعد لقائها مع كيوئتشي بأنها ستكون مذنبة إن ظلت تحمل اسم عائلة غريبة عنها ولا تمت لها بصلة.

أما عن مبلغ التأمين الذي حصلت عليه بموت زوجها «X» فقد قال لها إنه ما من ضرورة لإعادة المبلغ.

- إن الأوراق كُتبت باسم «دايسكيه»، لكن لا خلاف أن المتعاقد في الأصل هو «X» وهو الذي استمر يدفع أقساط التأمين الشهرية. لذلك لا بأس من الاحتفاظ بما حصلتِ عليه من مبالغ. وما من ضرورة الآن لتعديل اسم المتعاقد أو غيره من الإجراءات. وإن حدث شيء سأتولى أنا الأمر. فلا داعي للقلق من ذلك.

كان سجل هوية دايسكيه أصله في بلدة سايتو مسقط رأس ريئه، ولذلك أقام كيدو دعوى في محكمة الأسرة بميازاكي لأخذ تصريح بتعديل سجل الهوية.

في البداية ألغى حذف اسم «دايسكيه» من السجل بسبب الوفاة. ونتيجة لذلك بات دايسكيه تانيغوتشي الذي قُدِّم بلاغ للشرطة للبحث عنه وهو مُتوفى، حيًّا بناءً على وثائق سجل الهوية.

والخطوة الثانية كانت إزالة اسم ريئه من السجل وإعادته إلى سجل عائلة تاكيموتو الذي كانت تنتمي إليه قبل الزواج. بمعنى أن يُبطَل زواجها

لأنه بُني على ظن خطأ. ومن خلال هذا الإجراء تُحذف من سجلها حقيقة الزواج الثاني كليةً، وتصبح هانا ابنة «X» طفلة غير شرعية.

كان من المفترض أن يقوم كيدو بكل تلك الإجراءات بمفرده في محكمة الأسرة، ولكن لأن الأمور كانت معقدة طلبت المحكمة حضورها. وعلاوة على ذلك كان ضروريًّا إثبات أن «X» ليس هو دايسكيه من خلال فحص الجينات الوراثية، ولذلك قرر كيدو أن يختار من بين متعلقات الزوج الراحل المتبقية ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان وشعيرات باقية في ملابسه وأظفاره المتبقية في قلَّامة الأظفار والعودة بها.

تحدثت ريئه إلى كيدو بأحاديث كثيرة خلال نصف اليوم الذي قضياه معًا.

كانت تتذكر أنه بلا أطفال، لكنها عرفت أن لديه طفلًا تقريبًا في عمر ابنتها هانا، واستمر الحديث عن تربية الأطفال فترة من الوقت. ثم سألته عما حدث له في أثناء الزلزال، فتحدث لها عن مظاهر الناس الذين فشلوا في العودة إلى بيوتهم بعد انتهاء أعمالهم، والمباني التي أوشكت على الانهيار، والمعاناة من انقطاع المياه والكهرباء، والحي الصيني الذي أصبح خاويًا تقريبًا بسبب قلة عدد الزبائن، وعودة العاملين فيه إلى بلادهم عودة مؤقتة.

تخيلت أنها كانت ستخوض تلك التجارب نفسها في يوكوهاما هي أيضًا إن لم يمُت ابنها ولم تُطلَّق من زوجها الأول. لو كان ذلك هو ما حدث يُفترض أنها لم تكن لتتعرَّف على زوجها الذي مات في الغابات في هذه البلدة.

كان كيدو مستمعًا جيدًا فأصبحت ريئه ثرثارة تلقائيًّا. أخرجتْ متعلقات زوجها الراحل وجاءت بها وهي تبحث فيها فتحدثت إليه عن ظروف تعرُّفها بزوجها «X» وعن شخصيته التي لم تكن أخبرته بها بالتفصيل بعد.

التقط كيدو صورًا لباقي متعلقات الزوج بكاميرا الهاتف للاحتياط، وأخذ يتفحص بتمعن دفاتر رسومات «X» واحدًا بعد واحد، مستغرقًا في ذلك وقتًا طويلًا. وشعرت ريئه بأنها ترى بعد غياب طويل وجه شخص يفكر بعمق وهدوء.

- إنها لوحات تجعلني أتخيل رسَّامها فتى صغيرًا لم يتغير حتى بعد أن كبر في السن.

- كان يرسم بكل جدية. ليست بارعة إلى درجة أن يُباهي بها، لكنها لوحات تعكس مشاعره تمامًا. كان كما تُظهِره هذه اللوحات بالضبط، نقي السريرة ذا جدية، ويراعي مشاعر الآخرين. كان يبدو أنه غير قادر على الغش أو الخداع.

أومأ كيدو موافقًا وكأنه يقول أفهم ذلك جيدًا، وواساها ببضع كلمات. ثم قَبِل أن يتولى البحث عن هوية «X»، لكن كان المقابل زهيدًا إلى درجة كبيرة.

همست رِيئه من دون وعي قائلة:

- أنت إنسان جيد يا أستاذ كيدو، حقًّا!

ثم ندمت سريعًا لطريقة القول تلك.

لقد أحسَّت بذلك من أعماق قلبها، وأحسَّت أيضًا أنها تريد أن تقول ذلك. لكن لا شك أنها كلمة غير لائقة بمعانٍ متنوعة.

فتح كيدو عينيه على وسعيهما من الدهشة وأبعد جسده ثم ضحك قائلًا:

- إنه عملي.

خجلت رِيئه لحساسيتها التي نتجت عن شعورها بالوحدة في منتصف العمر.

كان الوقت الذي قضاه كيدو في ميازاكي قصيرًا، لكن في الواقع أحسَّت رِيئه بالوحدة إلى حدٍّ ما. لكن هذا لا يعني أنها كانت ترغب في أن يبقى طويلًا، بل مجرد شعور بالوحدة من وضعها الحالي.

كانت تردد مرات عدة السؤال الذي قاله لها ضابط الشرطة: «إذن، مَن الذي مات؟»، وتعيد لنفسها السؤال: «مَن مات؟» فتشعر بأن المعنى قد اختلف.

يمكن للإنسان أن يُبدِّل الحياة مع شخص آخر. لم تفكر في ذلك حتى

في أحلامها، لكن في الواقع فعل زوجها ذلك. عاش حياةَ شخصٍ آخر. لكن، ماذا عن الموت؟ يُفترض أن الموت الشيء الوحيد الذي لا يمكن تبديله مع شخص آخر.

ولا داعي للقول إنها عرفت ذلك الأمر وقلبها يتمزق من الألم عندما مات ابنها ريو.

كان ريو طفلًا مرحًا ونشيطًا، يلعب كثيرًا مع شقيقه الأكبر يوتو، وتكلم مبكرًا إلى درجة مذهلة. وكفَّ عن استخدام «حفاضات الأطفال» وهو في عمر سنة وعشرة أشهر، مما أدهش مربية الحضانة. وكان زوجها يفخر بأن ذلك هبة التعليم المبكر الذي ينفِّذه هو بعد أن بحث عنه في الإنترنت.

لكن، قبل عيد ميلاده الثاني بقليل عاد ريو يتبول لا إراديًا في أثناء النوم، وحتى في أثناء النهار في الحضانة. وضحكت ريئه مع المربية وهي تقول: «كما توقعنا، لقد تسرعنا». ثم استخدمت «الحفاضات» مجددًا، لكن وبخها زوجها على ذلك قائلًا: «إن ذلك تدليل له سيسبب انتكاسة»، وحاول أن يجعله يصبر في كل مرة يشتكي العطشَ وجفاف ريقه ليلًا قبل النوم بصفة خاصة قائلًا له: «لهذا تتبول في فراشك!». وتعارك الزوجان مرات عديدة بسبب ذلك.

ثم أمسى ريو قليل الحركة والنشاط وبات يتقيأ من حين إلى آخر.

في البداية شكت ريئه أنها حالة نفسية بسبب معاناته من صرامة زوجها. ووافقت مربية الحضانة أيضًا على ذلك الرأي. وكانت تسأله: «هل بطنك يؤلمك؟ هل بطنك لا يؤلمك؟» فيومئ في الحالتين إيماءة مبهمة. ولم تعرف أين الألم بالضبط، لكنه كان يشعر بألم في الرأس بعد استيقاظه في الصباح وقبل الذهاب إلى الحضانة.

نظر زوجها إلى قلقها على أنه اتهام مبطن له، فكان متعكر المزاج. ثم ذهب بنفسه في أحد الأيام لأخذه من الحضانة وكان نادرًا ما يفعل ذلك، وذهب به في طريق العودة إلى طبيب أطفال بجوار البيت من دون أن

يخبرها، وعندما عاد قال لها وهو يُلقي بخشونة الدواءَ الذي وصفه الطبيب فوق منضدة المطبخ: «مجرد نزلة برد بسيطة».

عندما تفكر في ذلك بعد فوات الأوان تجد أن زوجها السابق كان على الدوام يقلق من سلوكها، وفي النهاية تحوَّل كل شيء إلى جحيم!

استمر ريو في تناول الدواء لمدة أسبوع كامل، ولم تتحسن حالته الصحية فقررت ريئه أن تذهب به إلى طبيب أطفال مختلف غير الذي يُعالج عنده دائمًا، لكن زوجها قال لها بغضب: «إنكِ دائمًا تسألينه هل رأسك يؤلمك؟ لذلك يظن أن رأسه يؤلمه حقًا. إن كنتِ ترين أنها حالة نفسية فأنتِ السبب!».

ثم أخبرها الطبيب الثاني الذي فحص ريو أن تذهب به على الفور إلى مستشفى كبير، وكتب لها خطاب تعريف بالحالة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أُخبرت فيها بوجود اشتباه بورم في المخ.

وفي الأسبوع التالي كانت نتيجة الأشعة المقطعية على المخ العثور على ورم في العُقد القاعدية للمخ، وصدر تشخيص المستشفى أنه مرض «ورم جرثومي تقليدي نموذجي». وشرح لها الطبيب أن التبول اللاإرادي وجفاف الريق من أعراض انهيار البول المصاحب للمرض. وحتى الآن تشعر ريئه بالندم على إيمانها بكلمة «سيُشفى» التي كانت تتعلق بها تعلُّق الغريق بقشة بعد هذا التشخيص الأول. في الأصل كان الطبيب واثقًا من تشخيص المرض وأنه «ورم جرثومي»، ولم يشرح لهما احتمال أن يكون «ورم دبقي» كما بدأ يؤكد فيما بعد. من الصعب مواجهة الحقيقة، لكن على غير المتوقع، تقبَّل الزوج تمامًا هذا التشخيص سريعًا. وجد في مواجهة ذلك القدر المأساوي بشجاعة ملاذًا لكبريائه، بل إنه تحمس حماسًا مريبًا. كان ذلك تعويضًا لكرامته التي جرحتها زوجته في أثناء النقاش حول مرض الابن حتى تلك اللحظة. بل كانت معنوياته مرتفعة.

لكن في الواقع كانت ريئه هي التي استقالت من عملها في البنك الذي كانت تعمل به وقتها، واستمرت في تمريض ابنها بعد أن وضعوا لها سريرًا

لتنام معه في غرفته بالمستشفى لمدة ثلاثة أشهر. وذلك لأن زوجها كان يؤمن بأنه سيُشفى. وقال: «المنطق هو إجراء العلاجين الكيماوي والإشعاعي»، ولم يكن يبدو أنه الزوج الذي ظل يوبخها مرارًا وتكرارًا بأن عدم فهمها لأن «تعليمها أدبي» ولأنها «امرأة»، يفهم إلى أي درجة كان ذلك العلاج عذابًا للطفل.

كانت رينه تبذل كل جهودها لكيلا تتذكر منظر ريو وهو يعاني القيء بلا انقطاع. وزادت التهابات الفم، وكان يبكي من الألم لمجرد بلع ريقه، وظل وزنه ينقص باستمرار. ولم تستطِع هي نفسها النوم تقريبًا، ولا تناول الطعام، ومع أنها كانت في الأصل قليلة الحجم، إلا أنها فقدت تسعة كيلوجرامات من وزنها خلال ثلاثة أشهر. ومع ذلك لأنها آمنت بأنه «سيُشفى» أجبرت ريو على تقبُّل العلاج وهي تحضنه عندما كان يتلوى ويثور غاضبًا من الألم.

وبديلًا عن وجه ريو الباكي، تتذكر حتى الآن ملامحه الطفولية البريئة وهو يومئ بجدية قائلًا: «حاضر، حاضر» ويداه فوق ركبتيه جالسًا فوق السرير عندما كان الطبيب ينصحه قائلًا: «يجب أن تجتهد وتصبر! لأنك رجل، أليس كذلك؟».

تساقط شعر رأسه، وانتفخ وجهه ليبدو وكأنه طفل آخر. وكان قوله «حاضر»، وليس «أيوه» نتيجة التأديب الصارم الذي كان زوجها يصر عليه ويعلمه له بحزم. وبعد أن مات ريو زارها في أحلامها عدة مرات، وكان يومئ وهو يقول: «حاضر، حاضر» لتلك النصائح.

يا لخيبة أملها عندما عرفت أن كل هذا العذاب الذي أجبرت عليه ريو لم يكن له معنى. إن كان الأمر كذلك، فقد كان يجب عليهما على الأقل أن يجعلاه يشعر بقدر الإمكان بالسعادة فيما تبقى له من أيام قلائل، فيجعلاه يأكل كل ما يريد من طعامه المفضل، ويأخذاه إلى حديقة الحيوانات التي يحبها، ويلبيّا له كل ما يطلب من طلبات أنانية. كلَّا بل من الأصل لم يكن ذلك التأدب الصارم له أي ضرورة. إن كانت فقط تعلم! عندما عرفت أنه «لن

يُشفى» بمعنى أنه لن يعيش، لم تستطِع ريئه أن تتنفس وكأن فمها أُغلق من قوة لا تُرى بقبضة يد عنيفة مثل قبضة نسر جارح. وارتفعت حرارة جسمها من الداخل وكأنها تشتعل من النيران، وفي الوقت نفسه أحسَّت ببرودة وكأن جسمها ممتلئ بالثلج، وظلت تبكي فقط وهي تفرك أطرافها الأربعة بغرابة وشذوذ. تشعر ريئه بأنها تفهم الآن ماذا كان جسمها يحاول أن يفعل. كان يحاول أن يُجن حتى يصل إلى حالة عدم فهم الواقع.

لم تستطِع أن تفدي ريو بنفسها وتنقذه من الموت. إنه تعبير مبتذل جدًّا تجاه طفل يعاني المرض، لكنها استمرت تتمنى بقوة جعلت جسمها يتمزق من العذاب أن تفديه بحياتها. ظلت تصلي من دون أن تدري لمَن، من أجل أن تحدث المعجزة. لكن في النهاية كان يجب أن يموت ريو موته بنفسه. وتموت هي موتها بنفسها.

استمرت تهمس في سرِّها: «مَن الذي مات؟»، طبقًا لهوية البلدية فمَن مات هو «دايسكيه تانيغوتشي». لكن يُفترض أن موت دايسكيه لا يمكن أن يموته إلا دايسكيه. فكرت ريئه: تُرى من يكون زوجها الراحل؟ بمعنى أنه مات موت مَن؟

لم تكن ريئه في الماضي معتادة ذلك التأمل التجريدي. لكن مثلما كان جسمها يحاول بكل طاقته أن يُجن في الوقت الذي أدرك فيه أن ريو سيموت، لم يكن أمامها الآن إلا التفكير لكي تستمر في الحياة ولا تُجن.

لقد أطلق كيدو على زوجها الراحل «X»، لكنها لم تلفظ ذلك الاسم بلسانها حتى ولو على سبيل التيسير.

لأنها شعرت بأن إطلاق رمز وليس اسمًا، يُعَد إهانة أساسية تجاه كرامة الإنسان. عندما يقال لها «X» فكأنه شخص مجهول لها تمامًا وكلما نطق به كيدو، كانت ريئه لا تسمع ما يليه من كلمات. وكأن «X» هذا الذي يمر لتوه من جوارها بلا مبالاة يقف ويلتفت إلى الخلف في وسط الحوار. يُفترض

أنه زوجها. لكنها نفسها لا تعرف اسمه الحقيقي الذي تناديه به من خلفه وهو يبتعد بعيدًا.

لا يستطيع الموتى النداء علينا من عالمهم، وليست لديهم حيلة إلا أن ينتظروا أن نناديهم نحن. ولكن الميت الذي ليس له اسم لا ينادي عليه أحد، فتزداد وحدته العميقة عمقًا.

وعندما تواجه ريئه صورة زوجها الراحل التي تزين المذبح البوذي في بيتها لا تدري ما الاسم الذي إن نادت به سوف يلتفت إليها. في حياته كان من عادتها أن تناديه أمام الأطفال «بابا» أو «أبي»، وتناديه على انفراد «دايسكيه كون». بالضبط كما هو انطباع دفتر الرسم، كان زوجها به صفة أنها لا تستطيع أن تناديه إلا كما تنادي زميلًا في المدرسة المتوسطة بإضافة لقب «كون» إلى الاسم. بل وكانت تعتقد أن مقطع «سكيه» من اسم «دايسكيه» يأمل أن يُتبع بلفظ «كون».

لكن اسم «دايسكيه تانيغوتشي» كان لرجل غريب تمامًا كان ينتحله زوجها.

تذكرت نداءها لزوجها باسم «دايسكيه» عندما كان حبها له عميقًا والمسافة بينهما أقرب ما تكون. ينادي الإنسان على مَن يحبه باسمه هكذا ليس لكي يفرِّق بينه وبين الآخرين، بل حتى في عدم وجود غيره وعدم وجود شبهة الخطأ في معرفة أن الكلام موجه إليه، كلَّا بل ربما في ذلك الوقت تحديدًا!

تُرى ماذا كان شعوره عندما تناديه زوجته باسم ليس اسمه، بل اسم رجل آخر؟ لقد كان حب الزوجة متغلغلًا في نداء «دايسكيه كون»، تُرى كيف شعر بذلك الصدى الذي يستمر بلا نهاية يحيط به ويغلفه؟

لم يكن الاسم فقط. بل لقد حكى زوجها ماضي «دايسكيه تانيغوتشي» على أنه ماضيه هو شخصيًّا، وتعاطفتْ مع ذلك الماضي بعمق.

وكانت تحب أن تتخيل طفولته التي كان لا يتحدث عنها. وعلى الأرجح أنه لو كان زميلًا لها في الفصل نفسه، لم تكن لتتحدث معه أو تتبادل الحوار معه حتى نهاية السنة الدراسية فتتغير الفصول ويذهب كلٌّ منهما إلى فصل جديد.

زميل الفصل الجاد والهادئ تمامًا، الذي لا يقترب من أحد في راحة الغداء، ويلعب وحده في أبعد مكان عن حلقة الفصل المركزية. الزميل الذي يُبعَد سابقًا عن الحوار الذي يشتعل في الفصل على الرغم من الجميع في السنوات العليا من المدرسة مثل مَن يحب مَن من الزملاء والزميلات. ومع ذلك، ليست به صفات تدعو إلى الكراهية. لكن عندما تستدعي ذكريات الطفولة، تمر على الذهن فجأة ذكراه أكثر من الأصدقاء المقربين. والسبب فقط هو الحنين.

كان بعد الزواج أيضًا طيبًا ورزينًا. قليل الكلام، وهادئ الملامح دائمًا، ولم يحدث أن رفع صوته غاضبًا سواء تجاه زوجته أم طفلَيه. وكان ذلك على النقيض من زوجها السابق الذي أصبح يميل إلى الغضب والعصبية بعد ميلاد ابنها الأكبر يوتو، وربما كان ذلك هو سبب عدم انتباهها لمرض ريو في وقت مبكر.

وترى رينه أنها لم تذُق سعادة مثل سعادتها في حياتها الزوجية معه لمدة ثلاثة أعوام وتسعة أشهر تقريبًا. لكن عندما تعيد النظر إلى تلك الذكرى، تجد أنها وقفت بخطورة على قدم واحدة مثل الخذروف[1]، ومع نهاية حياته المفاجئة وقع الخذروف على جنبه وتوقف عن الحركة.

ربما لم تكن رينه لتنتبه لذلك قَطُّ لو كان زوجها ما زال حيًّا، مثلما تبدو

(١) الخذروف: عود صغير مشقوق في وسطه، يُشَدُّ بخيط ويُدوَّر فيدور بسرعة ويُسمَع له صوت. ويُسمَّى أيضًا «خَرَّارة» و«دُوَّامة». يشبه لعبة «النحلة» التي يلعب بها الأطفال في مصر. (المترجم).

أوساخ الخذروف المستمر في الدوران مثل الدائرة الجميلة، مهما بدت تلك الكلمات متناقضة.

تركت ذكرى زوجها آثارًا في كل جزء من جسدها. كانت مرعوبة من أن يشف من تحتها وجه قبيح يناسب أن يُطلق عليه رمز «X» اللاعضوي.

لا شك أن له ظروفه. كانت موقنة بذلك. لكن تُرى لماذا لم يخبرها؟ كانت لديه أربعة أعوام ونصف العام. كانا يثقان ببعضهما ثقة كافية. ولا يمكن افتراض أنه لم يجد فرصة لكي يعترف لها.

في كل مرة تواجه ريئه صورة زوجها المتبقية فوق المذبح، تحملق فقط إلى عينيه، فليس له اسم تناديه به. إن الإخلاص الكاذب، كلما كان بارعًا، ازداد ابتعادًا عن الحقيقي.

٦

شرح كيدو لها أن الحكم في الدعوى المقدمة إلى محكمة الأسرة من أجل إلغاء تسجيل وفاة «دايسكيه» وإعادة اسمها إلى سجل هوية عائلة تاكيموتو سيستغرق على الأقل شهرين وعلى الأكثر عامًا كاملًا. وشرح لها أيضًا أنه في حال رُفضت الدعوى الثانية، سيكون من الضروري إقامة دعوى للحكم ببطلان عقد الزواج. ولكن في الواقع حكمت المحكمة بقبول الدعويين بعد خمسة أشهر، وكان ذلك في بداية أغسطس.

فلقد تأكد علميًّا أن «X» ليس هو دايسكيه تانيغوتشي نتيجة فحص الجينات الوراثية. وبذلك حُذِف من تاريخ ريئه القانوني زواجها الثاني.

عُدِّل الماضي، فباتت من دون سابقة زواج إلا مرة واحدة فقط، وهي الآن لا تُعَد أرملة سبقها زوجها بالرحيل.

ليس مجرد أن الإجراءات كان بها خطأ فقط، بل لقد كان فعلها ذاته خطأ. فلقد ظنت خطأً أنها تزوجت شخصًا لم يسبق لها أن قابلته في حياتها قَطُّ اسمه «دايسكيه تانيغوتشي»، وأشهرت ذلك علانية للمحيطين بها، وقدمت من تلقاء نفسها بلاغًا إلى البلدية بموت ذلك الشخص الذي لا تعرف أين يعيش ولا ماذا يفعل الآن! عندما تفكر هكذا، تشعر بمشاعر حزن بائس، بل وفقدت الإجابة عن سؤال حياة مَن إذن التي تعيشها هي؟

انتهت العطلة الصيفية، وفي صباح يوم مراسم بداية الفصل الدراسي الثاني لمدرسة يوتو.

- أمي! مهما حاولتْ هانا إيقاظ أخي الأكبر فهو لا يصحو.

التفتت ريئه التي كانت تصنع بيض عيون إلى ابنتها هانا وقالت لها:

- ماذا! لا يصحو؟

- إن هانا تعتقد الآتي، لأن أخي ظل طوال عطلة الصيف يصحو متأخرًا، فهو ما زال يشعر بالنعاس، أليس كذلك؟

قالت هانا ذلك وابتسمت جاعلة عينيها على شكل هلالين. كانت هانا التي ستصبح في الخامسة من عمرها الشهر المقبل، عندما تريد التحدث عن رأيها تقول «إن هانا تعتقد الآتي» على طريقة القول باللغة الإنجليزية «I think that ~»، أو ما يُسمَّى «طريقة عكس أجزاء الجملة». هنا تُقطِّع تابع الكلمات وتبلع ريقها ثم تنظر بميل إلى أعلى وترتب أفكارها. وكانت ريئه تستمتع بذلك، وتبتسم تلقائيًّا وهي تنتظر تكملة الجملة.

منذ ميلادها، يقول الجميع عنها إنها «طفلة مثل القطن». وعند النظر إلى جسمها إجمالًا، لم تكن سمينة قَطُّ، ولكن ذراعيها وساقيها مَن يراها يريد أن يلمسها، من امتلائها باللحم الجيد، بل كان ذلك الملمس لينًا هشًّا إلى درجة أنه لا يمكن البحث في هذا العالم عن شيء شبيه.

وبات ذلك الجسد بعد أن استطاعت أن تمشي، ثم بعد أن صارت تجري كل يوم في روضة الأطفال تدريجيًّا متينًا وقويًّا، وخلال هذا العام، باتت أطرافها الأربعة أكثر نحافة. ولم تعد الآن «طفلة لينة كالقطن»، وعلى الأرجح أنها لا تتذكر وقتما كان الكبار يقولون عنها ذلك.

إن نمو الأطفال مفرط في سرعته، فيفقدون على الفور براءة الطفولة. حتى بالنسبة إلى ريو الراحل، تشعر ريئه بأن ما استوعبته بنفسها من صفات ومميزات مثل قدرة التفرقة بين الكلمات والصبر والجاذبية والجبن، باتت غامضة غموضًا فظيعًا.

لكن هانا أضحت قريبة الشبه جدًّا من أبيها على الأقل في منظرها الخارجي. وبصفة خاصة فإن الأعين متشابهة. لكن أنفها لا يشبه أيًّا منهما، ويبدو أنه سيكون أنفًا طويلًا. ولكن كانت تلك ملامح رجل، لا يُعرف عنه شيء حتى الآن.

شحب وجه ريئه بعد أن هجم عليها فجأة خاطر مشؤوم. ثم وضعت البيض في الطبق، ووضعت على شريحة الخبز التي حمصتها في المحمصة مربى وزبدة وأعطتها لهانا وهي تقول لها:

- سأوقظه أنا. تناولي أنتِ فطوركِ يا هانا. وأعتقد أن جدتكِ ستصحو وتأتي إليكِ على الفور.

- أجل. فهمت.

عندما ذهبت إلى غرفته في الطابق الثاني، كان يوتو يُشغل المكيف البارد ويُكور جسده تحت اللحاف.

- ماذا حدث؟ هل تشعر بالمرض؟

ولم تنتظر رده بل جلست على السرير ووضعت يدها على ظهره. ظل متوجهًا إلى الجدار، لكنه جذب جسده بعيدًا بصلابة. وعندما مدت ذراعها ناحية جبهته دفن وجهه في الوسادة وكأنه يكره ذلك، لكن لم تكن به حرارة.

- لو أنك تشعر بالمرض أخبرني. فيجب الذهاب إلى الطبيب.

- أنا بخير.

- حقًّا؟!

بعد مرور فترة، نهض يوتو وكأنه يحث نفسه على القيام. ثم قال وهو يحك شعر رأسه الذي التصق من الضغط عليه في أثناء النوم:

- إنكِ يا أمي تقلقين قلقًا زائدًا على الحد. إنني لست ريو. ولو حدث أن مرضت بنزلة برد أو صداع، تحدثين جلبة كبرى. أنا، أنا. وأخي، أخي. نحن مختلفان.

قال ذلك وهو مطأطئ الرأس.

أومأت أمه وهي تطلق تنهيدة خفيفة.

- إنه كما تقول فعلًا. لكن ألا ترى أنني لا حيلة لي؟ لأنني خُضتُ تلك التجربة. ولذا فكر أن قلق أمك لن يُشفى، وليس أمامك إلا أن تتعامل معي على هذا الأساس.

عندما رفع يوتو وجهه، كان يبتسم بتكلُّف وكأنه قد يئس منها. وعندها فكرت ريئه أن ذلك الطفل ذاته مر بتجربة فقدان ثلاثة من أسرته على التوالي بالموت وهو في سن صغيرة. من نظرة سريعة يبدو أن بلادة الشعور نحو الموت بسبب صغر السن قد حمته من الجرح النفسي العميق، لكن ظروفه لا يمكن أن تقارن بطفولتها هي التي عاشتها سعيدة. وشعرت بأن نموه من دون أي تأثير غير طبيعي.

- أنت بخير حقًّا! أليس كذلك؟

- بلى. جسمي ليس به شيء، في صحة جيدة.

- إذن ماذا؟ أمر نفسي؟

ظل يوتو صامتًا وكأنه يفكر تفكيرًا عميقًا. كانت قامته قد طالت وأصبح أطول من أمه، وبدأت بثور الشباب تكثر في وجهه.

- جرِّب أن تقول لي.

حك يوتو رأسه ومسح وجهه بيده، وعض شفتيه باحثًا عن كلمات مناسبة.

- أنا لا أريد أن يتغير اسم عائلتي مرة أخرى. ما المشكلة في أن أبقى تانيغوتشي كما أنا؟

قالت أمه في سرِّها: «لماذا لم أتفهَّم شعوره ذلك على الفور؟ لقد أخبرت يوتو بأن اسم العائلة سوف يعود إلى ما كان عليه من دون أن يعرف أي شيء عما حدث بشأن والده المُتوفى. ثم وقتها أومأ فقط قائلًا: فهمت».

- مع أنني عندما ولدتُ كان اسمي «يونيدا»، ولكن لأنكِ طُلِّقتِ تحوَّل اسمي إلى «تاكيموتو»، ثم دخلت المدرسة الابتدائية وتغير اسمي مرة أخرى إلى «تانيغوتشي». وبعد أن دخلت المدرسة المتوسطة صار

كل أصدقائي الجدد وزملائي الأكبر والأصغر مني ينادونني باسم «تانيغوتشي». ومع ذلك سيعود الاسم مرة أخرى إلى «تاكيموتو». ربما كنتِ أنتِ يا أمي معتادة اسم «تاكيموتو»، لكنه بالنسبة إليَّ اسم جدي وجدتي وليس اسمي. ولذلك أشعر بغرابة إلى حدٍّ ما. وسأشعر بالملل من وجوب تصحيح اسمي كلما ناداني أحد باسم «تانيغوتشي».

- أنت محق.

- ثم لو تزوجتِ مرة أخرى فسوف يتغير اسمي مجددًا! أتمنى لو انعدم نظام اسم العائلة ولا يعود له وجود!

ضرب يوتو ركبتيه بوجه مبتسم وكأنه يمثل دورًا في مسرحية بلا وعي.

- لن أتزوج مرة أخرى. يكفيني ما حصل.

كانت ريئه تنظر إلى تغيير اسم العائلة مع كل زواج على أنه الأمر الطبيعي، وإن كان ذلك هو اسم الزوج فالأمر هين، لكنها عندما فكرت أن عائلة الزوج تشاركها حمل الاسم نفسه تشعر على الفور بغرابة الأمر. وفي كل مرة تعود إلى مسقط رأسها، كانت تشعر بالحنين إلى اسم «تاكيموتو» الذي ما زال متبقيًا داخلها. اختلفت الظروف في حالة زوجها الذي مات، وربما ذلك الشعور هو سبب رد فعلها الرافض لكيوئتشي تانيغوتشي عندما قابلته لأوَّل مرة.

تُرى هل كانت ستشعر بأن الاسم الذي وُلدت به هو اسمها، لو كانت لا تحب والديها؟

- هل نسيتِ أبي يا أمي؟

- من المستحيل أن أنساه.

- متى إذن ستبنين له مقبرة؟ بدلًا من أن يُهمَل هكذا داخل جرة خزفية حتى الآن؟ لقد كففتِ تمامًا عن الحديث عنه. إن أمرك غريب جدًّا يا أمي.

- ....

- حتى وإن عدتِ أنتِ يا أمي إلى اسم «تاكيموتو»، هل توافقين على أن أظل أنا باسم «يوتو تانيغوتشي»؟ إن أبي مسكين هكذا! لقد تخلت عنه أسرته سابقًا، فماذا لو نسيناه نحن أيضًا؟

كان صوت المكيف البارد القديم يؤكد هدوء صباح أول يوم من الفصل الدراسي الجديد، هدوءًا كأنه يطارد شيئًا مجهولًا.

لقد بدأ صوت يوتو يغلظ وقت الذهاب في رحلة عائلية لمدينة بيبو في أثناء عطلة الصيف وبعد العودة اختلف صوته تمامًا وبات صوتًا رجوليًا غليظًا. ربما كان بسبب ذلك، أحسَّت ريئه فجأة أن ابنها الصغير أصبح رجلًا بالغًا.

أضحت أشعة شمس الصيف التي تتسرب من فتحة الستائر المغلقة في أثناء هذا الحوار القصير، أكثر قوة وتأكيدًا، وبات صوت حشرة الزيز أكثر صخبًا كأنها تُحرِّض على فعل ذلك.

أرخت ريئه فمها الذي كانت تغلقه بحسم ثم أطلقت منه تنهيدة خفيفة.

- كيف كان يعاملك زوجي؟

- ماذا؟ كان طيبًا وحنونًا. ألم يكن كذلك؟

- بلى كان كذلك حقًّا.

- وحتى عندما كان يوبخني لشيء كان يجلس معي ويشرح لي بالتفصيل ما الخطأ الذي فعلته، وكان يستمع إليَّ جيدًا. أعتقد أنه كان إنسانًا رائعًا أكثر من أبي السابق. إن دماء أبي السابق هي التي تسري في عروقي، لكني كنتُ أفضِّل أن يكون أبي اللاحق هو أبي الحقيقي. وأحسد هانا على ذلك.

منذ زواجها الثاني لم يسبق أن لفظ يوتو بعبارة «أبي الحقيقي» تلك على لسانه قَطُّ. لأنه وقتها كان في الثامنة من عمره، كان فقط يقلد أمه بأن يدعوه «أبي السابق». لكن على الأرجح، بعد ذلك، وبسبب تعلقه بـ«أبيه اللاحق» أو ربما بسبب أنه اعتقد أن نداء «أبي الحقيقي» غير لائق مراعاة لمشاعر أمه،

يبدو أنه قرر عدم استخدامه، لأنه في اللحظة التي سينطق فيها تلك العبارة سيكون «أبوه اللاحق» ليس «أبًا حقيقيًا».

وقد لاحظت أمه من دون وعي مشاعر ابنها القلبية تلك، وشعرت بالحب تجاه طيبة قلبه المحببة تلك. ومن المؤكد أنه تأثر بتلك الصفة من «أبيه اللاحق» ولم يرثها من دماء «أبيه السابق».

- لقد كان أبوك يحبك حبًا حقيقيًا.

- إنني لم أعد أشعر بالحزن لموته. إن جدتي حنون أيضًا، ولكن نوعًا ما.

قال ذلك ثم ضحك على استحياء.

- أحس بالوحدة. عندما أعود إلى البيت كل يوم وفي جعبتي عديد من الأمور التي أريد أن يسمعها أبي.

ثم في النهاية انهار بالبكاء وهو يرتعش. ربتت أمه على ظهره وهو ينشج من البكاء مع أنها هي نفسها بكت معه.

- أنت تحب أباك حقًا.

- أعرف أن لديكِ ظروفكِ الخاصة يا أمي، لكنني أشعر بأنني إن لم أكن «تانيغوتشي» فلن تكون هناك علاقة لي مع أبي الراحل. مجرد ابن من الأب السابق، والأب اللاحق هو زوج أمي الثاني فقط، وهانا هي ابنة ذلك الزوج، ووالدها يختلف عن والدي.

سقطت قطرات الدموع فوق ركبتيه قطرة بعد قطرة، ولم تُطِل من وجهه المطأطئ إلا وجنتاه المتوردتان فقط.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يبكي فيها بتلك الحرقة أمامها بعد جنازة «أبيه».

سمعت صوت أمها من الطابق الأول وهي تقول:

- ما هذا؟ هل أنتِ وحدكِ يا هانا؟ ريثه! إن هانا تتناول الفطور بمفردها.

- سأنزل على الفور.

مسح يوتو عينيه اللتين احمرّتا وهو يتحمل ارتعاش صدره.

- لا مانع من أن تظل أنت باسم «تانيغوتشي» كما أنت يا يوتو! هل فهمت؟ ثمة أمور قانونية عديدة تحتم على أمك أن تعود إلى اسم «تاكيموتو». سأشرحها لك فيما بعد. أعتذر إليك أنني شرحت لك بشيء من الغموض، لكن الأمر معقد قليلًا.

فكرت ريئه أنها يجب أن تتحدث معه عما حدث! لكنها فكرت أن تؤجل ذلك حتى تتضح كل الحقائق على الأقل، إلا أنها لا تدري متى سيكون ذلك!

تُرى ماذا سيكون رد فعل ابنها الذي يحب «أباه» ويحترمه إلى هذا الحد؟

لاحظ يوتو أن أمه تُخفي عنه أمرًا. ثم جعلته جملة «الأمر معقد» يظن أن توقعه الغامض بقرب زواج أمه للمرة الثالثة قد أصاب الحقيقة. وعندما سمعت ريئه منه ذلك فيما بعد اندهشت بشدة من هذا التوقُّع الذي لم تتخيله، فقال لها إن أساس توقعه ذلك أنها خرجت بمفردها مع كيدو الذي جاء لزيارتها في محل الأدوات المكتبية، وأنها تتحدث معه بالهاتف في سرية بصوت هامس.

لقد تورَّد وجهه بالكامل وانتفخ بليونة داخل مقلتَي ريئه. وبعد أن أومأ في صمت نزل يوتو من على السرير وذهب ليفتح ستائر النافذة.

ثم مسح دموعه مرة أخرى بلا اهتمام بيد واحدة وهو ينظر إلى الخارج.

كانت ريئه في كل مرة تلمس نمو طفليها اللذين بقيا على قيد الحياة، تقول لنفسها إنها يجب أن تعيش بكل قواها.



٧

- لقد اشتريتِ الخاتم بنفسكِ من أجلكِ، أليس كذلك؟
- بلى.
- ليس من أجل طفلكِ؟
- من أجلي أنا. أجل.
- لكنك أعطيتِ ذلك الخاتم للطفل يلعب به؟
- ذلك لأنني عندما أعطيه الخاتم يكف عن البكاء وينشغل بجماله. فقط في ذلك الوقت أعطيه له.
- بمعنى، أنكِ كنتِ تعرفين أن الطفل يمسك ذلك الخاتم، بل كنتِ في بعض الأحيان تعطين له الخاتم بنفسك، أليس كذلك؟
- لقد شرحتُ الأمر. في ذلك الوقت فقط. عندما يكون تحت عينَي فقط. بلى.
- ألم يسبق لكِ أن جعلتِ طفلكِ يلعق ذلك الخاتم من أجل أن يكف عن البكاء؟
- نعم، لم أفعل ذلك! لكن أعتقد أن مَن صنعه كان يجب أن يحذر من أن يضعه طفل في فمه. مهما كان خاتمًا للكبار، إن اشترته امرأة شابة فكثيرًا ما يكون في بيتها أطفال صغار. إن صُنع طالبة جامعية لذلك أمر عديم المسؤولية!

- الحِرز رقم ٥ من الدفاع عبارة عن صورة بيت صاحبة الدعوى من الداخل. في غرفة المعيشة ثمة مغناطيس، أليس كذلك؟
- بلى.
- إنه ليس دمية للأطفال، أليس كذلك؟
- ماذا؟ بلى.
- وتضعينه في مكان عالٍ، لا تصل إليه يد الطفل، أليس كذلك؟
- بلى.
- إن في بيتكِ خواتم أخرى غير هذا الخاتم محل التقاضي، أليس كذلك؟
- بلى.
- وكذلك أقراط؟
- أجل.
- أنتِ تضعين الخواتم والأقراط في مكان لا تصل إليه يد الطفل، أليس كذلك؟
- ....
- ما رأيك؟
- بلى.
- لكيلا يبلعها الطفل خطأً. أليس كذلك؟
- هذا...
- لكن هل وضعتِ هذا الخاتم فقط في مكان تصل إليه يد الطفل؟
- ....
- ليس فقط تضعينه في مكان تصل إليه يده، بل كنتِ أنتِ نفسكِ تعطينه له. أليس كذلك؟
- لقد قلت ذلك. بلى هو كذلك.
- بهذا أنهي أسئلتي.

بعد أن انتهى من تقديم عريضة الدفاع في قضية مدنية بمحكمة يوكوهاما المحلية في الصباح، تناول كيدو وجبة الغداء بالحي الصيني في يوكوهاما مع شريكه في المكتب ناكاكيتا.

ولقد لُسع طرف لسانه عندما ألقى من دون وعي قطعة لحم ساخنة مطبوخة بالخل داخل فمه من دون أن يحترس.

- إن محاميها يبدو سيئ الشخصية، كنت أفكر؛ يا لها من جرأة أن يجعلها ترفع مثل تلك القضية. في أي عام حصل على رخصة المحاماة يا تُرى؟ إنني أراه لأوَّل مرة.

- ووسائل الإعلام أيضًا حضرت بكثافة. لقد هوجمت الأم في الإنترنت هجومًا شديدًا على أنها هي المهملة، إلى درجة أنني أشفقت عليها. وهي تقول إنها لن توافق على الصلح أبدًا، لذا من المؤكد هزيمتها في الدعوى، وأشعر بالغم عندما أفكر كيف ستحمل بمفردها عبء ابنها الذي أصبحت لديه إعاقة شديدة في المخ.

كانت القضية أن طالبة في جامعة تقع في مدينة فوجيساوا استخدمت آلة طباعة ثلاثية الأبعاد وصنعت بها حُليًا للزينة ثم بدأت في بيعها على الإنترنت، وبلع طفل رضيع خاتمًا اشترته أمه فأصيب باختناق، أُنقذت حياته بصعوبة لكنه أصيب بإعاقة شديدة في المخ. وهنا رفعت أمه قضية مدنية ضد الطالبة التي باعت لها الخاتم تطالبها بتعويض عن الأضرار قدره مائتا مليون ين.

كان كيدو معجبًا بالطالبة التي استخدمت آلة طباعة ثلاثية الأبعاد في مركز الأبحاث في الجامعة لكي تصنع أقراطًا وقلائد بألوان زاهية ومواكبة للموضة. ومؤخرًا تصنع منتجات جديدة مبتكرة من التي توزع مجانًا في الفعاليات المختلفة، وحققت في عام واحد مبيعات بقيمة ٤٧٠ ألف ين. عند مقارنة المبلغ بالوقت المستغرق في العمل يكون ربحًا ضئيلًا، لكن الطالبة نفسها ترغب في أن تكون مهنتها مستقبلًا مصممة. ومن جانب آخر، فهي لم تشترك في تأمين المنتجات الصناعية الذي من الطبيعي أن تشترك

فيه الشركات الصناعية، بل لم تكن تدري أنها ملزمة بتقديم إقرار ضريبي إن تعدت المبيعات مبلغ مائتَي ألف ين.

وكان كيدو يشعر بالأسى لتلك الطالبة الجامعية المُدعى عليها بالحق المدني، والتي كانت كلما قابلها تنهار باكية لأنها تتذكر الطفل المسكين الذي اختنق. وقد كانت هي أيضًا عرضة لهجوم شديد على الإنترنت، مما أصابها باضطراب نفسي حاد، وقالت إنها لن تبيع مستقبلًا أي نوع من الحُلي. ويعدُّها كيدو خسارة كبيرة أن تفقد موهبة عبقرية مثل موهبتها مساحة يمكن أن تُعبر فيها عن نفسها، ويُعد ذلك ظلمًا حتى من الناحية القانونية.

وفي المحاكمة تصارع كيدو مع المدعية بالحق المدني حول أن الخاتم في الأصل لا يُفترض أن يكون دمية في أيدي الأطفال، ومن حيث التصميم لا يمكن أن يقال عنه إن به عيبًا يُعرِّض مستخدمه للخطر. والأشياء الأخرى التي لها الحجم والشكل أنفسهما موجودة في البيوت بأعداد لا حصر لها. وكان محامي المدعية بالحق المدني يؤكد أن عدم إرفاق شرح مفصل وتحذير مع الخاتم يُعَد عيبَ إنتاج، لكن لم يعتقد كيدو أن الطالبة ملزمة بذلك الشرح للحُلي التي تصنعها. إن القول إنه يجب تحمُّل المسؤولية الأخلاقية لإبداع الأفراد من خلال هواياتهم من أجل حماية المجتمع في المستقبل، ربما كان قولًا مقبولًا، لكن من المستحيل تنفيذه قانونًا.

- بالمناسبة، لقد ذكَّرني صدور حكم المحكمة العليا بعدم دستورية القانون الذي يفرِّق في الميراث بين الأطفال خارج الزواج والأطفال من زواج رسمي، بقضيتك في ميازاكي، ما آخر التطورات؟

كان ناكاكيتا قد طلب وجبة اللحم مع الخضراوات الحارة التي يشتهر بها هذا المطعم وأخذ يأكل منها وهو يتفصد عرقًا من جبهته وعلى وجهه تعبير أن الوجبة لذيذة.

كان ناكاكيتا يهوى العزف على الدرامز ويعطي انطباع الأخ الأكبر، وتظهر

على خديه النحيلين لحية الكسالى اللينة التي لا تلائم المحامين. ومع أنه يبدو مشغولًا بأسرته ونشاط الفرقة الموسيقية الهاوية، إلا أنه يحب تولي القضايا الجنائية، وحتى الآن يقبل القيام بالدفاع في كثير منها. ومهما كانت القضية مأساوية، لا يتوانى عن المبادئ القانونية أبدًا. ويشعر كيدو الذي ذهب أكثر من مرة لسماع فرقته التي تشبه فرقة «ذا جاد جانج» بأن قدرته على الاحتفاظ بذلك الإيقاع المستقر لحياته ناتج من طباعه الشخصية. وكان كيدو الذي كان في أثناء فترة دراسته الجامعية عازفًا على جيتار البيس في فرقة موسيقية هاوية، يتوافق معه نفسيًّا، ولذا عندما قرر تأسيس مكتب المحاماة الحالي كان أول من دعاه إلى المشاركة هو ناكاكيتا.

– صدر حكم إلغاء شهادة وفاة الشخص الذي انتُحِلت هويته وكذلك إلغاء عقد الزواج.

– حقًّا؟ على الأرجح هذا أقصى ما يمكن عمله!

– لديَّ اهتمام شخصي بالعثور على دايسكيه تانيغوتشي ومعرفة مَن «X» هذا الذي انتحل هويته، ولذا سأواصل البحث.

– حقًّا! هو أمر يثير الاهتمام. ما الموسيقى التي كان يحبها هؤلاء الناس؟ إن ذوق المرء في الموسيقى لا يكذب أبدًا.

– نعم. تُرى ماذا كان يسمع «X»؟ لقد كان يحب رسم اللوحات كثيرًا. أما دايسكيه فيبدو أنه كان يحب مايكل شينكر. طبقًا لحبيبته السابقة فقد كان يعبده.

ضحك ناكاكيتا وهو يقول:

– إنه إنسان طيب بلا جدال.

– تجزم بذلك!

– ما من إنسان شرير في ذلك العصر يسمع مايكل شينكر وهو يبكي في الأرياف. أنا أعلم ما أقول. من المؤكد أنه رجل صالح.

– هل كنت أنت أيضًا تسمعه؟ هذا ما لم أكن أتوقعه.

- أجل، فأنا من جيل الثمانينيات بالمناسبة، إن هذا الجيل ما زال نشيطًا. ويأتون إلى اليابان لإقامة حفلات موسيقية حية، عازف الجيتار في فرقتنا قال إنه ذهب مرة إلى حفل لهم وشعر بحنين عظيم. لكن كان الحاضرون في منتصف العمر جميعًا، رجالًا ونساء. ربما لو ذهبتَ إلى مثل هذه الحفلات لعثرتَ على هذا الرجل المُسمَّى «دايسكيه».
- ربما. لم أفكر في ذلك من قبل.
- الذوق الموسيقي يتغير، لكن يتبقى الحنين إلى الذكريات. ربما لو بحثت عن مواقع صفحات المعجبين لعثرت عليه.

عقد كيدو ذراعيه وظل يفكر بعض الوقت. ثم تحدث ناكاكيتا الذي أنهى طبق الكاري وطلب مزيدًا من الماء:

- ماذا عن القضية الأخرى؟ محاكمة الموت من كثرة العمل؟
- ستبدأ الجلسات أكتوبر المقبل. لذا أُجري استعدادات عديدة، أسأل المعنيين وأجمع الأدلة.

يتولى كيدو مؤخرًا خمسين قضية تقريبًا، لكن أثقلها على النفس هي قضية انتحار عامل يعمل في مطعم كان عمره سبعة وعشرين عامًا، ظل يُجبر على العمل لساعات طويلة إضافية خارج المسموح به قانونًا، فرفع والداه قضية تعويض ضد الشركة.

- يبدو عليك التعب جدًّا.
- هاهاها حسنًا، أنا حاليًّا أظن أنني أستطيع العمل لأنني في كل الأحوال ليست لي علاقة بمحتوى القضايا.
- هذا أمر أساسي. أخبرني أين ذهبت في عطلة الصيف؟

هز كيدو رأسه بالنفي. ثم كان ينوي أن يحافظ على صمته، لكنه باح له بما يلي مما أدهشه هو شخصيًّا:

- إن علاقتي حاليًّا مع زوجتي ليست على ما يرام.

نظر ناكاكيتا باندهاش إلى وجه كيدو وهو يعترف هكذا بهذا الحديث المفاجئ مع أنه عادة لا يميل إلى الحديث عن الأمور الشخصية.

إن نظرنا من البداية إلى فقدان فرصة الحوار اليومي الذي بات السمة الأساسية للعلاقة بين كيدو وزوجته كاوري من دون أن يتنبها لذلك، سنجد أنه لم يكن إلا مشهدًا من «فترة الملل» المألوفة بين الأزواج. تشبه الحالة ماءً صافيًا صُب بهدوء في كوب، إن أسرع أحدهما فشربه كله في شربة واحدة، سوف ينتهي فورًا، ولكن بسبب تركه مدة طويلة يشعر المرء بأنه أصبح ماءً لا يمكن أن يُشرب.

ثم سقطت في ذلك الكوب قطعة من الثلج. أجل، ليست سمًّا ولا غيره، مجرد قطعة ثلج، ذابت وانعدمت في وقت قصير، لكن صمتهما، أصبح أكثر برودة مما كان قبل ذلك بالتأكيد، وتناثرت قطرات ماء بدرجة ما، واهتز سطح الماء، وظلت تلك الذكرى باقية إلى ما لا نهاية.

بدأ الأمر عندما أبدت كاوري شكًّا في رحلة كيدو إلى ميازاكي.

وبسبب التزامه بالحفاظ على سرية وخصوصية معلومات الموكلين، لذا فهو لا يتحدث عن عمله في البيت تقريبًا. ومن ناحيتها لم تبدِ زوجته اهتمامًا، ولذلك في حالة ذهاب أي منهما في رحلة عمل ومبيته خارج البيت لا يستدعي الأمر وقتها إلا أن يقول إنه ذاهب في رحلة عمل فقط.

لكن في حالة الذهاب إلى ميازاكي، شعرت كاوري بغرابة من الرحلة من دون أن يكون لديها أي أساس للشك.

في البداية نفى كيدو وهو يضحك تلك الشكوك الواهمة المجنونة، وبدأ يقلق من أن تكون زوجته واقعة تحت ضغط نفسي مختلف. وعندما قال ذلك، هزت كاوري رأسها بالنفي فقط، ثم مقابل التزامها الصمت اللاذع تجاه زوجها، باتت توجِّه غضبها إلى ابنهما بصرامة، وكان ذلك يفوق قدرته على التحمُّل، فأعرب في النهاية عن غضبه.

لكن لم يكن ذلك انفجارًا مندفعًا بالغضب، ولكن على العكس كان

عبارة عن أنه بسبب ضعفه لم يستطِع التوقف قبل تخطي حدود الاستياء. وبسبب ذلك، لم يكن هناك مفر من أن يعي بنفسه أنه لم يعد كما كان من قبل عندما يواجه زوجته.

كان من الصعب عليه قبول شكوك كاوري في علاقته مع رينه تحديدًا. فحتى لو كانت قد رأتْ محتويات هاتفه، فما من حوار بينهما يمكن أن يُفهم خطأً. ولكن قلقها من رحلة ميازاكي خصوصًا، معناه أنها تتنبأ بحدوث شيء ما، عندما يفكر هكذا، كان كيدو يُعد ذلك سذاجة وغباء بمعانٍ متعددة.

«لو أقمتُ علاقة مع موكلتي فالعقوبة هي إلغاء ترخيص المحاماة». حاول كيدو بكل ما في جهده ألا تتجهم ملامح وجهه، وحرص على أن يتحدث بنبرة وكأنه ممثل كوميدي يحكي قصة هزلية. كانت نيته قول إن ذلك إهانة لمهنته، لكنه لم يقُل ذلك صراحة.

طرأ ذلك الحوار سريعًا على ذهن كيدو، ولكنه فضَّل عدم قوله لناكاكيتا. لكن بديلًا عن ذلك وجَّه الحوار إلى مسار مختلف مع صديقه الذي كان ينتظر بصبر.

- أعتقد أن زوجتي لم تستخدم كلمة «فكر» بجدية ولو مرة واحدة في حياتها، لكنني أشعر بأن مصدر المشكلات الأساسي التي بيننا حاليًّا هو اختلاف الفكر.

عبس وجه ناكاكيتا صانعًا تجاعيد بين حاجبيه، وهو يسأله:

- بمعنى الفكر السياسي؟

- كلَّا، في النهاية سيكون الأمر كذلك، لكن المشكلة قبل ذلك. فهي حتى لم تذهب للتصويت في انتخابات مجلس المستشارين في يوليو الماضي. ولم أكن قادرًا على إقناعها.

- مفهوم.

- إن منطق أنني في الأصل مقيم ولذا أعي قيمة حق الانتخاب، ولذلك

يجب عليك أنت أيضًا الذهاب للتصويت، يُعد بالنسبة إليها، كيف يمكن شرح ذلك؟ منطقًا صحيحًا أكثر من اللازم. منذ إنجاب طفلنا، يبدو أنها لا تريد أن تعي حقيقة أنني من أصل عائلة مقيمة. لكن حتى وإن جذبتها للتصويت عنوة فهي على الأرجح ستضع صوتها للحزب اليميني الحاكم وكأنه الأمر الطبيعي. وهذا ما حدث في المرة السابقة.

- قلت لي ماذا يعمل والدها؟

- طبيب أسنان. وشقيقها الأكبر طبيب باطني.

- أجل، أجل. سمعت منك ذلك.

- أعتذر إليك عن أن العمل التطوعي في أثناء الزلزال انتهى من دون اكتمال، وقتها كانت أوَّل مرة يحدث ذلك العراك الكبير بيني وبينها. كان رأيها أن ترك بيتي وطفلي في عطلة نهاية الأسبوع والذهاب لمساعدة الأمهات والأطفال النازحين نوع من النفاق. فيُفترض أنني مشغول بعائلتي وليس لديَّ متسع لفعل ذلك. لكن عندما أقول لها حسنًا سوف أرعى أنا الطفل، اذهبي أنتِ للعمل التطوعي كانت ترفض. لأنها ليست لديها الرغبة في الذهاب لعمل تطوعي من الأصل. تقول إنها لا يمكنها أن تترك طفلها من القلق.

- أجل، فقد كان ابنكما ما زال صغيرًا.

- حقًّا. لذلك أنا أفهم قلقها فعلًا. فهذه المنطقة أيضًا شهدت انهيارات عديدة للمباني، وبسبب قطع الكهرباء والتوابع، كانت مُرهَقة نفسيًّا بدرجة كبيرة. تقع عمارتنا في المنطقة التي يجب إجلاؤها في حالة حدوث تسونامي طبقًا لخريطة المخاطر التي أعلنتها مدينة يوكوهاما. وعند التفكير في الزلازل المتوقع حدوثها في أي وقت أسفل العاصمة مباشرة أو في بحر الجنوب، أفكر بصراحة هل من المناسب الاستمرار في السكن في تلك الشقة؟ مع أننا اشتريناها وانتهى الأمر.

- حتى نحن الأمر نفسه. من الصعب ربط أفعالنا بمخاطر الزلازل مباشرة.

يمكن على الأقل شراء مستلزمات وقت الطوارئ، لكن إن سألنا هل يمكن نقل السكن من أجل ذلك؟ فمن الصعب الإجابة.

- بالطبع من المؤكد أن لا أحد يعلم متى يقع زلزال. لكن بسبب ذلك لم أستطِع الاستمرار في تطوع الاستشارات القانونية مرة أو مرتين في الشهر.

- كافٍ جدًّا. فطفلك ما زال صغيرًا، وكان التوقيت سيئًا بالنسبة إليك.

- يجب ألا أُسمِّي هذا الفعل في وقت الطوارئ «فكر» زوجتي، في صغري لم يسبق لي التفكير في العلاقة بين مَن أحب وأفكاره. هل كنت أبالغ في إعطاء الحب قيمة أكبر من قيمته الحقيقية، أم كنت أقلل من قيمة الفكر؟

- الحب والفكر؟ ربما الآن على عكس المتوقع ثمة شباب يعي ذلك منذ البداية.

أومأ كيدو موافقًا ثم غرق في بحر الصمت. كان ينوي أن يقول في النهاية فالحقيقة أننا منذ ذلك الحين أمسينا زوجين «بلا جنس» على سبيل السخرية من الذات، ولكن انحشرت تلك الكلمة في حنجرته إلى درجة الألم الذي لم يتوقعه هو نفسه.

شعر بالخجل، وهو يحسد الأزواج الآخرين السعداء، وتخيل أنه سيعيش باقي حياته مع الحرمان من شهوته الجنسية، فشعر بالحزن.

في الحي الصيني افترق عن ناكاكيتا الذي قال إنه سيذهب بعد الظهر أيضًا إلى المحكمة، وعاد كيدو وحيدًا إلى المكتب الذي يقع بالقرب من محطة كاناي سيرًا على قدميه. شعر بانتهاء الصيف الذي يستحث جبهته أن تعرق إلا أنها كانت على غير المتوقع جافة.

رأى في الحديقة العامة الملتصقة بملعب يوكوهاما للبيسبول، أمهات يدفعن عربات أطفالهن، وموظفًا يجلس على أريكة الحديقة يأكل خبزًا.

إن قُرْب المكتب والمحكمة والبيت بعضها من بعض جعله يستطيع تأمل،

بوجهات نظر متنوعة في المعتاد، المباني المحيطة والمطاعم والمشارب، وأشجار الجِنْكو في الطرقات، بوصفه محاميًا وزوجًا وأبًا.

والآن كان يتأمل تلك المناظر بنظرة غامضة لا يمكن معرفتها. ثم وهو يفكر في الحوار الذي انتهى منذ قليل، تذكر اليوم الذي ذهب فيه إلى ميازاكي لأوَّل مرة من أجل مقابلة ريئه.

كان موسم معسكرات فرق البيسبول، أقام كيدو في فندق شيراتون «سي غايا»، حيث وجد فيه غرفة خالية بصعوبة، وكان ذلك أيضًا سببًا من أسباب ارتياب زوجته.

ففي الواقع كانت الغرفة المزدوجة مفرطة الجودة لرحلة عمل سريعة، وكانت النافذة تطل مباشرة على ملاعب الجولف تحتها، ويمكن منها تأمل منظر البحر الممتد مع السماء، فكان من العبث الإقامة وحيدًا في تلك الغرفة ليلة واحدة.

تقلب على السرير فترة من الوقت. يغطي الفرش الأبيض الناصع المرتبة بصلابة وكأنه زي موحد، كما لو كان ينتظر في صمت أن يُنزع بحركات يد عنيفة وطائشة.

خلع نظارته الطبية ونام على ظهره.

استعاد كيدو ذاكرة العديد من الأسقف التي تأملها في الماضي بجسد عارٍ يغرق في العرق وخفقان عنيف مع أنفاس عميقة ممتعة. لمع داخل صدره شيء فاحش. كان الجو هادئًا هدوءًا عميقًا، وكأنه يجب أن يكون بجواره أحد، يشعر كلٌّ منهما بحرارة ودفء عُري الآخر.

مر وقت قصير، ثم تنهَّد تنهيدة خفيفة وأبعد عنه هذه الأوهام التي لا نهاية لها، وذهب إلى المطعم في الطابق الأول ليأكل وجبة الدجاج المقلي التي تشتهر بها المدينة، ثم ركب سيارة أجرة وخرج للشرب في مركز المدينة.

كان الليل باردًا قليلًا، لكنه تمشَّى في المدينة بالسترة والبنطلون الجينز.

كان معتادًا السفر، لكنه بسبب عدم وجود سائحين في المدينة، غرق بعمق في شعور أنه لا أحد.

أي أنه غريب ومجهول تمامًا بالنسبة إلى جميع البشر في هذا المكان. بالطبع، لا يختلف ذلك كثيرًا عندما يكون في وسط مدينة يوكوهاما، لكن على الأقل لم تكن المناظر باردة تعامله معاملة الغريب إلى هذه الدرجة. ثم كانت تلك الحالة التي يفقد فيها اسمه، ولا يتذكره الآخرون، مريحة جدًّا بالنسبة إليه.

أسفل الممر المسقوف بين المحلات التجارية، مر سريعًا أمام عينيه عدد من تلك المحلات التي زارها مرات عديدة في عشرينيات عمره، ثم في النهاية ابتعد عنها من دون أن ينغمس فيها.

كان على وشك أن يقف أمام تلك اللافتات المتلألئة بأنوار الزينة الرخيصة. فجأة – وكأنه حقًّا ليس هو بل شخص آخر – فكر أنه لا يجب عليه اليوم بالذات أن يدخل تلك المحلات. قرأ الشرح المكتوب على اللافتات، وتأمل صور الفتيات بشَعرهن فاتح اللون. ثم جعل تلك الأفكار تنعزل كما هي داخله، وتقدمت قدماه اللتان توقفتا وكأن زخمًا اعتلاهما، فوصل إلى الحانة التي بحث عنها في الإنترنت سابقًا.

كانت حانة أنيقة، حيث يتأمل الجالس على المنضدة الطويلة العالية نباتات زينة مضاءة على الجانب الآخر منها، وكانت زجاجات الويسكي والمشروبات الكحولية المتنوعة جميلة وهي تتلقى الأضواء المتسربة من بين تلك الخضرة الناضرة.

وبسبب الإرهاق كان كيدو ينوي أن يدخل الحانة الساعة الثامنة تقريبًا ويشرب كأسًا أو كأسين ثم يرجع إلى الفندق سريعًا. لكنه على غير المتوقع استمر يشرب بمفرده في تلك الحانة حتى بعد منتصف الليل.

ولم يجلس زبائن إلى المنضدة الطويلة العالية غيره حتى النهاية.

ويجلس الزبائن متناثرين على مقاعد الطاولات، وتتسرب الضوضاء من الغرفة الخاصة في عمق الحانة كلما فُتح بابها. وكان نادل الحانة منشغلًا في حمل الجعة و«المَزَّة» إليها بكثافة، ثم انتبه كيدو عندما رأى عددًا من الزبائن ضخام الجسم يدخلون الغرفة متأخرين، أنهم لاعبو فريق البيسبول المشتركون في المعسكر. لم يكن يهتم بلعبة البيسبول قَطُّ، إلى درجة أنه لا يعرف أيًا من لاعبي فريق بِاي ستارز يوكوهاما، ولذا لم يعرف ناديهم، لكنه أدرك من خلال اهتمام النادل الكبير بهم أنهم لاعبون على درجة كبيرة من الشهرة.

تنساب في الحانة بصوت معتدل موسيقى الجاز الشهيرة التي يعرفها الجميع مثل «كايند أوف بلو» و«بورتريه إن جاز».

طلب كيدو الكأس الأولى كوكتيل غيملت الڤودكا، فتذكر ميسوزو. كان لزمن طويل يحب شرب كوكتيل البالالايكا، لكنه وقتها أراد فجأة أن يشرب ذلك الكوكتيل، وبعدها بات غير قادر على العودة إلى حلاوة الكوانترو التي انغمس فيها من قمة رأسه لأخمصي قدميه في شبابه.

كان النادل رجلًا أسنَّ قليلًا من كيدو، وكان يهز خضَّاضة الكوكتيل بهيئة جميلة، لكن مما اندهش له أنه لم يعصر الليمون بنفسه بل استخدم عصير ليمون يباع في الأسواق، فكان مذاق الكوكتيل أسوأ ما ذاقه على الإطلاق. مما جعل انطباع ميسوزو «كشخص يصنع له خصوصًا كوكتيل غيملت ڤودكا رائعًا» يُطلق داخل كيدو أشعة فاتنة أكثر شدة، مختلطًا مع شعور مريح بالكسل نوعًا ما.

من الكأس الثانية، طلب خمر ڤودكا سخالين سكايا صِرفة من دون إضافات، فكانت مثلجة جيدًا، كانت منعشة ولكنها على عكس المتوقع تمتد آثارها بالعرض، وفكر أنه كان يجب أن يطلب هذا المشروب من البداية. أطلق تنهيدة، ثم بمشاعر مريحة اندهش بشدة لكونه الآن في ميازاكي وحيدًا.

هدأت حركة المشروبات التي تُحمل إلى الغرفة الداخلية لفترة، فتحدث إليه النادل الذي وجد أخيرًا متسعًا من الوقت لذلك.

- هل أتيت من خارج محافظة ميازاكي؟
- أجل. هل تدرك ذلك؟
- هذا واضح. هل أنت من طوكيو؟

بعد أن أومأ كيدو، أفرغ الكأس التي في يده ثم تأمل بعض الوقت آثار بضع قطرات بقيت في القاع على الأرجح لا تصل إلى لسانه حتى وإن أمال الكأس. ثم أتبع كلامه كما يلي وهو بمشاعر لا تعي أنه ثمل بدرجة كبيرة:

- أنا في الأصل من مواليد محافظة غونما. الابن الثاني لعائلة تدير نُزلًا في ينابيع إيكاهو الساخنة.
- حقًّا! هل أنت كذلك؟ أعرف أنها منطقة شهيرة للينابيع الساخنة. ومع ذلك لم يسبق لي زيارتها.
- أجل. إن كيوشو بها العديد من مناطق الينابيع الساخنة الجيدة، فما من ضرورة للذهاب إلى هناك. إن شقيقي الأكبر هو الذي ورث النُّزل ولأنني الابن الثاني، تركت بيت العائلة. أضف إلى ذلك أن علاقتي بأسرتي كانت سيئة.

أظهر كيدو ابتسامة خفيفة تجاه النادل الذي بدا مرتبكًا لبوحه بأسراره العائلية هكذا فجأة.

تُرى هل وصل «X» إلى هذه المدينة هكذا واستقر فيها على أنه «دايسكيه تانيغوتشي»، وأخذ يحكي ماضي دايسكيه على أنه ماضيه الشخصي؟ وهو يتعرَّف ويتأكد من مشاعر تلبسه لتلك الحياة الجديدة ومشاعر انتحاله لها؟

سمع النادل وهو يجفف الكؤوس حديث كيدو بعينين تمتلئان بالتعاطف الحنون.

- أنا أيضًا كذلك. في العادة لا أتحدث بذلك إلى زبون يأتي لأوَّل مرة.

إن عائلتي تعمل في البناء. وكما هو المتوقع ورث أخي الأكبر المهنة والشركة.

قال ذلك، وقدَّم له بطاقة اسمه التي توضح أنه يدير الحانة بوصفه موظفًا وليس مالكًا لها.

قال كيدو وهو يتناول البطاقة:

- آسف لقد انتهت في الوقت الحالي بطاقاتي، اسمي تانيغوتشي، دايسكيه تانيغوتشي.

وبالطبع لم يشك النادل فيما قال.

بمجرد هذا الحوار فقط، شعر كيدو بأن زهور علاقة خاصة بينه وبين هذا النادل الذي يقابله لأوَّل مرة، بدأت تتفتح بالفعل.

لم يَعد مجهولًا تمامًا في هذه المدينة. فربما إن مشى في مكان ما التقى مصادفة هذا النادل، وعندها يُفترض أن يحيي كلاهما الآخر بإيماءة وكأنه يقول له: «أهلًا».

طلب كيدو كأسًا ثانية من سخالين سكايا، واستمر يحكي عن ماضيه على أنه دايسكيه تانيغوتشي. مثلما حكاه «X» إلى رِيَه في أحد الأيام، إنه في نهاية الأمر وبعد أن قبِل أن يكون متبرعًا بكبده إلى والده، تسبب ذلك في أن تصبح العلاقة مع أسرته غير قابلة للإصلاح إلى الأبد، وهو يخلط ذلك بابتسامة حزينة، حكى ذلك بهدوء على أنه شيء من الماضي. وتقريبًا لم يكن يحمل أي وعي قَطُّ بأنه يُمثِّل، بل على العكس كلما استمر في الحكي، شعر بأن الكلمات تلتحم معه شخصيًّا في كيان واحد.

كان النادل على درجة عالية من الفطنة وحسن الفهم فقال:

- إنه أمر لا يُحتمل!

من دون مبالغة في القول، وافقه بنبرة حميمية. كانت ليلة يمكنه فيها أن ينهار بالبكاء وهو سكران.

وقف كيدو ينتظر إشارة المرور الحمراء أمام مبنى مكتبه بالقرب من محطة كاناي، يتأمل السيارات التي تمر أمام عينيه. وفجأة خطر على باله؛ ماذا لو صدمته سيارة مسرعة فمات من فوره على أنه دايسكيه تانيغوتشي؟ في تلك اللحظة التي كانت شجرة الأرز على وشك الوقوع لتسلب منه حياته في عمق جبل لا يتردد عليه أحد، تُرى ما الذي فكَّر فيه «X»؟

بعد أن عاد كيدو إلى يوكوهاما لم يستطِع نسيان تلك السعادة التي لا يمكن وصفها التي أحسَّ بها في السويعات التي انتحل فيها شخصية دايسكيه تانيغوتشي. لقد شعر بتوتر وهياج وخدر. ومن المعروف عند الناس أن تعريف تلك المشاعر في العادة أنها بتأثير المأساة، لكن ليس من خلال مشاهدة فيلم أو قراءة كتاب، بل بتشرُّب حياة إنسان آخر من خلال صوته الطبيعي، وتجربة ذلك من الداخل، ربما فعلًا يمكن أن يكون نوعًا من أنواع الهوايات. لكنها لعبة، ذات مذاق لاذع مفعم بالعار.

كيدو الذي ذهب مؤخرًا مرة ثانية إلى ميازاكي كان يشتاق إلى متعة عيش تَتِمَّة حياة «X» وهو ينتحل شخصية دايسكيه تانيغوتشي - حياته التي تركها سرًّا - في المطاعم والحانات في الليلة الأولى.

لكنه في النهاية لم يذهب إلى تلك الحانة مرة ثانية.

قابل ريئه في النهار، وعندما لامس معاناتها حول شخصية «X» الحقيقية، شعر بالندم والخسة من ذهابه إلى الحانات يسكر ويشرب وهو يخدع الناس باسم «دايسكيه تانيغوتشي» مقلدًا «X» على سبيل اللهو.

ومن المؤكد أنه لو ذهب إلى تلك الحانة مرة ثانية في الواقع فلن ينال المتعة التي حصل عليها في المرة الأولى.

وعلاوة على ذلك فلم يبقَ عنده مزيد ليحكيه على أنه دايسكيه تانيغوتشي.

لظروف لا يعرف كيدو عنها شيئًا، قرر «X» أن يبدأ حياة جديدة لشخص آخر

مختلف عنه تمامًا، ويعيش مرتين في حياته التي لا يملك منها إلا واحدة فقط بعد أن تخلى عن نصف عمره الأول.

كان كيدو مهما حاول لا يستطيع فهم نقطتين بشأن «X».

كان يحس بمشاعر حسد غامضة تجاهه. ولكن مهما كان ملله من حياته الحالية فهو لا يستطيع التخلي عنها تخليًا كاملًا مطلقًا. عندما بات في فندق شيراتون واستخدم الينبوع الساخن في الهواء الطلق، فكر أكثر من مرة إلى أي مدى سيفرح ابنه سوتا لو كان معه هنا.

تُرى ألم تكن لدى «X» مثل تلك السعادة في حياته السابقة التي تستحق أن تستمر؟ تمامًا مثلما قطع دايسكيه تانيغوتشي بنفسه علاقته بالكامل مع ماضيه الذي لا يمكن أن ينفصل عن أسرته في لحظة ما من عمره؟

بدلًا من الاستمرار في الكراهية، يأخذ قرارًا بكراهية أكثر شمولًا، ويقطع علاقته بهم تمامًا. ثم أخذ «X» ماضي دايسكيه هذا من خلال السير فوقه، تُرى هل نال نوعًا من المواساة؟

نقطة أخرى، كان كيدو لا يفهم استمرار «X» في خداع ريئه. والسبب أن كيدو يعتقد أن الحب بين «X» وريئه حب رائع وجميل، حب خالص لم يستطِع هو شخصيًا أن يجربه.

تُرى هل كان ينوي أن يبوح لها بالحقيقة إن لم يأتِ ذلك الموت المفاجئ؟ لكن، في الأصل ألم يكن قد نجح في تحريك قلب تلك المرأة من خلال مشاعر التعاطف مع ماضيه الكاذب؟ حتى ولو كان كل شيء آخر كاذبًا، فتناولهما معًا وجبة الغداء في مطعم سمك الثعابين المشوي ذلك، فقط اللحظة التي تكلم فيها، ألم يجب أن يكون صادقًا صدقًا مطلقًا؟

تُرى هل ذلك الكذب يمكن غفرانه من خلال الحب الحقيقي الذي تولَّد في النهاية؟! الحب الحقيقي؟!

٨

في منتصف شهر سبتمبر، في اليوم التالي لعطلة عيد المسنين، سافر كيدو إلى أوساكا وعاد في اليوم نفسه للمشاركة في عزاء محامٍ من دفعته نفسها كان على علاقة جيدة به عندما كان محاميًا تحت التمرين في كيوتو، مات المحامي فجأة بسكتة قلبية بسبب مرض نقص التروية.

وفي طريق العودة ركب بمفرده آخر قطار نوزومي سريع متوجهًا إلى طوكيو، وتأمل شاردًا المنظر الليلي من نافذة القطار. كانت العربة من الداخل وقد أنيرت بوضوح بلمبات النيون، بشعة إلى حدٍّ ما بسبب شدة إرهاقه. نام كثيرٌ من الركاب على مقاعدهم، لكن كانت هناك عدة مجموعات متفرقة من الركاب السكارى الذين لا تتوقف حواراتهم.

تعكر هواء العربة إلى درجة جعلته يشمئز منه بسبب اختلاطه مع رائحة عرق عمل اليوم والجعة ومَزَّة السبيط المجفف وغيره. وعلاوة على ذلك كانت ملابسه تحتوي على رائحة حرق بخور العزاء.

بهذا العمر يتلقى كيدو كثيرًا أخبارًا حزينة بموت أقارب أو أصدقاء أو معارف، لكن يتألم الجسم بشدة من جنازة إنسان في ريعان شبابه لم يكتفِ من الحياة بعد، بخلاف جنازة عجوز مات في سلام. ظلت زوجة الفقيد وطفلتاه الصغيرتان في بكاء مستمر، ولم يقدر كيدو على مواساتهن بكلمات مناسبة. بالتأكيد كان يميل إلى البدانة قليلًا، وكان في كل مرة يحكي ضاحكًا عن قراره إنقاص وزنه وهو يمسح بيدٍ على بطنه الممتلئ، لم يكن أحد يأخذ

كلامه على محمل الجد. غادر مقر العزاء، فكادت حقيقة وواقعية موته ترتد على أعقابها مترنحة إلى ضبابية اللحظة نفسها التي سمع فيها الخبر لأوَّل مرة مباشرة.

فكر كيدو فيما لو مات هو نفسه الآن، وتخيل وجه ابنه المندهش عندما تخبره أمه بهذه الحقيقة. على الأرجح سيعيد سؤالها: «هل مات أبي؟» وهو لا يدرك معنى هذا السؤال. ولن يستطيع كيدو نفسه أن يجيبه: «أجل هذا هو ما حدث» مثلما يشرح له دائمًا الأمور الصعبة ليبسِّطها له.

ثم شعر بألم، إنه لا يستطيع ولا يريد أن يموت الآن! ثم تذكر فجأة المشاعر المجهولة التي تملأ قلبه على الدوام منذ كارثة الزلزال وتتلخص في «قلق الوجود».

بالطبع كيدو أيضًا يخاف الموت. ينقطع الوعي في لحظة الموت - من دون ذرة تأخير! - ثم لا يشعر بشيء مرة ثانية، ولا يستطيع التفكير في شيء، ويستمر الزمن عند مَن بقي على قيد الحياة من دون توقف، من دون أن يكون له به أي علاقة. ثم طاردت الأفكار وعيه. إنه اليوم يعيش ويحافظ على هذا العالم. لكن، الخمسة عشر ألفًا أو يزيدون الذين ماتوا في كارثة التسونامي منذ عامين، لا يعرفون ما الذي يحدث الآن ولا يملكون وجودًا في هذا العالم لكي يتدخلوا فيه ولا بأي قدر من الفعل. ليس هذا العالم فقط، بل على الأرجح والعالم الآخر أيضًا ولا أي عالم.

إن الرعب من ذلك الموت، يجعل مشاعره حساسة تجاه الحياة.

لكن فات أوان هذه الأفكار إلى درجة يمكن أن نقول معها إنه قد نسيها تقريبًا. والسبب أن كيدو كان يفكر كثيرًا في ذاته وهويته وهو يربطها بالوظيفة التي سيعمل بها مستقبلًا.

لقد اتبع نصيحة والده في النهاية، وبات محاميًا. ثم حاول أن يؤمن بأنه يجب عليه من خلال مهنة المحاماة تحقيق ذاته. وهو يتأمل مستقبله في غموض متسائلًا: «هل هذا الاختيار صائب؟» من أجل أن يستطيع العيش،

يجب أن يسأل نفسه بوضوح «مَن يكون؟»، ومن أجل ذلك هناك أمل، وكذلك هناك قلق.

لكن من حسن الحظ كانت عادته خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة، أن ينظر إلى مثل ذلك التفكير على أنه من الماضي الذي تغلب عليه بالفعل. وسبب قوله من حسن الحظ، أن كثيرًا من أبناء جيله يعانون للحصول على وظيفة، ولا يستطيعون تطبيق هرم ماسلو من خلال الوظيفة، ليحققوا ذواتهم في إطار هوية اجتماعية ودخل كافٍ، ولذا فهم مضطرون إلى العيش حتى الآن في قلق وعدم استقرار، بل إنه يقابل مثلهم يوميًّا من خلال عمله في المحاماة.

لكن، صدمة الزلزال جعلته يسقط مرة أخرى في ذلك القلق بسبب التساؤل الذي يُفترض أنه وجد الإجابة عنه، أي سؤال الهوية والذات.

ولم يكن مجرد تكرار للسؤال البسيط نفسه في الماضي، بل عُدِّل السؤال بما يناسب عمره، باختلاف ضئيل جدًّا في الكلمات. بمعنى أن السؤال بات: «هل كان هذا الاختيار صائبًا؟».

عاش كيدو نتيجة لماضيه حياة متعددة الوجوه ومتنوعة كإنسان طبيعي في منتصف العمر، مع التسليم بأنه ظلَّ «أكيرا كيدو» دائمًا. حياته التي كانت في الماضي هي المستقبل، أضحت هي الماضي الذي حدث بالفعل بدرجة كبيرة جدًّا، ووضحت طبيعته الإنسانية وضوحًا كبيرًا.

بالطبع يُفترض أن للحياة طرقًا مختلفة. بمعنى أن هناك احتمالات لا حصر لها للإجابة عن سؤال «هل كان هذا الاختيار صائبًا؟»، وهو الآن يلح عليه إعادة السؤال: ليس مَن يكون؟ بل على العكس مَن كان؟ وكان وعيه يهتم بسؤال: كيف سيموت؟ أكثر من سؤال كيف سيعيش؟

وفي النهاية سوف يعيش ابنه سوتا في عالم لا يكون والده موجودًا فيه. وفكر مثلًا: لو أصبح سوتا في مثل عمره هو الآن، وحسب بعد ثلاث وثلاثين سنة من الآن، سيكون كيدو وقتها في الحادي والسبعين من العمر. بالطبع

يُفضل أن يكون وقتها على قيد الحياة، لكن لو كان ميتًا، تُرى ما الذكريات التي سوف يتذكرها سوتا عنه في سن الثامنة والثلاثين؟ تُرى ما الصورة التي سوف يتركها كإنسان في قلب ابنه؟

لكن لا يقتصر الأمر على كبر السن فقط. ربما في اللحظة التالية يقع زلزال بحر الجنوب، فتخرج عجلات القطار السريع عن القضبان، ويموت فجأة. بعد زلزال شرق اليابان، سمع مرات كثيرة ، كثرة تؤلم الآذان، أن نسبة هذه المخاطر ليست منخفضة.

وسط هذا الاضطراب الفكري، عاني قلقًا آخر هو استعادته لذاكرة مذابح الكوريين في أثناء زلزال كانتو، بالإضافة إلى ازدياد اليمين المتطرف الداعي إلى طرد الأجانب مؤخرًا.

إن القانون الذي يجتهد كيدو شخصيًا للحفاظ عليه، هو ما يجعل حياته اليومية واقعًا. يكفل القانون له ولأسرته حقوق الإنسان الأساسية، وهم هنا لأنهم أصحاب حق. لكن، ماذا لو وقع زمان ومكان مدمران بشكل استثنائي، فيكون كل ذلك بلا فاعلية أو تأثير؟ فلن يهتم المحرضون الذين يصرخون بوقاحة في قارعة الطريق وفي وضح النهار «اقتلوا الكوريين!» بمعنى تساؤلاته شديدة التعقيد والحساسية التي فكَّر فيها حتى الآن حول حياته. كلَّا، بل أليس الواقع أنه لا ضرورة لأن يكون هذا الأمر استثنائيًّا؟ يُفترض أن قتل «الكوريين» أمر قابل للتنفيذ في أي وقت من تلك الحياة اليومية العادية جدًّا، إذا استثار صوتُ المظاهرات أحدَهم وفكَّر فيه فجأة.

في اللحظة التي فكر فيها كيدو في ذلك بكلمات واضحة لا لبس فيها، شعر بحالة تشبه دوار فقر الدم. باتت لمبات النيون في السقف مهتزة مثل الضوضاء، وضبابية باللونين الأحمر والأسود، وشعر باختناق كأن الجو حوله يضغط على جسمه بقوة عارمة. أغمض عينيه، ونظر إلى أسفل، وانتظر

حتى تهدأ هذه الحالة. خلع نظارته وفرك وجهه بقوة حتى تألمت يداه، وشد عضلات ساقيه جاعلًا قدمه اليسرى تمسِّد اليمنى.

وعندما فتح عينيه وجد أن المرأة التي تعبث بيدها في هاتفها الجوال بجواره، سحبت جسدها بعيدًا عنه، وأخذت تختلس النظر إلى ما يفعل. لكنه لم يكن لديه مجال لكي يلتفت إليها، ولم يكن يقدر إلا أن يتحمل بعض الوقت حتى تهدأ الحالة وهو يضغط على وجهه ويدعك بقبضتَي يديه على عينيه المغمضتين.

أصابه الارتباك والحيرة لردة فعل جسمه، وشك أن تكون نوبة لأزمة صحية من نوع ما.

وعندما هدأ الدوار قليلًا، فك رابطة العنق قليلًا وكأنه يخلعها بعنف ثم أمال مسند الظهر إلى الخلف أكثر. وأخذ يواصل التنفس بعمق وهو مغمض العينين، فشعر أخيرًا بتراجع حالة الدوار.

تذكر الجملة التي قالتها رينه: «أنت إنسان جيد يا أستاذ كيدو، حقًّا» ثم أخذ يرددها مرات متتالية وكأنه يتناول دواءً فعّالًا.

تُرى هل تشهد رينه بهذه الشهادة لصالحه عندما تُلقى عليه تهمة التجسس، أو عندما يكون ممَّن يتقرر ضرورة قتلهم، أو عندما تُلقى عليه أوامر مهينة مثل: «انطق كلمة خمسة عشر ينًّا وخمسين سنتًا نطقًا صحيحًا!»؟ تُرى ماذا ستعني مثل هذه الكلمة بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينوون قتله؟ أليس على العكس سيوجهون مشاعر العداء تجاهها هي أيضًا؟

فكر كيدو في علاقته مع زوجته بعد أحداث زلزال شرق اليابان، والتجاعيد التي نشأت بين حاجبيه ما زالت كما هي.

لم يتضرر أحد من معارفه بسبب التسونامي. لكنه تلقى صدمة هائلة من صور الأخبار التي فاقت خياله، ولم يهدأ له بال وفكر في وجوب عمل شيء.

وقرر الاشتراك في النشاطات التطوعية لتقديم دعم قانوني للمتضررين، بعد تواصله مع شريكه في المكتب المحامي ناكاكيتا.

وتعامل كيدو مع حالات «النازحين من بيوتهم بإرادتهم»، وبصفة خاصة كان يتولى إعطاء استشارات قانونية لمن يرغبون في تغيير مساكن الإيواء العامة والخاصة «المؤقتة» التي قُدمت لهم مجانًا، بعد أن انطبق عليهم قانون دعم وإنقاذ المتضررين من الكارثة. وكان سبب رغبتهم في تغيير السكن أنهم اختاروه وسط فوضى ما بعد الكارثة مباشرةً، ثم وجد عدد غير قليل منهم تلك البيوت قديمة أو بها عيوب أو تحيط بها ضوضاء مزعجة من كل جانب، وكذلك حدثت مشاغبات وحالات تنمُّر تجاه النازحين، وفي هذه الحالة عندما ينتقل النازح من بيته من دون تحقيق شروط الانتقال التي ينص عليها القانون مثل «ظروف خاصة بمالك البيت»، أو «الخطورة الشديدة»، يضطر في هذه الحالة إلى أن يتحمل الإيجار بعد النقل.

من بين هؤلاء النازحين الذين أصبحوا في حالة عزلة، كان كثيرًا ما يتولى تقديم المشورة إلى أمهات نزحن مع أطفالهن وتركن الأزواج في بيوتهن الأصلية بناءً على اختلاف الرأي حول تأثيرات انفجار المفاعل النووي أو لضرورة العمل. كان الجميع يحلم بالعيش معًا مرة أخرى بأن يأتي الزوج إلى مكان الإيواء أو أن تعود الزوجة والأولاد إلى بيتهم، لكنه قابل حالات كثيرة تسبب فيها ذلك الوضع في الوصول إلى الطلاق. وكانت مآسي شديدة.

لم تتفهم كاوري هذا النشاط التطوعي الذي يفعله زوجها.

عرف كيدو مجددًا أن كاوري تضع بصرامة حدًّا فاصلًا في الحنان والحب بين العائلة وغيرها أو بين الأصدقاء والغرباء.

إنها أُمٌّ تراعي طفلها بحنان ومحبة. وكانت تحفظ أسماء أصدقاء سوتا في روضة الأطفال أكثر بكثير من كيدو، ولديها علاقة حميمية مع بعض

الأمهات تتناول معهن الشاي والوجبات أحيانًا. لكنها في الوقت نفسه كانت لا تهتم مطلقًا وربما ذلك هو الطبيعي بوجود أطفال يتضورون جوعًا في مكان ما تحت سماء لا تعرفها. إن كيدو يتبرع باستمرار لمؤسسة أطباء بلا حدود ولمؤسسة اليونيسيف، وكانت كاوري في السابق تتأمل ضاحكة هذا السلوك الذي يمكن تسميته «الحنان الاجتماعي» وهي تقول: «سلوك جدير بمهنة المحاماة»، لكن مؤخرًا بات كلاهما يشعر بالاستياء من هذا الاختلاف في طريقة التفكير، وباتا لا يتطرقان إليه في أحاديثهما.

كان كيدو يتفهم طريقة تفكير زوجته.

في هذا العالم يموت كل لحظة كثيرٌ من البشر. حتى هذه اللحظة يموت فيها أحد ما. وإن قلنا يجب التألم لكل حالة موت، فهو نفسه لم يكن يملك رهافة حسٍّ بذلك الإفراط.

إنه يخاف أن يموت. ويحزن لموت معارفه. وربما كان موت مَن يكرهه خبرًا سارًّا. لكنه في الحقيقة لا يشعر بأي مشاعر تجاه موت شخص غريب لا يعرفه. لكن مع ذلك، عندما يتخيل أنه هو أو أن شخصًا يعرفه تعرض للموت، يشعر بالخوف أو الحزن.

ربما ثمة شخص ينفجع لموت شخص مع أولاده في حادث مروري يقرأ عنه خبرًا في الجرائد وكأنه حدث له أو لعائلته، لكن على النقيض من ذلك إذا كان حزنك على موت عائلتك بدرجة حزنك نفسها على موت الغرباء، فهو بالطبع أمر غريب. والحقيقة أنه استطاع الاستمرار في عمله محاميًا بسبب هذا الفارق.

يُفترض أنه هو وزوجته يتبادلان منطقيًّا الشعور بالذنب وبلادة الحس بالدرجة نفسها. فحتى هي لم تكن باردة المشاعر بدرجة منحرفة عن الوضع الطبيعي للبشر، ووقت زلزال شرق اليابان، عندما حثها على التبرع، كانت قد تبرعت بالفعل من تلقاء نفسها بثلاثين ألف ين لهيئة الصليب الأحمر اليابانية.

وهكذا ظلت كاوري وهي لا تشعر في قلبها بالحنان غير مدركة سبب استمرار زوجها في أن يبذل جهدًا بلا نهاية في محاولة أن يفعل معروفًا لآخرين ليست لهم به أي علاقة. هل السبب اهتمامه بمظهره النابع من مهنته، أم بسبب ندمه الساذج تجاه انعدام مشاعره؟ إنها تفكر أن مَن تغيَّر ليس هي على الإطلاق بل زوجها الذي تغيَّر، وفي الواقع، إن استعدنا ذاكرة بداية تعارفهما، فليس أمامنا إلا الاعتراف بذلك.

لو أن كيدو لديه مخزون لا ينضب من الوقت والمال وثمة اثنان أو ثلاثة منه كإنسان، يُفترض أن كاوري كانت ستدعه وحاله يقوم بأعمال الشفقة تجاه الغرباء الذين لا تربطهم به أي علاقة تبدو بلا سبب مع تواصل شكها فيه. لكنه في الواقع، لكي يفعل ذلك، يأخذ من الوقت والمال المفروض أن يعطيهما ليس لها فقط ولكن لسوتا أيضًا. عندما وقع زلزال شرق اليابان كان سوتا في السنة الثانية ونصف السنة من عمره. وكانت توابع الزلزال ما زالت مستمرة، ولا أحد يعرف متى يأتي الزلزال التالي. فهي لم تعتقد أن تركه زوجته وطفله، وذهابه لكي يرعى زوجات وأطفال غرباء نزحوا بإرادتهم الشخصية، عمل عظيم ولم يقُل أحد من أصدقائها ذلك في مثل ذلك الوقت.

كان كيدو يرى أن زوجته هذه شخصية مستقيمة لا تخدع أحدًا. وعلاوة على ذلك كانت في منتهى الذكاء.

وكانت كاوري متفهمة لكل الكلمات التي يشرح بها زوجها من «حق المجتمع» و«الحق العام»، إلى آخره. وكذلك تفهم أن الأعمال الخيرية تدور وتلف وتكون من أجلهم. لكن كانت تشعر في سلوك كيدو الخيري، بأحد أنواع الإفراط العدمي، إلى درجة أنها تعتقد أن ذلك بات يشبه بالفعل هوايته الخاصة.

أما بالنسبة إليها هي، فمع مرور السنين أصبحت الأشياء التي تجذبها بقوة تقل تدريجيًا، والآن ليس لديها أي اهتمام بما هو خارج أسرتها. وحتى لو حثها كيدو مراعاةً لحالتها أن تذهب إلى الخارج للتسرية عن نفسها وأنه

سوف يرعى الطفل في أثناء غيابها، فهي لا تفعل إلا أن تذهب لتناول الطعام مع صديقاتها من أيام الجامعة ويتحدثن عن أمور تربية الأطفال، أما صديقاتها العزباوات اللائي لا يستطعن التماهي مع هذا الحديث ففي غفلة من الزمن تباعدت العلاقة بينها وبينهن تمامًا.

وكان من الواضح جدًّا أن زوجته وصلت إلى تلك الحالة بعد الولادة مباشرة، ثم ازداد هذا الميل حدة مع وقوع زلزال شرق اليابان. وكانت توجِّه السؤال التالي إلى زوجها كيدو: «لماذا يجب عليك فعل ذلك؟ هل العمل والأسرة لا يكفيان بالنسبة إليك؟».

سمع كيدو الإذاعة الداخلية تعلن المرورَ بمحطة أوداوارا حسب الزمن المحدد لذلك، ففتح كيدو عينيه، وعَدَل ظهره وفي غفلة من الزمن اختفت المرأة التي كانت تجلس بجواره، ولذا ربما كان قد أخذ غفوة قصيرة.

عندما وضع ساقًا فوق ساق بعينين شاردتين، تذكر مرة أخرى جملة: «أنت إنسان جيد يا أستاذ كيدو، حقًّا».

تُرى هل كان يحاول أن يبذل جهدًا ليكون لطيفًا من أجل أن تقال له مثل هذه الجملة؟ أن تكون دليلًا على أنه ياباني عادي لا يضر وليس محل شبهة مطلقًا؟ لكن عندما وصل تفكيره إلى هذا الحد هز رأسه بالنفي وهو يفكر: يا له من غباء! ثم ضغط على عينيه مرة ثانية بقوة، وهمس داخل قلبه: ما من افتراض لهذا!

الحقيقة أنه شعر فعلًا بعدم ارتياح من هياج وإثارة النزعة القومية بعد الزلزال، لكن لم يكن ذلك بالضرورة بسبب أنه مقيم، والدليل على ذلك، أن زملاءه في المكتب كانوا على أفكاره ومشاعره نفسها. لو اقتصر الأمر على اليمين المتطرف فقط لهان الأمر، لكن وصل الأمر إلى دور النشر التي يُفترض أنه يكِنُّ لها حبًّا واحترامًا لأنه منذ مراهقته وهو يحب قراءة الكتب، ولكنه عندما ينظر إليها يجدها تواصل إصدار كتبٍ تدعو إلى كراهية الصين

وكوريا وتملأ بها رفوف مكتبات بيع الكتب، يرى أن عدم تعكُّر المزاج من هذا الأمر، بلادة حس.

الحقيقة أن اهتمامه بالمجتمع، وكما اشمأزت كاوري، يشكّل حبًّا للتمايز المفضوح مثل حب الطالب محب الدراسة للتفوق، ولكنه يملك كذلك طيبة قلب فطرية لا تجعلنا نجزم أن ذلك فقط هو السبب. ولا طائل من وراء التفكير في إلى أي مدى هذا الاهتمام جاد، وإلى أي مدى هو نفاق.

من المؤكد أنه يشعر بقلق وجودي. لكن مع ذلك لا شك أن السبب الأكبر هو أن مستقبل هذه الدولة مظلم تمامًا. إنه مجرد قلق مواطن عادي من الطبقة المتوسطة في هذا العصر الذي يوشك فيه حتى المحامي ألا يجد ما يأكله.

وأعاد كيدو التفكير في أنه يجب عليه أن يتحاور أكثر مع زوجته. فمن المؤكد أنها هي أيضًا ما زالت تشعر باضطراب ما بعد الكارثة بسبب الزلزال. وعلى الرغم من تفكيره في أنه يريد أن يُحسِّن من وضع أسرته، فإنه في النهاية مد يده إلى فكرة ظل يواصل التظاهر بعدم رؤيتها لأنها تزعجه.

أي أن الوضع بسيط، وأنه منتهٍ بالفعل. بمعنى أن زوجته لم تَعُد تحبه، ربما.

إزاء ذلك، ما الجهد الذي يمكنه فعله؟

إن الانهيار يتواصل على قدم وساق بالفعل. وثمة برهان كافٍ لكي يفكر مثل هذا التفكير. وهو أن حالتهما التي وصلا إليها تلك، تشبه كثيرًا - بشكل لا يمكن تفريق بعضها عن بعض - حالات الأزواج الذين يأتونه للاستشارة كل يوم تقريبًا، وتؤول الحالة إلى الطلاق.

٩

مع بداية شهر أكتوبر، وَرَد إلى كيدو اتصال غير متوقع من ميسوزو.

أخبرته أنها تنوي الذهاب لمشاهدة معرض «رؤية جديدة للقرن الحادي والعشرين» المقام في متحف يوكوهاما للفنون الجميلة بمنطقة ميناتو ميراي، وتعرض عليه الذهاب معها إن كان لديه الوقت. وكان كيدو يريد أن يتشاور معها في أمر البحث عن دايسكيه تانيغوتشي لذا قرر أن يعدِّل مواعيد عمله والذهاب معها ثم يتناولان وجبة الغداء بعد زيارة المتحف.

كان يعرف أخبارها مؤخرًا لأنه يرى حسابها على الفيسبوك المرتبط بحساب الإنستجرام.

لم تكن تنشر صورًا بكثافة عالية، لكنها كانت بارعة في التقاط صور حياتها اليومية العادية مثل صورة كعكة إسفنج لذيذة تناولتها، أو صورة مانيكان يرتدي ملابس الخريف والشتاء في نوافذ العرض بالمحلات، وكانت تعليقاتها التي تكتبها مع الصور تنم عن شخصيتها الصريحة. وعلى ما يبدو أنها كثيرًا ما تذهب بمفردها لمشاهدة الأفلام السينمائية في دور العرض، وكثيرًا ما تذهب إلى المتاحف الفنية، لكنها نادرًا ما تصوِّر نفسها بنفسها، وأحيانًا يضعها أحد أصدقائها في وسم لصورة تظهر فيها على صفحته، هذه هي درجة نشاطها على وسائل التواصل الاجتماعي.

لم يتغير انطباعه عندما رآها في النهار: «المرأة التي تصنع كوكتيل غيملت ڤودكا لذيذًا».

في خانة التعليقات كانت تتبادل حوارات في استرخاء مع الأصدقاء ومع زملاء العمل. وثمة رجل يبدو أنه من المعجبين يمدح «جمالها» الباهر في كل ما تضعه من صور.

ويظهر مالك حانة «صَني» كثيرًا، وثمة عدد من الصور له وهو محاط بعدد من «السكارى» ويضحك معهم.

كان كيدو قد أنشأ حساب الفيسبوك تقريبًا لكي يتواصل معها خصوصًا، ولم يكن ينشر فيه بحماس، بل مجرد أن يعيد نشر موضوعات «الأصدقاء»، ثم نشر عددًا من صور رحلة ميازاكي فقط. ولم يخبر أصدقاءه عن الحساب، فكان حسابه شبه منعزل، ولكن كانت ميسوزو بالضرورة تضغط على «الإعجاب» لكل موضوع جديد ينشره على حسابه. كان يظن أن تلك هي آداب التعامل في عالم الفيسبوك، لكن لم يكن باقي «الأصدقاء» يفعلون ذلك بالضرورة، وكانت ميسوزو نفسها لا تضغط على زر «الإعجاب» لكل موضوع للجميع. وردًّا على ذلك، كان كيدو وهو يضغط على إعجاب لموضوعات ميسوزو يشعر بأن صدره يرقص لهذا الحوار الصامت البسيط الذي لا يعرف علام يدل.

لكن في أثناء هذين الشهرين زادت قليلًا كثافة العلاقة بينهما على الفيسبوك. والسبب أن ميسوزو أنشأت من نفسها حسابًا على الفيسبوك منتحلة شخصية دايسكيه تانيغوتشي من أجل البحث عنه وبدأت تنشر موضوعات باسمه. ومن المفترض أن دايسكيه سيحاول الاتصال بها عندما يرى الحساب، لكن لم يُبدِ كيدو اهتمامًا بهذه الطريقة. كان كيوئتشي تانيغوتشي هو صاحب ذلك الاقتراح وليست ميسوزو. فقد كان في حالة غضب واستياء تجاه الشرطة لتخليها تمامًا عن دورها في البحث عن شقيقه. بمعنى أنه يمكننا القول إنه وصل إلى درجة الغضب والاستياء، لأنه اطمأن مؤقتًا من عدم وجود احتمالية تحوُّل الأمر إلى قضية جنائية. إن اختفاء إنسان قضية في منتهى

الأهمية للأسرة والأقارب، لكنه بالنسبة إلى الشرطة «أمر كثير الحدوث».
ثم لم يعد هناك قلق من أن يحيط بالأمر ضوضاء كبرى، وعندما أبلغه كيدو أن شقيقه قانونيًّا ما زال على قيد الحياة وأن زواجه من ريئه قد أُلغي، أصبح يفكر أن الباقي أمر عائلي محض يجب أن يجري التعامل معه بسرية داخل نطاق الأسرة. أما غضبه من الشرطة فيرجع بالأساس إلى أن الضابط الذي تولى التحقيق كان يعامله بعجرفة وتكبر.

يشك كيوتشي أن شقيقه قد قُتل. ويبدو أنه بحث في الإنترنت ووجد مصطلح «هاينوري» وانتحال جواسيس كوريا الشمالية لشخصية فرد بعد سرقة هويته، ورددها على لسانه أمام كيدو مما جعله يضجر منه. وعندما أظهر كيدو وجهة نظر منافية، لم يتمسك بتلك الفكرة طويلًا. لكنه يخمِّن أن شقيقه قُتل في إطار سوداوي مريب، ولا يرى في أي حال أنه يمكن أن يكون ضحية بريئة يتعاطف معه المجتمع. فهو شقيقه الذي يعرف شخصيته جيدًا. وعندما يبدأ التفكير في ذلك، كان يبدو في حالة قلق لا تُحتمل.

- لم يأتِ منه أي اتصال، حتى في وقت الزلزال. ألا ترى ذلك غريبًا؟ لو كان حيًّا، لاتصل هاتفيًّا على الأقل، أليس كذلك؟ حتى إن كان حيًّا، فهو يعيش حياة مهينة تجعله يخجل.

بات كيوتشي يفكر في أن البحث عن شقيقه سيجلب له متاعب هو في غنى عنها. لكن، من دون أن يتوقع ذلك، لامته أمه - أمهما - على ذلك وطلبت منه وهي تبكي أن يبحث عن دايسكيه، لأنها تريد أن تراه ولو مرة واحدة فقط قبل أن تموت.

سُجل في سجل الهوية أن دايسكيه تانيغوتشي قبل انتقاله إلى بلدة سايتو في محافظة ميازاكي كان يقيم في شقة بحي كيتا شمالَي مدينة أوساكا. في أي مبنى قديم بمحاذاة نهر يودوغاوا مر على بنائه أربعون عامًا، وإيجاره الشهري ٣٨ ألف ين، وكان مالك البيت يملك مكتبًا هندسيًّا بالقرب منه. اقترح كيدو

عليه بعد مشاورة ريئه أن يذهب ثلاثتهم معًا لزيارة مالك تلك الشقة. لكن كيوئتشي ذهب سريعًا وقابل مالك الشقة بمفرده.

ووفقًا لكيوئتشي فقد تعاطف مالك المكتب الهندسي مع حديث كيوئتشي عن اختفاء شقيقه. ثم تأمل بإمعان صورة دايسكيه وقال إنه فعلًا هو الذي كان يسكن في الشقة. وللاحتياط أراه كيوئتشي صورة «X»، لكنه هز رأسه قائلًا إنه لم يسبق له رؤيته قَطُّ.

على ما يبدو أن دايسكيه كان هو دايسكيه حتى زمن إقامته في شقة أوساكا. وبعد أن قابل «X» في مكان ما، سلب منه الاسم والهوية وكل ما يمت له بصلة.

وأعلن كيوئتشي غضبه واستياءه من الشرطة مجددًا بخصوص أنها لم تبحث حتى عن ذلك الأمر.

وطلب كيوئتشي من مالك المكتب الهندسي أن يخبره بمعلوماته المسجلة في العقود والأوراق وقتها مثل رقم الهاتف أو العنوان الذي انتقل إليه، فظهرت الدهشة على وجه مدير المكتب الهندسي الذي كان متعاونًا، وأجابه بغموض قائلًا:

- لا أدري هل ما زالت موجودة، مثل تلك الأوراق؟ سأبحث عنها لاحقًا.

على الأرجح أنه خاف أن يسبب ذلك مشكلات. وهو محق. ولم يأتِ منه اتصال بعدها.

تفهَّم كيدو ذهاب كيوئتشي بمفرده إلى أوساكا حتى وإن برر ذلك بأنه كان ذاهبًا في الأساس لرحلة عمل ومر عليها في طريقه. لكنه لم يفهم جيدًا السبب في أن يجعل ميسوزو تنشئ حسابًا مزيفًا باسم شقيقه على موقع الفيسبوك. مهما كانت وجهة النظر فإن استمرار ميسوزو في نشر موضوعات منتحلة شخصية دايسكيه كان أمرًا مريبًا. ولم يعتقد كيدو أن ذلك سيأتي بنتيجة.

لكنه في أثناء مشاهدته «كصديق» للعلاقة والحوار الجاري على الفيسبوك بين كيوئتشي وميسوزو، ثم دايسكيه الذي تنتحل ميسوزو شخصيته، تدريجيًا أدرك ما يفكر فيه كيوئتشي. ثم شعر بأنه لا يمكنه التمادي في علاقة معه.

رفعت ميسوزو على صفحة دايسكيه صورًا قديمة تملكها هي ويملكها كيوئتشي. وذكرت معلومات أساسية عنه مثل مسقط رأسه والمدارس التي درس فيها، وكذلك أُعجب الحساب بصفحة مايكل شينكر وصفحة فريق سكوربيونز التي كان ينتمي إليها، وكذلك صفحة فريق «يوفو». وطبقًا لميسوزو، فقد كان دايسكيه يحب فريق «يوفو» بصفة خاصة، ولكن متابعي الصفحة الرسمية للفريق على الفيسبوك أكثر من ربع مليون متابع، ولا يمكن البحث فيهم كلهم، فلم يكن من السهل العثور عليه حتى إن كان أحد متابعي تلك الصفحة. ثمة عدد من حسابات التواصل الاجتماعي لأشخاص يسمون «دايسكيه تانيغوتشي» ليس على الفيسبوك فقط بل على تويتر وإنستجرام، لكنهم جميعًا أشخاص مختلفون ليست لهم به علاقة. لا يمكن معرفة طبيعة الحوار الذي دار بينه وبين «X»، لكن إن كان على قيد الحياة ففي الأصل من الطبيعي أنه لن يسجل باسمه الحقيقي. أو ربما يكون قد تبادل اسمه مع اسم «X» الحقيقي.

لو كان دايسكيه حيًّا ثم شاهد الصفحة المزيفة التي أنشأتها ميسوزو باسمه من المؤكد أنه سيدهش ويصاب بالخوف. تُرى هل سيظن أن «X» هو الذي فعل ذلك؟ ولكن يُفترض أن «X» الذي انتحل شخصية دايسكيه لا علم له بوجود ميسوزو، أليس كذلك؟ لو رأى دايسكيه الشخص الذي ينتحل شخصيته يتحاور مع حبيبته السابقة بألفة وحميمية على الأرجح لن يهدأ له بال. وعندها من المؤكد أنه سوف يحاول التواصل مع صاحب الحساب.

لكن في كل الأحوال، ما فهمه كيدو من تتبعه للحوارات على الحساب المزيف، أن العلاقة بين الشقيقين كانت على ما يبدو منذ مدة طويلة سيئة بسبب ميسوزو. ففي الأغلب أن الاثنين وقعا في حبها، لكنها في النهاية

اختارت دايسكيه، يبدو أن هذا ما حدث. لم يسأل كيدو عن ذلك ولكن يبدو أن بينهما حوارًا مباشرًا من خلال الماسنجر.

كان دايسكيه الذي تنتحل ميسوزو شخصيته طيب القلب يعيش حتى الآن بصحة جيدة وبروح مرحة ويكره الهزيمة على الرغم من ضعفه، ويحب أغنية «لاف تو لاف» لفريق «يوفو» ويبكي كما كان يحدث في الماضي كلما سمع تلك الأغنية. أو يمكن القول إن تلك كانت أمنيتها، وفي الواقع لم تكن تستطيع تخيُّل شيء آخر غير ذلك.

كانت تشعر بالحنين تجاه ماضيها الشخصي في أثناء عبثها هكذا بذكرياتها مع دايسكيه. كان اتحادها مع الذكريات يعني لمسها مجددًا لحبها له، ثم إطالة التأمل في تلك الأنامل.

في رحلة العمل إلى ميازاكي، دخل كيدو حانة وانتحل شخصية دايسكيه تانيغوتشي مثلما فعل «X»، ثم عندما تعمَّق سُكْره بدرجة كبيرة تحدث عن ميسوزو على أنها الفتاة التي كان يحبها في الماضي. في أثناء حكيه لكل ما يعرفه عن دايسكيه ظهرت ميسوزو على لسانه تلقائيًّا، لكن تغير بعدها وعيه تجاه ميسوزو تغييرًا غريبًا.

كانت حقيقة أنه عاش سويعات قليلة يتخيل أنه يحبها وتحبه، سرًّا يخاف أن ينكشف. فبات يشعر بالخجل أمامها ويرتبك. والسبب أن تصرفاته كانت متطابقة تمامًا مع شخص يحاول أن يخفي مشاعر حبه لها.

كانت شكوك زوجته بأنه يخونها تنعكس داخل قلبه انعكاسات متبعثرة ومعقدة. ولأن بداية الشك كانت رحلة عمل ميازاكي، ففكرت أن الطرف الآخر هو ريئه، فشعر بالذهول من ذلك، لكن ربما ما أحسَّت به كاوري سببه وجود ميسوزو. ومع ذلك لم يكن أمام كيدو إلا أن يضحك من ذلك التفكير.

تواعد مع ميسوزو على اللقاء في ذلك اليوم في الساعة الحادية عشرة

صباحًا في محطة ميناتو ميراي. كانت في مظهر بسيط ومريح ترتدي بلوزة فضفاضة تميل إلى إظهار الكتفين مع بنطلون جينز أزرق يُظهر كاحلي قدميها، لكن كان ذلك لائقًا عليها بسبب اعتدال قدها ونحافته. وكان ثمة شعور بالبلاهة عندما سار كيدو بجوارها بملابسه الرسمية واضعًا رابطة عنق.

ومثلما كانت عندما قابلها لأوّل مرة في الحانة كانت ميسوزو تبتسم ابتسامة هادئة رزينة وحيته قائلة:

- أعتذر على هذا العرض على الرغم من مشاغلك الكثيرة.

في الحانة كانت تجلس على المقعد الدائري الصغير وترفع عينيها قليلًا، لكنها عند اللقاء على مقربة، فعيناها الواسعتان ذواتا الجفنين السفليين السميكين، تسحران الناظر بدرجة ملحوظة مع خط أنفها المتناسق لأنفها العالي. ولأن الوقت ما زال صباحًا كانت رائحة عطرها ما زالت قوية.

كان صباح يوم من أيام الأسبوع، ولأنه معرض فن معاصر لشباب الفنانين كان المعرض خاليًا تقريبًا.

شاهدا معًا الأعمال من دون حوار تقريبًا وهما يصعدان ويهبطان درجات سلالم مفرغة في المتحف الذي يبدو وكأنه نموذج مصغر من متحف أورسيه الفرنسي.

لم يكن كيدو على معرفة كبيرة بالفنون الجميلة، لكنه كان يحب البساطة المصقولة جيدًا التي تشبه «فكرة الفراغ» عند فونتانا. لذلك لم يشعر بأي إعجاب بأعمال مثل سفينة صُنعت من الورق المقوى، أو لوحة بورتريه لتلميذ في مدرسة ابتدائية رُسمت بعدد لانهائي من أختام «جيد جدًّا - جيد - غير كافٍ»، أو لوحات عنيفة تأخذ موضوعاتها من الرسوم المتحركة.

كان من وقت إلى آخر يختلس النظر إلى ميسوزو، ويتساءل في نفسه تُرى هل هي من معجبي هذا الفن؟ لكنها لم تقف طويلًا أمام أي عمل.

ومع ذلك استمتعا معًا بعمل تركيبي عنوانه «ذاكرة الثالثة من العمر» في الطابق الثاني. كانت صاحبة العمل فنانة يابانية في النصف الثاني من العشرينيات وتعيش في برلين، ولم يسمع كيدو باسمها من قبل.

كان عملًا كبيرًا يشبه ديكور مسلسل من طراز الصناديق، عند الدخول، وجدا أن الفنانة أعادت بإخلاص بناء ديكور غرفة المعيشة في بيتها عندما كانت في الثالثة من عمرها. وتقول إن تلك هي أول شيء في ذاكرتها. لكن حجم الغرفة ليس كما هو في الواقع، ولكن كانت كل الأجهزة عملاقة والأثاث عملاقًا. كان هدف الفنانة إعادة التجربة الجسدية «كما هي» لذلك العالم الذي كانت تراه بعينَي طفلة. مائدة الطعام الخشبية المربعة في ارتفاع عينَي كيدو نفسه والكراسي الأربعة الملحقة بها بحجم لا يمكن الجلوس عليها من دون القفز عاليًا. وتوابل المطبخ وطحين الكعك كلها في أحجام عملاقة، وموضوعة في مكان عالٍ لا تصل إليه اليد، والسكاكين وكأنها سيوف طويلة من التي يضعها محاربو الساموراي على الخصر. بمعنى، أن أجسام المشاهدين تتحوَّل إلى أجسام صغيرة لتناسب حجم طفلة في الثالثة من العمر.

ولأن كيدو يرى كل يوم سوتا يحوم حول المطبخ وغرفة المعيشة في بيتهم، فكر في نفس ما فكرت فيه تلك الفنانة، كان أحيانًا يتذكر وقت طفولته مثل شعور الحنين إلى الوطن. منذ العمر الذي لا يرى فيه المرآة في حوض الاغتسال، تدريجيًّا، بات يرى شَعره إن هو قفز إلى أعلى، ثم يرى وجهه، ثم استطاع تنظيف أسنانه بفرشاة الأسنان بنفسه، وأخيرًا أضحى يرى كل جسمه في المرآة حتى الخصر. فيمَ كان يفكر كل يوم عندما كان الأثاث والأجهزة حوله لها كل هذا الضغط والضخامة؟

كان العيب الوحيد في هذا العمل التركيبي، أمَّا صُنعت بإهمال لتقف في المطبخ.

اجتهد كيدو مع ميسوزو في الصعود للجلوس على كراسي المائدة،

وجلسا متقابلَين عبر المائدة. وعلى العكس من مشاعر اللقاء للمرة الأولى في الحانة عندما جلسا متقابلَين على طرفَي المنضدة العالية، ظهرت ابتسامة خجل على وجهيهما. وكأنهما قد عادا إلى الماضي، أيضًا شعرا بالرغبة في أكل وجبة خفيفة مع صديق الطفولة الخيالي، شعرا بأنهما إن انتظرا فسيأتي أحد ما أكبر منهما بتلك الوجبة.

تناولا الغداء معًا في مطعم مون سان ميشيل الشهير الواقع داخل مبنى ملحق بمحطة القطار، وتناولا «أومليت» منتفخًا انتفاخًا لا يمكن خفق البيض وصنع رَغاوٍ أكبر منه.

تحدث كلٌّ منهما عن انطباعه حول المعرض وابتسما معًا ابتسامة متكلفة، لأن كلًّا منهما كان تقييمه منخفضًا. فاعتذرت إليه ميسوزو قائلة إنها آسفة لأنها عرضت عليه الذهاب إلى معرض ممل كهذا. لكن كيدو هز رأسه بالنفي وقال إن «ذاكرة الثالثة من العمر» كان مشوِّقًا.

– أجل مشوق حقًّا! يمكنني قضاء نصف يوم شاردة داخله. لكن ظهور الأم في المطبخ يعطي شعورًا بالوحدة. هذا هو الشعور الذي أرادت الفنانة إبلاغه، أليس كذلك؟

– حقًّا؟ هذا الجزء فقط شعرت بأنه رديء واعتقدتُ أنها تعاني نقصَ مهارة صنع نماذج بشرية، ولكن ربما ما تقولين هو الصحيح. ربما ثمة سبب لعدم القدرة على التعبير الماهر.

أثارت وجهة نظر ميسوزو التي رأت ما لم يستطِع كيدو رؤيته قَطُّ إعجابه الشديد.

– هل قرأتَ الشرح! لقد كانت تعاني بشدة العلاقةَ مع أمها.

– لم أقرأه، ولكن كما تقولين بالتأكيد، مَن عاش طفولة سعيدة سيجعله العمل يشعر بحنين إلى مسقط رأسه. لكن الشخص الذي لم يكن كذلك، سيشعر بالألم في تلك المساحة.

ابتسمت ميسوزو موافقة على رأيه، ثم نظرت إليه وكأن عينيها تسألانه: «ماذا عنك؟»، وكانت ملامحها تتقبل قراره سواء قرر أن يجيب عن السؤال أم لا يجيب.

– أعتقد أنني كنتُ سعيدًا مع عائلتي، وكانت علاقتي جيدة مع والدَي ومع أخي الأصغر.

– هذا هو الانطباع الذي يُؤخذ عنك.

– حقًّا؟

– أجل. أنا كذلك كنتُ في عائلة عادية، بالمعنى الجيد للكلمة.

– لكن، أنا مقيم من الجيل الثالث. الآن أحمل الجنسية اليابانية بعد أن تجنَّست وأنا في المدرسة الثانوية. ولذلك ففي البيت من الداخل اختلافات بسيطة عن مثل هذا البيت التقليدي للعائلة اليابانية. ثمة كتب باللغة الكورية وصور لأمي وجدتي بملابس الجيوغوري التقليدية. بالطبع هي اختلافات بسيطة. مثل هذا العمل الفني ربما يجعل الأجانب عند عرضه في الخارج يبدلونه مع ذاكرتهم في أثناء الطفولة في كل بلد، ويستمتعون بذلك، لكن في اليابان ربما يكون مُعرضًا للنقد قليلًا بسبب طريقة إظهار «البيت الأسري العادي». فقد زاد الأشخاص الذين لهم أصول من دول متنوعة، وزاد التفاوت الاقتصادي. كلَّا بل على العكس إنه عمل يحثنا على التفكير في ذلك الأمر.

ذكر كيدو أصوله التي كان في اللقاء الأول يحذر من ذكرها إلى تلك الدرجة، ذكرها بسهولة وبلا تعقيد. ثم وعى إلى ذلك وهو يحكي بعد فوات الأوان قليلًا.

على الأرجح لأنه لامس الأعمال الفنية في المتحف، وفي الوقت نفسه لأنه خلال تلك الشهور قد شاهد طريقة تفكير ميسوزو وطريقة شعورها.

لم يظهر على ملامح وجه ميسوزو أثر للدهشة، لكن كانت عيناها تبدوان كأنها تسترجع أقوالها حتى الآن.

- مفهوم! يا لها من طريقة تفكير لا تطرأ على بالي. ربما يجب أن أراه مرة ثانية.
- أنا أيضًا من خلال انطباعكِ منذ قليل جاءت لي رغبة في الذهاب مرة ثانية.
- هل نعود مرة ثانية معًا! هل لديك مواعيد بعد ذلك؟
ضحكت ميسوزو وكأنها تقول إنها تمزح. ثم أكملت بوجه قلق:
- ربما شعرتَ بالاستياء من الحوار في حانة «صَني» في المرة السابقة، أليس كذلك؟
هز كيدو كتفه بلا مبالاة قائلًا:
- مطلقًا. تقصدين موضوع الاختطاف، أليس كذلك؟ إنها حقيقة. ولكن كان المالك مصرًّا على رأيه.
- ليس هذا فقط...
وترددت ميسوزو في إكمال كلامها:
- إن المالك يحمل عنصرية متغلغلة فيه تجاه الصينيين والكوريين.
- مع أنه من محبي موسيقى البلاك إلى تلك الدرجة! ألا تجعله حساسًا تجاه العنصرية؟
- إنه لا يربط هذا بذاك. بل هو على الأرجح لا يعدها عنصرية.
ولأن هذا الموضوع ليس ممتعًا بالنسبة إليه، وافقها كيدو على كلامها بما يناسب ثم سألها:
- هل هو...؟
لكن قبل أن يتم سؤاله عوجت شفتيها جانبًا ونفت بالقول:
- الكل يقول لي ذلك، ولكن لا، الأمر مختلف.
لكن تعمد كيدو على العكس ألا يقول ما لا داعي له مثل «لكنه يريد ذلك». وبسبب ذلك الصمت المريب، عادت ميسوزو إلى الحديث الأصلي، لا لكي تزيد الأمر سخونة، ولكن بدا أنها تريد فقط توضيح موقفها منه:

- إن خطاب الكراهية المنتشر مؤخرًا شيء مقزز. إلى درجة تجعلني أشعر بالغثيان.

شعر كيدو بذوبان تصلُّب كان متبقيًا في عقله الباطن بسبب نبرتها التي تدل على أنها نفسها تكرهها، وليس مجرد طريقة التعاطف المجامل مع أمر لا علاقة للشخص به من قريب أو من بعيد بالقول: «أمر شاق».

- الصراحة؛ عندما يصل الأمر إلى هذه الدرجة فهو لم يعد بدرجة الشعور بالغضب، أو جرح المشاعر. إن وصل إلى مستوى الدعوة بالموت! أو النعت بالصرصور، فالأمر مرهق.

تسربت ضحكة بلا قوة تشبه صوت زجاجة المياه الغازية عند فتح غطائها.

- تُرى لماذا وصل الأمر إلى تلك الدرجة؟ ألم يكن ذلك مستحيلًا قبل بضع سنوات؟

- حسنًا، إن الكلمات التي ترسبت في قاع الإنترنت تُخلط الآن وتقلَّب.

- ألا يمكن منع ذلك بقوة القانون؟

- هناك تحركات من أجل ذلك، ولكن ثمة خلافًا في الرأي بين علماء القانون، بسبب ارتباط ذلك بحرية التعبير. أرى أنه يجب وضع قيود على خطاب الكراهية، لكن بعد أن يُعرَّف تعريفًا محددًا وواضحًا. لكن، نوعًا ما لا أريد تأييد ذلك. بالطبع أنا أحتقر هؤلاء الناس، وانعدام وجودهم سيُخفض قليلًا الضغوط في حياتي. قليلًا فقط. إن في حياتي أمورًا أهم يجب أن أفكر فيها. القضايا التي أعمل عليها حاليًا، وأسرتي وبخاصة ابني، وأيضًا...

تأمل كيدو وجه ميسوزو. كان اندفاعه على وشك أن يجعله يقول إن هذا الوقت الذي يقضيه معها هكذا إلى أي درجة هو مهم بالنسبة إليه، لكنه امتنع عن تلك الكلمات التي ستبدو مغازلة لها.

مد يده ليأكل من «الأومليت» الذي انتفخ بشدة فوق الطبق ليبدو مغذيًا جدًّا. كان لونه يدل على أنه طُهي بدرجة مناسبة تمامًا، ومن الفتحة التي

قسمته إلى نصفين تدفق البيض مع الرغاوي بغطرسة إلى درجة تعطي شعورًا بهزيمته أمامها تقريبًا.

- في كل الأحوال، ثمة العديد... لديَّ جبال من الأمور التي تستحق أن أتألم منها بجدية أكثر وأنجرح منها. وبالتأكيد هناك أمور ممتعة وأمور مفرحة. لأنني نشأت في مدينة عادية مثل اليابانيين وليس في حي جالية كورية فليست لديَّ تجربة تنمُّر، بل لم أكن أشعر بوعي كبير تجاه أصولي على أنها ستيجما إلا مؤخرًا.

- ماذا تعني كلمة ستيجما؟

- آه، تعني الصفة التي تجلب على صاحبها الهجوم والمشاعر الشريرة من الناس. حتى وإن كانت هي نفسها ليست سيئة. مثلًا وحمة على الوجه، أو سجل إجرامي، أو مسقط الرأس.

- هل هذا معنى ستيجما؟

- أجل. عندما يجري التركيز على ذلك فقط، تُهمل باقي الصفات المتنوعة الأخرى التي يملكها الشخص، أليس كذلك؟ مع أن الإنسان في الأصل متعدد الوجوه والصفات، عندما يصبح أصله فقط ستيجما بوصفه مقيمًا، يُضحي بأكمله ذلك فقط. ليس الجانب السيئ فقط، بصراحة أنا لا أحب أن يجتمع أقراني من المقيمين وننشئ جماعة ما. وأيضًا مواطنو محافظة إيشيكاوا، الأمر نفسه. عندما يقولون عن أنفسهم في سخرية «شحاذو كاغا[1]» بالطبع لا ينعدم مثل هذا الشعور بوجود تلك الصفة، ولكن أن تلصق بي صفة ما ويُحكم عليَّ بها! ألستَ محاميًا؟ ألستَ يابانيًّا؟ أيًّا كانت الصفة فهي الأمر نفسه. يجري ربط

---

(١) عبارة تشير إلى أن النظرة التي تُرى بها طبيعة شعب محافظة إيشيكاوا، وكانت تُسمَّى «كاغا» في الماضي من الآخرين، وأنهم يهتمون بالاستمرار في الحياة ولو من خلال الشحاذة. (المترجم).

الهوية بصفة واحدة فقط. واستمرار احتفاء الآخر بها أمر لا يُطاق.
- بالطبع هو ما تقول! هذا ما أقوله دائمًا.

لوحت ميسوزو جسمها إلى الخلف، ثم هذه المرة اندفعت إلى الأمام من خلال ردة فعل مسند ظهر المقعد، وهي تشاركه المشاعر نفسها بعينين لامعتين.

- إنك يا آنسة ميسوزو تنفذين ذلك أكثر مني. تعملين مصممة مواقع حرة وتصنعين الكوكتيل في حانة.
- إن شعاري في الحياة هو «ثلاثة انتصارات وأربع هزائم».
- ما هذا؟ بمعنى؟
- لأن الحياة ليست كلها رائعة، فأنا أرى أنه يكفي ثلاثة انتصارات مع أربع هزائم.
- تقصدين أربعة انتصارات وثلاث هزائم؟ فما تقولينه يجعل النتيجة النهائية الخسارة.

صحَّح لها كيدو ما اعتقد أنه زلة لسان عفوية، لكنها هزت رأسها بالنفي.

- كلَّا! أنا راضية بثلاثة انتصارات وأربع هزائم. مع مظهري هذا، أنا من أشد المتشائمين. نظريتي الشخصية هي أن المتشائم الحق هو الإنسان البشوش! فهو لا يأمل حدوث خير من الأصل، ولذا يفرح بشدة من أي خير ولو ضئيلًا.

ثم ضحكت برضا عن النفس إذ أعلنت رأيها الخاص. أُخذ كيدو على حين غِرة من تلك الكلمات. ثم انبهر وكأن عالمًا جديدًا من الرؤية قد انفتح داخله.

- مفهوم.
- يُعد اختفاء دايسكيه المفاجئ كذلك من حظي السيئ فأنا سيئة الحظ، دائمًا! ولذلك، في الحقيقة حتى انتصاران وأربع هزائم نتيجة لا بأس بها، لكني أجعل الهدف أعلى، ثلاثة انتصارات وأربع هزائم.

- تفكير جميل.
- أليس كذلك؟
- في العصر الحالي، إن هُزم الإنسان مرة واحدة فهو يحذف الانتصارات الثلاثة السابقة.
- إنك أنت أيضًا متشائم يا سيد كيدو!
- هاهاها، ربما كنت كذلك حقًّا!
- يقيِّم الجميع هذا العالم تقييمًا عاليًا جدًّا. إنه الطموح. ولذلك حتى ولو أمسى الشخص تعيسًا يلومونه على أنه هو المخطئ. وكل إنسان لا يستطيع الرضا مطلقًا عن حياته.
- صحيح ما تقولين. ثمة تنوُّع، ولذلك فالمقيمون ليسوا مهزومين بصفة خاصة، لكن الضغوط النفسية المتعلقة بهم، فأنا نفسي لا أعلم في الحقيقة قدرها! لكن في كل الأحوال، هذا الحديث مُتعب جدًّا. إن وجد شخص محب للنوادر وكتب رواية ثم جعلني بطلها سيكون أسوأ ما يكون أن يجعل عنوانها «قصة مقيم من الجيل الثالث»، وأكره أيضًا أن يسميها «قصة أحد المحامين».
- أنت شخص مشوِّق جدًّا يا أستاذ كيدو!
- حقًّا؟
- لكنني أفهم ذلك بشدة.
- أنا لا أعتقد أبدًا أنني نموذج تقليدي للمقيم. حسنًا، بالنسبة إلى الحديث السابق، أنا أفهم أنه يجب فعل شيء ما من أجل الاعتراض على خطاب الكراهية، لكنني عندما أرى الفيديوهات على الإنترنت، ماذا يمكن أن أقول...
- هل تقصد المظاهرات المضادة؟
- لا أريد الاشتراك فيها. لو كنتُ فاعلًا لشيء ما سيكون تقديم استشارة قانونية للضحايا. ولقد صدر الحكم لتوه في قضية الدعوى المدنية

الخاصة بحادثة الهجوم على المدرسة الكورية في كيوتو. بصراحة، أعتقد أنني عشت حياتي حتى الآن أختار المكان الذي لا أضطر فيه إلى التعامل مع مثل هؤلاء الناس المتنمرين. حيث ما من شخص في حياتي اليومية يصدمني فجأة بقول عنصري. وإن ذهبتُ إلى موقع المظاهرات وسمعت بأذنَي أقذع أنواع السباب، سوف أصاب باستياء شديد.

- لكن بصرف النظر عن البعيدين عنك، ماذا عن أسرتك؟ والديك وأطفالك؟

تذكر كيدو وجه ابنه سوتا، فلم يستطِع الرد مباشرة. فهذا هو بالذات ما تقلق منه زوجته، وترغب في إخفاء أصوله التي تدل على أنه من أصل مقيم، إنها تؤكد أن ذلك ليس بسبب الشعور بالنقص بل من أجل حمايته، ولم يعترض كيدو على ذلك.

- حسنًا، هو كذلك. إن كان رأيك أنني يجب عليَّ الذهاب إلى المظاهرات المضادة لأنني مقيم، لكن ألا يجب على العكس على اليابانيين بالذات الذهاب لأنها مشكلة بلدهم، ويجب ألا يتركوها في أيادي هؤلاء العنصريين ليتحكموا فيها كما يحلو لهم؟ لأن المعنيين يشملهم الضحايا والجناة أيضًا. وعندها في النهاية يجب عليَّ أنا أيضًا الذهاب كذلك لأنني حاليًّا أحمل الجنسية اليابانية.

قال كيدو ذلك في شكل مزاح ثم ضحك من أجل أن يُظهر أنه ليس في نيته الهجوم عليها. لكنه في أثناء تحدثه بذلك، بدأت تدريجيًّا الأعراض نفسها التي أصابته منذ أيام داخل القطار السريع وساءت حالته وأراد أن يغيِّر مجرى الحديث.

- على كل حال، إن المعنيين بالموضوع وجودهم صعب. في أي حال، يجب أن يتدخل طرف محايد. ولهذا السبب فمهنة المحاماة قائمة.

أومأت ميسوزو دليلًا على موافقتها. وظلت تتأمل وجهه بعينيها الرفيعتين

الممتلئتين بالحنان. كان من غير المتوقع أن تحتوي عيناها على ابتسامة لكنها احتوت كذلك على طمأنينة.

- إذن سأذهب أنا بدلًا منك.

إزاء تلك الجملة التي لم يكن كيدو يتخيلها كان أقصى ما استطاعه هو أن يقول: «ماذا؟» ولم يدرك أهو منبهر أم منزعج!

- كلَّا! لم يكن ذلك هو قصدي من هذا الحديث. من الأفضل ألا تفعلي ذلك. فلن تجني إلا الاستياء، لكن شكرًا لك في أي حال.

- كلَّا، فأنا أريد الذهاب من نفسي.

قالت ذلك وهي تضحك في النهاية وكأنها تمزح. ثم ضحك كيدو أيضًا وكأنه يقتسم معها ضحكتها. ثم مرة أخرى فكر أنها امرأة عجيبة!

لم يعرف كيدو عن ماذا كانت تريد ميسوزو «استشارته» بخصوص دايسكيه. لكن بعد ذلك اليوم، من المؤكد أن الرسائل المتبادلة بينهما على الإنترنت باتت أكثر حميمية وألفة.

١٠

مرت بالفعل عشرة أشهر منذ أن وكلته ريئه في القضية، لكن كانت عملية البحث عن «X» تسير في طريق مسدود بالكامل. ولم تأتِ صفحة الفيسبوك المزيفة التي أنشأتها ميسوزو وكيوتتشي بنتائج جيدة. وحتى هو نفسه انشغل جدًّا مؤخرًا بقضية الموت من كثرة العمل. ولقد انتهت تمامًا الإجراءات التي كان قلقًا منها مثل تعديل سجل هوية ريئه، فهدأت الأمور وبات طريق التقدُّم إلى الأمام محيرًا.

في ذلك الوقت، تسبَّب حوار مع زميله في المكتب ناكاكيتا في وصوله إلى طرف خيط يمكن أن يؤدي إلى نتيجة ما.

وسط استمرار ناكاكيتا في دعم المتضررين من زلزال شمال شرقَي اليابان، استشار كيدو بشأن مفقودين في التسونامي لا تتعرَّف مؤسسات الدولة على وجودهم لأنهم «من دون» هوية.

في أثناء الحرب العالمية الثانية، احترقت سجلات الهوية لبلديات كثيرة بسبب القصف الجوي، ولم يُسجل الشخص نفسه في البلدية بعد ذلك، وهكذا ظل ذلك الشخص «من دون» هوية طوال تلك الفترة. والوضع الحالي، أن هناك أصلًا لسجل الهويات في مقر البلديات، محل إقامة الفرد نفسه، وثمة كذلك صورة من سجل الهويات في فرع وزارة العدل الذي تتبعه البلدية، أو في المكتب الإقليمي لوزارة العدل، فلم تحدث مشكلات تخص سجل الهويات حتى وإن فُقد السجل الأصلي في كارثة الزلزال.

وأيضًا عملية رقمنة السجلات في تقدُّم مستمر. لكن ما سمعه ناكاكيتا في شمال شرقي اليابان، هو مشكلة وجود أطفال «من دون» هوية بسبب «مشكلة الثلاثمائة يوم».

في القانون المدني الياباني، يسجل الطفل الذي وُلد قبل مرور ثلاثمائة يوم من طلاق أمه باسم الزوج السابق، لكن الأم التي حصلت على الطلاق بسبب تعنيف زوجها الشديد لها، تتعمَّد ألا تسجل مولودها الذي أنجبته من رجل آخر بعد الطلاق مباشرة، وتكون النتيجة أن يخرج إلى المجتمع أطفال «من دون» هوية و«من دون» جنسية، وأصبحت تلك الظاهرة مشكلة اجتماعية في السنين الأخيرة. فحتى لو كانت شروط الحصول على الجنسية اليابانية مكتملة، فإن الدولة ليس لديها علم بوجودهم في الحياة من الأصل، ومن ثَمَّ فالدولة لا تعلم حتى أنهم ماتوا بعد أن ابتلعهم التسونامي. أي أن تسجيل ميلاد ووفاة هؤلاء الأبناء لم يحدث من أساسه طبقًا للوثائق الرسمية للدولة. والاعتماد على جملة «لم يحدث من أساسه»، لأن الموجود الذي يُفترض أنه حدث مرة، لم يحدث، وفي كل الأحوال، لم يقع شيء بالمرة من البداية ويسيطر العدم تمامًا على الأمر.

فكر كيدو وهو يسمع ذلك في احتمالية أن يكون «X» طفلًا من «البدون». وكان ناكاكيتا أيضًا يريد أن يُلمح إلى ذلك.

لقد كان كيدو يتخيل أن دايسكيه تانيغوتشي على الأرجح يعيش الآن بشخصية «X» التي تبادلها معه، إن كان حيًّا. لكن لو كان «X» من «البدون»! أعاد كيدو التفكير في احتمالية مقتل دايسكيه كما يشك كيوتشي. إن كان دايسكيه «من دون» وجود في أي وثائق رسمية للدولة، فحتى لو كان قُتِل فلن تستطيع الدولة إدراك ذلك. حتى لو وُجدت الجثة، ستُعامل معاملة مجهولي الهوية. إن شهد معارفه وأصدقاؤه وأُجري له فحص الجينات الوراثية، وبقيت متعلقاته الشخصية وصوره بوصفها أدلة مادية، عندها

يمكن تخمين أنه كان له وجود، لكن في حالة التسونامي فُقد كل ذلك من جذوره، وأصبح الوضع في منتهى الصعوبة.

في كل الأحوال، تشاءم كيدو تجاه وجود دايسكيه على قيد الحياة تشاؤمًا لم يشعر به من قبل. ومراعاةً لخاطر ريئه لم يكن يريد التفكير أن «X» ارتكب جريمة قتل. فكر أن لو هذا ما حدث، ستفقد ريئه قدرتها على مواصلة حياتها التي تحافظ عليها حتى الآن بصعوبة بالغة.

ظل كيدو وناكاكيتا بعد ذلك يتحاوران حول تاريخ سجل هويات العائلات اليابانية وهما يجلسان على أريكة المكتب ويشربان القهوة.

كان الهدف من نظام تسجيل العائلة منذ بداية عصور دولة النظام والقانون جباية الضرائب ثم الحفاظ على الأمن، وفي عصر إيدو من أجل منع المسيحية أن تدخل حتى في العقيدة وأصبح السجل المُسمَّى «هوية الأفراد الدينية» يسيطر على هوية الأفراد في نطاق واسع منذ الميلاد إلى الزواج إلى التبني إلى الطلاق إلى تغيير محل الإقامة وتغيير المهنة إلى الموت.

وجاء عصر ميجي فجرى الاعتراف بحرية الحركة والتنقل، وبات سجل «هوية الأفراد الدينية» المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأرض لا حاجة إليه، وجرى إنشاء سجل الهويات الحديث. ولأنه كان يُستخدم من أجل إحصاء السكان لجباية الضرائب والاستدعاء للتجنيد، حدثت حالات كثيرة من وجود أشخاص «من دون» هوية، أو بهوية مزيفة من أجل التهرب من الاثنين.

قال ناكاكيتا وهو يأكل كعكة بامكوهن التي يبدو أن أحدهم جلبها إلى المكتب هديةً:

– حسنًا، في كل الأحوال، تضمن نظام الهوية الكثير من الثغرات بسبب عدم تسجيل الأبناء الذين وُلدوا خارج الزواج، وكذلك لم يستطِع

المهاجرون اليابانيون تسجيل أبنائهم الذين وُلدوا خارج اليابان في أثناء الحرب بسبب إغلاق السفارات والقنصليات، فبات هؤلاء جميعًا من دون سجل هوية ومن دون جنسية.

أجاب كيدو عليه من خلال التفكير في المسألة الأساسية عن الأضرار التي تترتب على أن يكون الشخص «من دون» جنسية في اليابان:

- قبل الحرب العالمية الثانية، كانت شبكة الأمان الاجتماعي في اليابان غير شاملة ولا كافية بتاتًا، لذا يمكن فهم أن الشخص ربما يفضل أن يكون من «البدون» في سبيل التهرب من التجنيد. ولهذا السبب بالذات كانت السياسة التعليمية صارمة جدًّا في تأصيل التعليم الوطني لشعب جلالة الإمبراطور.

- لكن مع ذلك كانت حلقة مفرغة، لأن أساس شعب جلالة الإمبراطور يتصل مباشرة من خلال النظام الأسري وسلسلة الإمبراطور التي لم تنقطع.

- بمعنى أنه لو كنت «من دون» هوية، فأنت منبوذ.

- ألم تكن تلك هي سياسة شعب جلالة الإمبراطور في شبه جزيرة كوريا؟

لأن ناكاكيتا يعرف تمامًا أصول كيدو، قال ذلك وفي نيته انتقاد تلك السياسات. ثم واصل كلامه إلى كيدو الذي أومأ فقط في صمت.

- في كل الأحوال، يرتكز نظام إدارة الهوية الآن على شهادة سجل السكن، ولأنه جرى إدخال نظام الرقم الشخصي، في النهاية سيصبح سجل الهوية لا حاجة إليه.

- حقًّا، لكن ربما لو أضحى الأمر كذلك ستكون عملية تبادل الهويات أسهل.

- في النهاية ستضم المعلومات البيولوجية، أليس كذلك؟ وعندها لن يستطيع أحد الهرب!

- بلى. لكن في أي حال، فإن شخصًا مثل دايسكيه تانيغوتشي، بسبب وجود نظام الهوية كان يريد قطع علاقته مع أسرته.

- ماذا عن «X» إذن؟ إن كان من «البدون»، لو فكرنا في الإطار الطبيعي، المرجح أن له سوابق جرائم جنائية. وجرائم ثقيلة أيضًا. والمأزق الأكبر هو نظر المجتمع والدولة إليه بحدة على أنه خطير أمنيًّا.

- على الأرجح هو كذلك فعلًا.

- دايسكيه ليس له سجل إجرامي، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذن!

غرق كيدو في التفكير وهو يشبك ذراعيه، وهز ناكاكيتا كتفيه ولم يشرح أكثر من ذلك.

بعد الحوار مع ناكاكيتا، جرَّب كيدو أن يبحث في الجرائم المتعلقة بشبكة الأمان الاجتماعي، فوصل إلى سجلات حكم نادر في قضية منذ ست سنوات.

رجل في الخامسة والخمسين من العمر يقيم وقتها في حي أداتشي بمحافظة طوكيو، انتحل شخصية رجل آخر في السابعة والستين من العمر، وتسلَّم مرتب التقاعد الخاص به من هيئة تأمينات التقاعد من دون وجه حق، ولم يكن انتحاله لشخصية الرجل من نفسه بالخداع، بل جرى بناءً على اتفاق بينهما تبادلا من خلاله هويتيهما.

كان الرجل الآخر يريد الزواج بامرأة في الثلاثينيات من العمر، فأراد أن يجعل نفسه بلا سابقة زواج، وأن يقلل عشر سنوات من عمره الحقيقي، لذا تبادل مع ذلك الرجل هويته.

صدر الحكم بالإدانة على جريمة تسجيل بيانات كاذبة في وثائق رسمية، والاشتراك في جريمة تسجيل بيانات كاذبة في وثائق رسمية. صدر حكم بالسجن لمدة عام مع وقف التنفيذ لمدة ثلاثة أعوام. لكن ما لفت نظر كيدو

هو وجود متهم ثالث في تلك القضية كان الوسيط بينهما في عملية التبادل. ولأنه شريك حقيقي في الجريمة، حُكِم على ذلك الرجل أيضًا بالسجن مع وقف التنفيذ، ثم قُبض عليه مجددًا بتهمة الاحتيال من خلال جمع أموال لشركة استثمار وهمية، وحُكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام مع النفاذ. وقت وقوع الجريمة عام ٢٠٠٧، كان بالضبط هو العام الذي ترك فيه دايسكيه شقة أوساكا، وظهر فيه «X» في بلدة سايتو بمحافظة ميازاكي. لكن يبدو أن ذلك الوسيط وقتها، توسط في تبادل هويات عدد آخر من الناس ليس المتهمين فقط، وحصل منهم على عمولة.

وفي أثناء قراءته في تلك الوثائق شعر كيدو باحتمالية تعرُّف دايسكيه على «X» من خلال هذا الوسيط. وعند البحث عنه عرف أنه يقضي مدة سجنه حاليًّا في سجن يوكوهاما. ولأن السجن يقع على بُعد مسافة لا تستغرق نصف ساعة بالقطار من بيته، قرر كيدو أن يزوره في السجن.

كان سجن يوكوهاما يتكون من قسمين، الأول لمجرمي فئة «ب» أي «معتادي الإجرام الذين يميلون إلى تكرار الجرائم»، والثاني لمجرمي فئة «ف» أي «الأجانب الذين يحتاجون إلى معاملة تختلف عن اليابانيين». ولذا كان كيدو يزور ذلك السجن بعد غياب عشرة أعوام تقريبًا، لأنه بات مؤخرًا يتعامل مع القضاء المدني فقط.

كان طلب السجين أن تكون الزيارة في الصباح، فوصل كيدو في العاشرة صباحًا، وأبلغ الحراس بالزيارة.

كان يومًا غائمًا يميل إلى البرودة، وإن لم يكن المبنى محاطًا بتلك الأسوار العالية، فيمكن الخلط بينه وبين المدارس. فتذكر كيدو كتاب «ولادة السجون» لميشيل فوكو الذي قرأه في أثناء دراسته الجامعية.

كتب نموذج طلب الزيارة في مكتب الاستقبال وسلَّم الحارس كل أمتعته. لقد استجاب ذلك السجين الذي له اسم عائلة نادر وهو «أوميورا»

عندما أخبره من خلال رسالة بريد أنه يريد أن يستفسر منه عن تلك القضية التي وقعت منذ ست سنوات، لطلب الزيارة بسرور مع أنه محامٍ لا يعرفه.

جاء أوميورا إلى غرفة الزيارة مع السجَّان، كان متين الجسم، أصلع الرأس، في التاسعة والخمسين من العمر. عينه اليمنى أكبر من اليسرى التي تبدو مطموسة، وحاجباه قصيران وخفيفان، لكن جبهته مشدودة الجلد إلى أعلى كمجاز مفضوح قليلًا عن قوته الذهنية، وفمه يشبه فم سمك الشبوط، وضحك بفرح عندما رأى وجه كيدو.

- يا لي من محظوظ أن يأتي لزيارتي محامٍ وسيم هكذا! إنني لديَّ عقدة نقص تجاه ملامحي، وأصبحت منحرفًا هكذا بسبب الطاقة التي تريد التغلب على تلك الحقيقة.

قال أوميورا ذلك وهو يجلس على الجانب المقابل من لوح من الأكريليك الشفاف، ثم لوى عنقه بميل وكأنه يقيِّم كيدو. كانت طريقة كلامه بها بعض اللثغة. وثمة شعور طاغٍ أنه يريد القول مهددًا: «أنا لطيف المعشر، لكنني سأقتلك إن عاملتني على أنني غبي».

وبدا أن قوله «محامٍ وسيم» كأنه خبط عشواء من فمه بدرجة كبيرة - بل كانت نيته إبلاغ ذلك - لكن يبدو أن «عقدة النقص» حقيقة. شعر كيدو بأن عينه اليسرى التي تميل إلى أن تكون مطموسة وعينه اليمنى التي فُتحت على وسعها، ترمزان إلى كلماته التي تحاول أن تجعله يصدِّق شيئًا ويخفي آخر.

عندما كان كيدو يحاول أن يرد على كلمات التحية تلك، والدخول في الموضوع الأصلي مباشرة قال له أوميورا فجأة:

- أستاذ! أنت مقيم، أليس كذلك؟

تجهَّم وجه كيدو، لكنه لم يستطِع النطق على الفور وكأن حنجرته قد خُنقت. وبعد فترة من التنفس بهدوء، انتبه إلى أنه ظل لبضع ثوانٍ لا يتنفس. كان السجَّان يجلس بجوارهما فقط بلا اهتمام بالحوار.

- أليس كذلك؟

- هل يجب عليَّ أن أجيب عن هذا السؤال؟
- أنا أعرف ذلك بمجرد رؤية الوجه. وبخاصة من ملامح العينين والأنف. أعرف ذلك فورًا.
- أنا من الجيل الثالث. لكنني حصلت بالفعل على الجنسية اليابانية.

مرت في عقل كيدو الباطن ملامح وجهه التي يراها كل صباح أمام مرآة حوض الاغتسال. شعر بالغضب، لكنه لم يرد أن يضيع وقت الزيارة هباءً، لذا لم يبدُ ذلك الغضب على وجهه. وبذلك شعر أوميورا بتوازن بين عقدة نقصه والاستعلاء، فضحك لتظهر فقط أسنانه العليا وهو يقلِب شفتيه إلى أعلى.

عرَّفه كيدو بنفسه تعريفًا موجزًا، وشرح له سبب الزيارة. كان أوميورا يومئ مظهرًا عدم الاهتمام، لكنه في أثناء ذلك قال مقاطعًا:

- يا أستاذ! هناك حقًّا مَن يعيش في هذه الحياة لمدة ثلاثمائة عام؟
- ماذا؟
- ألا يقال كثيرًا إن ثمة أناسًا يبلغون ثلاثمائة عام من العمر؟
- لم يسبق لي أن سمعت ذلك قَطُّ؟
- كما هو المتوقع في عالمك الذي تعيش فيه ما من أحد من هؤلاء. هذا كلام أخبرني به أحدهم في هذا السجن. لكنه خرج بالفعل الآن.

قابل كيدو بسبب مهنته أنواعًا عديدة من البشر، لكنه فكر أنه من النادر وجود مثل هذا الشخص المريب. نظر إلى ساعة يده وحاول أن يعيد الحوار إلى أصله، لكن أوميورا لم يأبه بذلك، وظل يواصل الحديث بصوت هامس عن انطباعه عن «الشخص الذي يبلغ ثلاثمائة عام». وهو يقترب من حين إلى آخر من لوح الأكريليك. كان المحتوى غير مترابط ولا متناسقًا مطلقًا.

وعندما لم يتبقَّ من وقت الزيارة إلا ربع ساعة فقط قاطعه كيدو الذي لم يطِق التحمُّل:

- إنها حكاية في منتهى التشويق، ولكنني اليوم أريد أن أسألك عن القضية التي وقعت منذ ست سنوات. هل تعرف شخصًا باسم «دايسكيه تانيغوتشي»؟

نظر أوميورا نظرة سريعة إلى الصورة التي أخرجها كيدو، وكان من الواضح جدًّا أن مزاجه قد تعكَّر، وأسند جسمه إلى مسند ظهر المقعد، ونظر إلى السقف بملامح تدل على الملل. أكمل كيدو كلامه وهو ينظر إلى السجَّان بلا وعي:

- لقد مات شخص منتحلًا اسمه. لكن مَن مات لم يكن هو دايسكيه، وظل دايسكيه الحقيقي مجهول المصير. وتوقعي كما يلي؛ أنت مَن توسط بينهما من أجل تبادل الهوية، وفكرت أن لديك معلومات.

دفع أوميورا ذقنه إلى الأمام وقال:

- الابن الثاني لنُزل ينابيع إيكاهو الساخنة؟

فتح كيدو عينيه على وسعيهما.

- أجل هو كذلك! هل تعرفه؟

- حسنًا، لقد انتهى وقت الزيارة!

- أريد أن أعرف مَن الذي بدَّل معه هويته؟ ألا تخبرني بذلك؟

- ليس تبديلًا. لكنه غسيل هويات. مثل الأموال القذرة. يريد عديد من الناس غسل ماضيهم، أليس كذلك؟ إن عملية شراء شجرة العائلة متداولة من قديم الزمن. حتى أنت يا أستاذ! أليس كذلك؟ لكن في أي حال أنا أعرف ذلك.

- ....

- أستاذ! في الزيارة المقبلة، هل يمكن أن تحمل لي معك هدية؟

- ماذا تريد؟

- مجلة أساهي الفنية، ثم كتاب سوترا القلب الطاهر. الأفضل أن تكون نسخة سهلة الفهم.

أعلن السجَّان نهاية وقت الزيارة. أومأ كيدو بالموافقة، لكن كان أوميورا يبدو عليه عدم الاكتفاء من الحديث فقال لكيدو وهو ينظر من أعلى إلى أسفل:

- إنك أيها المحامي مقيم لا تبدو عليك صفات المقيم. لكن في النهاية ذلك يعني أنك مقيم حقيقي. تمامًا كالنصابين أمثالي!

ثم ضحك مرة أخرى مبديًا أسنانه الأمامية فقط.

كان كيدو على وشك أن ينفجر فيه غاضبًا. لكنه لم يستطِع التحرك من على المقعد مهما فعل، كأنه شُلَّ، وفي النهاية لم يكن أمامه إلا أن ينظر إليه وهو يغادر غرفة الزيارة.

مع مرور الوقت، ازدادت كراهية أوميورا داخل كيدو.

إنه مجرد محتال قابله مرة واحدة فقط من أجل العمل. وعبارة «مقيم لا تبدو عليه صفات المقيم» بلا معنى بل إنه يقصد بها مجرد لعبة نفسية. ومع ذلك كان كلما وقف أمام المرآة بعدها يشعر بأنه في غرفة الزيارة بالسجن، وأنه يواجه ذلك الرجل القميء على الجانب الآخر من لوح الأكريليك، فيتعكر مزاجه. وتمنى من كل قلبه أن يختفي وجود ذلك الرجل من ذاكرته الشخصية، بل ومن هذا العالم أجمع!

لقد اندهش كيدو أن أوميورا يعرف دايسكيه، لكنه يصاب بالاكتئاب عندما يفكر في زيارته مرة ثانية. كان يريد ألا يتبادل معه حوارًا إلى الأبد، لكنه يملك معلومات عن هوية «X» الشخصية. ومن أجل ريئه المسكينة، كان يريد أن يثبت أن «X» ليس مجرمًا، لكن ملامح القضية أصبحت تنذر بالخطر، بل إنه لم يَعُد يثق بأن دايسكيه ما زال حيًّا.

كتب كيدو رسالة جديدة إلى أوميورا، السبب أنه يريد أن يُنهي علاقته بتلك القضية بأسرع وقت ممكن. لم يكن بوسعه ترك القضية في هذه اللحظة لكنه يريد إنهاءها سريعًا.

شكره أوميورا عندما زاره مجددًا بعد عشرة أيام على «هديته»، وتحدث طويلًا عن انطباعه عن الصور العارية التي تُنشر في الصفحات الأولى من المجلة.

- عندما تصبح في مثل عمري هذا، يصبح عري الفتيات الصغيرات لا جدوى منه. بل تفضل المرأة التي في الخمسينيات من العمر. إن الدخول إلى حوض الاستحمام أولًا، يجعلك تشعر بأن الماء الساخن صلد قليلًا، هذا الشعور نفسه. يكون جسد الفتيات الصغيرات المشدود صلدًا، حتى ولو من خلال النظر إليهن في الصور. ومن هذه الناحية فالمرأة في منتصف العمر أو كبيرة السن، يكون ملمس جسمها يشبه ملمس الماء الساخن الذي استحم فيه شخصان أو ثلاثة أشخاص قبلك، به لزوجة إلى حدٍّ ما. لكنك يا أستاذ لن تفهم ذلك لأنك ما زلت شابًّا!

ثم تحدث أوميورا بعد ذلك وهو يضحك قائلًا:

- لقد عانيتُ مصائب كثيرة.

وأخذ يحكي عن زميله الأكبر سنًّا في فريق الرجبي في الجامعة الذي أجبره بالقوة على الظهور في «فيديو إباحي للُّوطيين» وعن أنه أجبره على النزول إلى البحر عاريًا في منطقة كوجوكوريهاما في وقت بارد جدًّا من بداية الربيع، ثم حكى بعد ذلك عن اغتصابه في الفندق من بضعة رجال. وفي النهاية انتهت الزيارة بعد أن ألمح فقط إلى أن لديه معلومات عن شخصية «X».

وفي الزيارة الثالثة، وكانت بعد يومين من الزيارة الثانية بدأ الحديث هذه المرة متفاخرًا بأنه حقق ثروة من استيراد الفياجرا بنفسه وأن ذلك عمل قانوني، ثم بدأ يعرض على كيدو مشروعًا للربح يعملانه معًا بعد خروجه من السجن. وعندما رفض كيدو ذلك بلطف، وسأله مرة ثانية عن العلاقة بين دايسكيه و«X»، أشاح أوميورا بوجهه بعيدًا كأنه في عرض فكاهي وبدأ

يصفّر بفمه، ثم أوقف الزيارة في منتصفها، وبعد ذلك ظل يتجاهل الرسائل التي يرسلها إليه كيدو.

إن أوميورا شخص غريب الأطوار متقلب المزاج، وحديثه يمتزج فيه الصدق والكذب بتعقيد شديد، وعندما يريد المرء أن يزيل الكذب فقط من حديثه، تتحطم الحقائق ولا يمكنه قراءتها.

وشعر كيدو بأن ذلك ليست له علاقة بالصفات التي وُلد بها بقدر ما هو ناتج عن مرض نفسي معين. ومن أجل أن يتأمل الوضع بعض الوقت، ظل لا يتواصل معه فترة. وفي النهاية جاءه منه ثماني بطاقات بريدية متتابعة عليها رسم قلده من الصور العارية لمجلة أساهي الفنية التي أهداها إليه وقت الزيارة.

كانت صورًا مرسومة بقلم جاف بطريقة رديئة، لكنه عندما تأملها بدأ يشعر بالحزن نوعًا ما، وبدأ يشعر بأن أوميورا كان أكثر ما يريد منه هو أن يُسمعه قصة إجباره على الظهور في الفيديو الإباحي الذي جرى اغتصابه فيه. لقد أهملها على اعتبار أنها قصة مختلقة زائفة، لكن ربما كان يتوقع منه نصيحة قانونية بوصفه محاميًا أو تعاطفًا إنسانيًا معه.

وربما بسبب ملله من الصور العارية في المرة التالية، أرسل إليه صورة إلهة الرحمة كانون وهي تجلس على حافة الماء تتأمل صورتها المنعكسة فيه. وعندها أرسل إليه كيدو رسالة شكر ومعها طلب بالسماح له بزيارة أخرى. وجاء الرد على الفور. بدأت الرسالة بقوله:

إلى السيد الكوري مع التحية!

ولا يدري هل يسخر منه أم أنه يقصد الألفة والتباسط معه، وكتب في الرسالة:

هل عينا المحامي الوسيم مخرومتان؟ يا لك من أبله!

فقط بقلم جاف مزدوج للتأكيد.

وأما الرسم فقد عاد إلى الصور العارية مرة أخرى. لم تكن صورة ولكن

بدا أنه يقلد رسوم المانغا، وهي لامرأة متوسطة العمر تُمسَك من ثدييها الكبيرين بطريقة مبالغ فيها، بقبضة حديدية عنيفة، لكنه عندما نظر جيدًا إلى الصورة وجد اسم «دايسكيه تانيغوتشي» مكتوبًا في دائرة تحيط بالحلمة اليمنى، أما الحلمة اليسرى فكُتب حولها اسم «يوشيهيكو سونيزاكي».

وعندما مر شريكه في المكتب ناكاكيتا من أمام مكتبه أراه كيدو تلك البطاقة البريدية وهو صامت. تجهَّم وجه ناكاكيتا بعد أن تأكد من وجه صفحة البطاقة الأخرى وهو يلوي عنقه، لكن أفلتت منه ضحكة ثم نظر الاثنان إلى بعضهما.

- هل يريد أن يقول إن الشخص الذي يُسمَّى «يوشيهيكو سونيزاكي» هو «X»؟

- هذا ما أعتقده. لكن تلك أوَّل مرة أسمع فيها هذا الاسم.

كتب كيدو رسالة إلى أوميورا ليتأكد منه، لكنه لم يرد على الرسالة، وكذلك رفض زيارته.

١١

في يوم الأحد الأخير من شهر أكتوبر، رافقت ريئه أمها ويوتو وكذلك هانا، وذهبوا بالسيارة إلى حديقة مجموعة المقابر الأثرية في ضواحي المدينة لمشاهدة زهور الكوسموس التي اكتمل تفتُّحها قبل الوقت المعتاد من كل عام.

كانت هانا تُطلق على هذه الحديقة اسم «حديقة هانا» لذلك جاءت معهم وهي مسرورة.

كان يوتو مؤخرًا يميل أكثر فأكثر إلى الانعزال في غرفته، وفي البداية رفض الذهاب قائلًا إنه يريد مواصلة القراءة.

كانت ريئه نفسها قد بدأت قراءة الكتب بعد أن أصبحت ناضجة وفي عمر أكبر منه بكثير، لكنها في النهاية لم تكن تقرأ كتبًا كثيرة، ولذا اندهشت من شهوة قراءة الكتب الشديدة التي أصابت يوتو. بل كان ما يستعيره من المكتبة العامة روايات أدبية قديمة لأدباء مثل سوسيكي ناتسوميه، وناويا شيغا، وسانياتسو موشانوكوجي. ويبدو أنه يحب ريونوسكيه أكوتاغاوا حبًّا خاصًّا. فكان يشتري النسخ الشعبية من كتبه، ويُقلِّب في صفحاته كلما وجد وقتًا فارغًا. وعندما تسأله: «هل هي كتب مشوِّقة؟» يجيب فقط: «بالتأكيد». في هذا الوقت نفسه من العام الماضي، كانت قد حذرته من الإكثار في لعب ألعاب الفيديو الإلكترونية، لكنه مؤخرًا لم يعد ينظر إليها.

بعد الغداء صعد إلى الطابق الثاني ولم ينزل منه، لكن في النهاية جاء معهم بعد أن طلبت منه جدته المجيء.

كان يوتو يحترم جده وجدته منذ صغره حتى من دون أن يكون ذلك بإلحاح من أمه. ولم يسبق أن رأت منه سلوك التمرد المعتاد في سن المراهقة، وحتى الأمر الذي يشعر بعدم الرضا عنه إن قالته أمه، كان يستجيب له إن طلبته منه جدته. وكانت جدته تدلله وتحبه حبًّا شديدًا، فهي تشعر بأنه مسكين لأنه عانى توالي المآسي عليه، فكانت تشتري له الألعاب والحلوى إلى درجة مفرطة جدًّا.

عند مدخل البيت، ثمة حوض لأسماك ذهبية، ولهذا الحوض قصة، يجب أن تُحكى، فبعد موت الجد، وبعد مرور الذكرى السنوية الأولى لوفاته، وزواج ريئه من زوجها الثاني، ذهب يوتو مع جدته لشراء السمك من محل الحيوانات الأليفة.

ولم تكن ريئه تعلم شيئًا ولا زوجها الراحل عن هذه الخطة، وعندما عادا من عمليهما اندهشا بشدة وسألت ريئه يوتو:

- ماذا حدث؟ هل كنت تريد تربية أسماك ذهبية؟

فشرح لها يوتو الأمر قائلًا:

- لقد أصبحت جدتي وحيدة طوال الوقت بعد موت جدي.

ذلك الحوض هو نفسه الذي كانت ريئه تربي فيه أسماكها الذهبية في طفولتها، لكن بعد موت الأسماك جميعها، تُرك مهملًا على مدى ثلاثين عامًا في مخزن البيت يتراكم عليه التراب.

- هل معنى ذلك أنك ذهبت لشرائه من أجل جدتك؟

- أجل. فكرت أنه ربما يشغلها قليلًا.

- لكن لماذا اخترت السمك الذهبي؟

- لأن جدتي كانت تنظر دائمًا إلى الحوض في المخزن. والسمك الذهبي لا مشكلة منه، أليس كذلك؟ وأنا الذي سأعتني به.

تأثر قلب ريئه بحنان يوتو تجاه جدته. وحتى زوجها الراحل فرح وقال لها: «لقد تربى يوتو ليكون طفلًا لديه مراعاة تجاه الآخرين».

ولأنه بدا أنه لم يخبر جدته بنيته تلك تحدثت ريئه إلى أمها ليلًا بعد أن نام الطفلان.

عندما سألتها ريئه متى تشاورت معه سمعت ريئه من أمها ما لم تكن تتوقعه.

- لقد أصبح يوتو وحيدًا طوال الوقت بعد موت جده.

أفلتت الضحكة من ريئه من دون إرادتها وأعادت سؤالها:

- إذن ليس أنتِ مَن أراد تربية السمك الذهبي؟

نظرت الجدة إلى ريئه بشك تتساءل ما المضحك في الأمر وقالت:

- إنه من أجل يوتو!

- لقد قال يوتو القول نفسه بالضبط.

- ماذا؟

وعندما شرحت لها الأمر، بدا على وجه الجدة أنها أُخذت على حين غِرة، لكنها في النهاية ضحكت طويلًا مع ابنتها. وأخيرًا، انخرطتا في البكاء معًا من شدة التأثر.

في الوقت الذي كان يوتو يساعد جدته في البيت للبحث عن شيء في المخزن وجدا معًا ذلك الحوض ثم غسلاه معًا بماء الخرطوم، وبحثا معًا في الإنترنت عن الرمال ومضخة الهواء وكل المستلزمات المطلوبة وذهبا لشرائها. وحتى التركيب فعلاه معًا.

شعرت ريئه بالسعادة عندما علمت أن قلبَي أمها وابنها متصلان بعضهما ببعض وهي لا تعرف. حبيباها يتحابان. بل وليست هناك حاجة لكي تكون وسيطًا بينهما. كانت تلك فرحة عجيبة، مجرد فقط أن تتخيل الأحاديث التي تدور بينهما، تدغدغ الحرارة صدرها.

بل ومع أنهما يتشاركان في الحزن ويتشاركان في الوحدة، يراعي كلٌّ منهما مشاعر الآخر، ويحاول التقليل من شعوره بالوحدة.

من صفات يوتو سرعة الملل من الأشياء، يتحمس في عمل شيء، ثم يفقد فجأة اهتمامه به، لكنه لم يتخلف قَطُّ عن رعاية وتربية ذلك السمك الذهبي وحتى الآن لم يسبق أن سبب إزعاجًا للأسرة بسببه ولو مرة واحدة. ولم يتغير الوضع حتى وقت موت «أبيه اللاحق».

امتلأ مرأب الحديقة الذي عادة ما يكون فارغًا، عن آخره بسيارات من داخل وخارج المحافظة.

كان يومًا مشمسًا من أيام الخريف الرائعة، وزهور الكوسموس التي يقال إنها وصلت إلى ثلاثة ملايين زهرة تحيط بالمقابر الأثرية الدائرية التي يزيد قطرها على خمسة وثلاثين مترًا، وكأنها سرَّة لها، وغطت الحديقة بالكامل على مدى البصر. تتألق الزهور المسنودة إلى السيقان الخضراء بألوانها الحمراء والوردية والبنفسجية وتحيط بها السداة والمتاع بألوانها الصفراء.

كانت عادة الأسرة منذ أن كانت ريثه طفلة الذهاب لمشاهدة تفتُّح الزهور المتنوعة في كل فصل على حدة، في الصيف عباد الشمس، وفي الربيع الكرز ثم الشلجم. مشروع بدأته بلدية المدينة من أجل تلوين مشهد المقابر الأثرية الكثيف الذي يوحي وجوده بالماضي فقط في الحديقة العملاقة التي تتناثر فيها ٣١٩ مقبرة أثرية بأحجام مختلفة.

واسم «هانا» جاء من إعجاب زوج ريثه الراحل بهذه المناظر ولذا فهي «حديقة هانا».

كان طريق التنزه الذي أُنشِئ بترتيب وتنسيق وسط حقول الزهور، ممتلئًا وصاخبًا بالعائلات ويُرى عديد من هواة التصوير الذين يحملون آلات تصوير ضخمة مع الحامل الثلاثي لها. ولم تكن الرياح باردة بل كان طقسًا مشرقًا يتمنى المرء أن يدوم طوال العام.

– قفي يا هانا بجوار الكوسموس. هل ما زلتِ أنت الأصغر؟

بعد أن تحدثت إليها جدتها وقفت هانا أمام حقول الزهور، وألحت على أمها لكي تصورها. كانت متعتها هي مقارنة طولها بطول زهور الكوسموس وأخذ صورها والنظر إلى تلك الصور ومقارنتها بالقديمة. ولو تغافلت عنها فلن تستطيع رؤيتها من بين زهور الكوسموس لذا حتى العام الماضي كان عملًا شاقًا أن تجري وراءها وتلاحقها كلما جرت بعيدًا عنها. أمسكت الهاتف الجوال واستعدت للتصوير، لكن كان تخطي قامتها لطول الكوسموس ربما يتحقق العام المقبل أو الذي يليه. جاءت رياح خفيفة فاهتزت الزهور التي تقف مستقيمة يمينًا ويسارًا وكأنها تحاول أن تطيل من قامتها لترى من بين الأشخاص الآخرين ريئه وأسرتها.

ظل يوتو صامتًا من بعد نزوله من السيارة، يضع يديه في جيبَي معطفه الرمادي المضاد للرياح، وكأنه يحمل شيئًا ثقيلًا على بطنه مما جعل بطنه يتدلى إلى أسفل. ثم كان يتأمل شاردًا زهور الكوسموس وهو لا يغفل عن أخته الطفلة.

اختلست ريئه النظر إلى جانب وجه ابنها قليلًا وهي تتأمل ظهره وتفكر: تُرى ما مشاعر مَن يفقد شقيقه الأصغر ثم جده ثم «والده» على التوالي خلال مدة قصيرة! لقد طالت قامته فجأة في هذا العام فقط، لكنه ظل نحيلًا بما يتناسب مع تلميذ في المدرسة المتوسطة.

إن الكبار أنفسهم يشعرون بالعدم، وكأن الجزء الأهم من أنفسهم قد نُزِع منهم، وبذلك فقدوا توازنهم ويقفون حاليًا على أقدامهم بصعوبة بالغة وهم يترنحون. وفكرت الآن بعد فوات الأوان أن ذلك الطفل يحاول أن يتحمل ذلك الألم داخله في صمت. ويحاول أن يحافظ على توازنه النفسي بقراءة الكتب، والتحدث عن السمك الذهبي، ورعاية شقيقته. عندما تفكر هكذا، تصبح مشفقة عليه من كل قلبها وتراه يستحق الرثاء مع أنه ابنها. عندما مات ريو لم يكن يدرك جيدًا بعد ماهية الموت ذاته، لكنه بدأ بعد ذلك يشعر بأشياء متنوعة، وأصبح يفكر. حتى ريئه نفسها التي لم تخُض

في طفولتها تجربة موت أحد أقاربها الأقربين، في سن المراهقة كانت تفكر في الموت تفكيرًا متذبذبًا.

تعلق يوتو بـ«أبيه» أكثر من هانا ابنته الفعلية ربما بسبب طبيعة عمره الذي عاش فيه معه. تفكر ريثه دائمًا فيمَ هو الشيء الذي تستطيع تقديمه له بوصفها أمه، لكن وقتها فكرت بتناقض أنها تتمنى من أعماق قلبها لو أن زوجها بقي حيًّا لكي تستشيره.

شعرت وكأن الأحزان تنهار تدريجيًّا من دون صوت مع مرور الأيام وتصبح مبهمة الشكل. تتساقط كالقطرات وسط تتابع الزمن، أو على الأقل يتجه القلب ليصبح أخف حملًا. وبفضل ذلك كانت تشعر بالطمأنينة أنها تبتعد تدريجيًّا عن المأزق، لكنها من حين إلى آخر تشعر في عمق جسدها بوحدة تتغلغل ببطء وتختلف تمامًا عن الوحدة المرعبة التي تشعر بها بعد الموت مباشرة.

باتت ريثه تفكر في عمرها أكثر مما كانت تفعل في السابق. لا يعدم الأمر وجود مَن يشجعها على الزواج مجددًا، لكنها كانت إزاء ذلك تهز رأسها نافية بابتسامة وهي تقول فقط «لقد اكتفيت».

مات والدها في السابعة والستين من عمره، وعندما تفكر في ذلك تجد أنها وصلت من زمن بعيد إلى منتصف عمره. وعندما تفكر في الموت تشعر بالخوف. لكن يقل قلقها عندما تفكر أن والدها وابنها ريو ينتظرانها. إنه الموت الذي استطاع حتى ريو تقبُّله في عمره الصغير. ذلك الموت الذي لم تستطِع هي أن تفتديه بنفسها. وعلى العكس تشعر بالرغبة في الذهاب إليه سريعًا عندما تفكر أنه قد يتعب من الانتظار في وحدة وملل. تُرى مَن الذي يرعاه هناك؟ كانت تريد أن تعتذر إلى ريو لأنها أجبرته على ذلك العلاج غير الضروري الذي عاناه معاناة شديدة. كان ذلك فقط هو ما تريد فعله بأي شكل ومهما كان الثمن.

تُرى منذ متى بدأت تفكر هكذا؟ أي تفكر أن موت ابنها ليس في الماضي

فقط، بل إنه ينتظرها في مستقبلها هكذا؟ لا يبتعد عنها بل يقترب منها شيئًا فشيئًا. لتعاستها لم تكن تستطيع الإيمان بذلك. فيُفترض أن تجعل ريو ينتظرها في الجنة لمدة تقترب من الأربعين عامًا. لكنها لا تستطيع ذلك. ومع ذلك تفكيرها أن أحب أحبابها سبقوها بالموت، هدَّأ خوفها من الموت، ودعم حياتها في الوحدة وإن كان ذلك التفكير غير لائق.

لم تستطِع أن تتخيل أن والدها سوف يستمر في الكبر في عالم ما بعد الموت. لكن ماذا عن ريو؟ لو كان حيًّا لكان الآن في الحادي عشر من عمره. ولقد أنقذها انتقالها من السكن، من رؤية أقرانه في روضة الأطفال وهم يكبرون. لكن مع ذلك، حتى هؤلاء الأطفال الذين كانوا يمشون بتثاقل وهم يضعون «الحفاضات»، سيرتدون الزي الموحد بعد عامين ويذهبون إلى المدرسة المتوسطة!

العام المقبل سيمر على موته عشرة أعوام. يا لسرعة مرور الزمن! هكذا فكرت ريئه. ثم كررت ذلك في سرِّها: «يا لسرعة مرور الزمن!».

جاءها اتصال من كيدو وقال لها إن ثمة تطورات في القضية، وإن كانت هوية «X» ما زالت مجهولة كما هي. ولم تكن تستطيع أن تستعجله وهي توكِّله بمقابل أجر زهيد، وكانت تخاف معرفة الحقيقة التي على الأرجح ليست مشرقة. لكنها مع ذلك تريد أن تعرف مَن زوجها؟ ليست هويته فقط، بل ماضيه نفسه ما زال محاطًا بضباب كثيف.

كانت تعرف أنها تختزن داخلها لومًا تجاه ذاتها، لأنها تركت فوق كتف يوتو موت «أبيه» غامضًا. لكن مؤخرًا، مع وجود بعض من الحزن، إلا أنه لم يعد يتحدث إليها مباشرة بشيء محدد مثلما فعل وهو فوق سريره.

عندما وصلوا إلى طريق أشجار الكرز التي ذبلت في الشتاء سألته:

– ماذا كنت تقرأ في البيت منذ قليل يا يوتو؟

– لا شيء.

- ما من كتاب اسمه لا شيء، أليس كذلك؟
ضحكت وهي تهز كتفيها.
- كتاب لريونوسكيه أكوتاغاوا.
- أنت تحبه كثيرًا! لقد قرأتُ له في الماضي قصتَي عربة المنجم، وعصيدة اليام.
كان يوتو مطأطئ الرأس كأنه لا يريد مشاركتها مشاعره.
- ما محتوى القصة؟
- ليست قصة. بل ما يشبه الشعر.
ثم قال يوتو اسم الكتاب لكنها لم تسمعه.
- ماذا قلت؟
- «حدائق أساكوسا».
- هل هو عمل من أعمال ريونوسكيه أكوتاغاوا؟
- أجل.
- يحكي عن ماذا؟
لوى يوتو عنقه مبديًا ملله من الحوار.
- قُل لي. فأنا أمك!
- يمر البطل من أمام محل بيع زهور صناعية، فتخاطبه زهرة الزنبق الأرقط بالقول «انظر إلى جمالي». يرد عليها البطل «ألستِ وردة صناعية؟».
تسربت ضحكة من فم ريئه وقالت:
- ما هذا؟ قصة عجيبة! أذلك مشوِّق بالنسبة إليك؟
- أجل. لكن فهمه صعب.
- بدأتَ تدريجيًا تفكر في أشياء لا تفهمها حتى أمك. دعني أقرأه بعد أن تنتهي منه.
- كلَّا.
- لماذا؟

- لقد وضعتُ خطوطًا تحت السطور.

ابتسمت وهي تنظر إلى جانب وجه ابنها بحب.

- إذن سأشتريه أنا أيضًا وأقرأه.

- أعتقد أنه لن يكون مشوِّقًا بالنسبة إليكِ.

- انتبه لكلامك يا وقح!

أخيرًا ضحك يوتو قليلًا.

- حتى وإن لم يكن مشوقًا، فأنا أريد أن أعرف نوعية الكتب التي تهتم بها.

- لا داعي لأن تعرفي.

- إذن سأقرأه من دون أن يكون لذلك علاقة بك.

- حسنًا، يكفي الكلام عن كتبي عند هذا الحد.

حك يوتو رأسه وهو يهز جسمه وكأنه ينزع منه تدخل أمه في شأنه. ثم بعد أن تأكد مما تشاهده جدته وأخته الجالستان في المقعد الخلفي للسيارة من النافذة قال لأمه:

- هل تتذكرين أيًّا من تلك الأشجار هي شجرة أبي؟

- أتذكرها جيدًا. تلك التي هناك، أليس كذلك؟ الثالثة من هنا، التي تميل أغصانها هكذا.

كان يوتو يشير إلى الذي حدث بعد زواج أمه بـ«أبيه اللاحق» حيث جاءوا إلى هنا، واقترح الأب أن يختار كل واحد منهم شجرة كرز يحبها ويجعلها شجرته.

كانت شجرة رينه ما زالت في الأمام. أما الشجرة التي اختارها يوتو فكانت على بعد شجرتين من شجرة الأب. ولأن هانا كانت جنينًا، فقد اختار يوتو لها شجرة. والأمر العجيب أنه عندما يقرر المرء ذلك مرة، لا تعود تلك الشجرة تشبه الأشجار الأخرى أبدًا، بل يصبح متعلقًا بها تعلقًا خاصًّا.

وبعد ذلك كلما جاء الربيع، كانت العادة أن يأتوا إلى هنا ويقارنوا أشجارهم، أيها تفتحت زهورها أكثر وأجمل. وفي الربيع التالي لموت

الأب، أصبحت شجرة يوتو أجمل وأكبر شجرة بين أشجار الأسرة مع أنها كانت في العام الذي سبقه أقل جمالًا من شجرة الأب. كان يوتو يريد أن يُبلغ ذلك لأبيه أمام مقبرته، لكن ظلت تلك الأمنية من دون تحقق.

ولم تصحب ريئه الأسرة في ربيع هذا العام لمشاهدة أشجار الكرز.

وقفت ريئه أمام شجرة كرز زوجها الراحل العارية تمامًا ونظرت إليها عاليًا. وسط الحديقة التي زُرع فيها ألفا شجرة كرز، بالطبع لم يرَها جميعًا ويفحصها شجرة شجرة، لكن في كل الأحوال كان زوجها يحب هذه الشجرة، ومنذ ذلك الوقت ومع تغير الفصول كان يأتي إلى هنا ويتأملها كما لو كانت هويته.

ما زالت ريئه لا تعرف مَن يكون! لكنه شخص يشعر بالحب تجاه هذه الشجرة خاصة، مِن بين العديد من الأشجار.

– مرت ذكرى وفاته هذا العام من دون أن تبني مقبرته يا أمي.

قال يوتو ذلك بنبرة صوت سيطر عليها إلى درجة أن ريئه فكَّرت؛ حتى الأطفال يستطيعون التحدث بتلك الطريقة!

لم تعتقد أنها يمكنها أن تشرح له الأمر كله في هذا المكان، لكنها تكلمت بعد أن شعرت بأنها لم يعد يُسمح لها بإجابة غامضة.

– هناك أمر كتمته عنك طويلًا.

– ماذا؟

– أبوك! لم يكن اسمه الحقيقي دايسكيه تانيغوتشي!

– ماذا؟!

– أنا نفسي لم أكن أعرف ذلك. لكن بعد موته علمت أنه ليس اسمه الحقيقي. لقد جاء شقيق دايسكيه تانيغوتشي الحقيقي وأخبرنا أن أباك ليس شقيقه الأصغر.

– لا أفهم شيئًا مما تقولين!

– كان ينتحل اسم شخص آخر.

كان يوتو يبدو على وشك التحدث، لكن ارتعشت عيناه فقط.

- ما اسمه الحقيقي إذن؟

- نحن نبحث عن ذلك طوال الوقت. ذهبتُ إلى الشرطة، ثم استعنت بمحامٍ.

- إذن مَن يكون؟

- لم نعرف بعد. ولذلك لا أستطيع بناء المقبرة.

- ماذا يعني اسمي «يوتو تانيغوتشي» إذن؟

- تانيغوتشي هو الاسم الذي انتحله أبوك لمدة من الزمن. اسم شخص لا نعرفه ولا علاقة لنا به أو صلة.

- لذلك رجعتِ يا أمي إلى اسمك القديم؟

بعد أن أومأت ريئه، كان يوتو يتأمل وجهها وهو في حالة ذهول. كان على ما يبدو لا يعرف ما المشاعر التي يمكن أن يتركها تعبِّر عما يحس به من ارتباك.

- ماذا إذن عما حكاه لي أبي؟ بيت أسرته في ينابيع إيكاهو، ومشكلاته معهم حتى هروبه من البيت!

ترددت ريئه مرة لكنها عدلت عن تفكيرها ونظرت إلى عينَي يوتو وقالت:

- إنها على ما يبدو حكاية ذلك الرجل المُسمَّى «دايسكيه تانيغوتشي» وليست حكاية أبيك.

- هل كذب أبي عليَّ؟

شد يوتو ملامح وجهه الذي شحب، وصمتت ريئه وهي تومئ مرتين.

- ما هذا؟ هل خُدعنا جميعًا؟ ماذا؟ ما السبب؟ لماذا كذب علينا؟ ماذا فعل؟

- لا أعلم. أنا أيضًا لا أعلم. ولذلك لم أستطِع أن أشرح لك الأمر، وفكرت أن أخبرك بكل شيء بعد أن أعرف ولو قليلًا عنه، لكنني ما زلت لا أعرف شيئًا.

توقفت الكلمات قليلًا على لسانها.
في النهاية اقتربت هانا وهي تقفز ممسكة بيد جدتها.
- انظري يا أمي! شجرة أبي!
- أجل.
- إن هانا تعتقد الآتي، إممم، لقد فكر أبي أن هانا ستأتي اليوم مع الجميع، فدخل في الشجرة ليختفي داخلها.
ابتسمت ريئه وهي تنظر إلى وجه هانا وتقول:
- أجل هو كذلك.
وكانت تنتبه لكيلا تبعد عينيها عن يوتو.
- اسمعي يا أمي. صوريني صورة.
- أجل، هنا؟ أمام شجرة أبيك؟
- أجل. ثم بعد ذلك صورة أمام شجرة هانا.
عندما وقفت هانا أمام شجرة أبيها وقفت بجوارها جدتها وفعلت مثلها.
كان يوتو يقف من دون أن يتحرك فحثته جدته فاقترب منهما متثاقل الخطى.
- هيًا! اضحكوا!
حثتهم ريئه على ذلك وأمسكت هاتفها الجوال فرأت يوتو داخل الشاشة لا يضحك مطلقًا بل يحملق إليها.
ضغطت على زر التصوير فأصبح ذلك الوجه كما هو بالصورة.
- تعالي أنتِ أيضًا إلى هنا، سأصوركم أنا!
أمسكت ريئه يد هانا كما قيل لها، ووقفت بجوار يوتو لكنها لم تعرف ما ملامح الوجه التي يجب عليها أن تعطيها لوجهها.



١٢

في بهو محكمة يوكوهاما المحلية ذي الأعمدة المفرغة من الجدران، كان كيدو يتحدث واقفًا مع الوالدين اللذين يوكلانه في القضية التي أنهى كيدو لتوه جلستها الخامسة من دفاع المدعي بالحق المدني. إنها قضية الموت بسبب كثرة العمل التي يتولاها لما يقرب من عامين، لقد ارتفع نقد الرأي العام تجاه سلسلة المطاعم والحانات المدعى عليها، وبدأ التحرك تجاه التصالح.

كان من المنتظر بعد ذلك أن يكون ثمة شرح في لجنة تقديم تقرير بالتعاون مع نقابة العمال عن جدول التقاضي، وكان كيدو يتأكد منهم من سياسة التعامل مستقبلًا. نظر الأب إلى عينَي كيدو وقال:

- أستاذ! ليس المهم الفوز أو الهزيمة، أنا أريد أن أعرف حقيقة ما حدث فعلًا. أن أعرف ما الذي دعا ابني إلى أن يموت!

أكد كيدو ما ظل يؤكده حتى تلك اللحظة بالقول:

- أجل بالتأكيد.

ثم أومأ لكي يُظهر أنه يفهم ذلك تمامًا.

كان شَعره الأبيض غزيرًا مع أن الجبهة فقط عريضة وواسعة، وأغلبه أبيض وقد قصه بتناسق جيد ليكون قصيرًا.

تحتوي عيناه اللتان تشبهان دمج مسطرتين مثلثتين معًا، على لمعان وكأنهما مبللتان، وفوقهما حاجباه اللذان يصنعان دائمًا خطين مائلين. كان

الرأي العام يشارك ذلك الأب الذي لا تستطيع إلا أن تشفق عليه مشاعره، ويتعاطف مع قضية الموت من كثرة العمل تلك كلما ظهر في وسائل الإعلام.

- لنواصل الجهد معًا. القضية تتجه لصالحنا.

لم يبدُ أن موكله قد أعطاه بتلك الجملة ذات الصياغة الاعتيادية المكررة، أي شجاعة، لكنه كان يبدو أنها استدعت مشاعر عارمة بتلك النبرة التي ألفها على مدى عام كامل.

- إنك ساعدتنا كثيرًا. في البداية لم نكن نعرف ما يجب عمله وكنا في حالة اضطراب وحيرة فقط، لكن إن كنا قد استطعنا أن نتحمل ونواصل بروح معنوية قوية فهذا بفضلك يا أستاذ. فمن المفروغ منه القول إن ابني لن يعود إليَّ من خلال التقاضي.

لم يجد كيدو ما يقوله إزاء تلك الكلمات التي تقبلها بكل جدية إلا أن يكرر: «لنواصل الجهد معًا!»، لكن تأثر قلبه بكلمات موكله تلك التي لا يمكن مطلقًا الشك في أنها نابعة من القلب.

في ذلك اليوم ظل كيدو طوال اليوم متعكر المزاج، لأنه صرخ في وجه ابنه الذي كان يتكاسل في الصباح ولا يريد تغيير ملابسه.

لقد ذهبت زوجته في رحلة عمل إلى أوساكا منذ الليلة الماضية، لذا كان كيدو وسوتا وحدهما في البيت.

تناولا وجبة العشاء في مطعم عائلي، ولم يتغير شيء في عادات دخول الحمَّام والنوم، لكن في هذا الصباح عندما استيقظ كيدو وجده في غرفة المعيشة يشاهد بمفرده على أسطوانة مدمجة فيلم الرسوم المتحركة «دورايمون»، وبعد ذلك عندما حاول أن يجعله يتناول وجبة الفطور أو يغسل وجهه، كان يتحرك بكسل وتباطؤ. قلق كيدو في البداية من أن يكون مصابًا بنزلة برد، لكن لم تكن حرارته مرتفعة، وهو نفسه قال إنه لا يشعر بالمرض. لكنه مع ذلك ظل مهما مر الوقت لا يحاول الجلوس إلى مائدة

الطعام. ولذا تدريجيًا أصبحت نبرة حديث كيدو إليه أكثر صرامة. كان لدى كيدو في ذلك الصباح موعد في الساعة التاسعة والنصف، فظل يستعجله وهو ينظر إلى الساعة.

كان سوتا خلال هذين الأسبوعين في حالة غير مستقرة. كانت كاوري توبخه إذا لم يؤدِّ واجبات الدروس الخصوصية للحساب في مدارس «كومون»، وكان كيدو وهو في الأساس يعارض تربية الأطفال المتشددة في التعليم، يحمي ابنه بالقول: «سيتعلم الطفل الجمع والطرح إن آجلًا أو عاجلًا، ولا ضرورة لفعل كل ذلك من أجله» ويتشاجر مع زوجته. كان يعلم جيدًا من خلال استشارات الطلاق أن تعليم الأطفال سبب عميق الجذور من أسباب سوء العلاقة بين الزوجين، ومع ذلك، لم تكن العلاقة صحية بحيث يمكنهما التحاور حول شيء بهذه البساطة حوارًا هادئًا. حسبما يرى كيدو فقد كانت كاوري ذاتها مصابة بإرهاق شديد من إرساله واستقباله من وإلى مدرسة «كومون»، وحتى ذلك القول الذي قاله بنية مراعاة تعبها كان كأنه صب الزيت على النار.

وبذلك أصبح سوتا يتلقى من والدته توبيخًا أعنف وأشد مما سبق.

لقد فكَّر كيدو لأوَّل مرة في الطلاق لما رأى سلوك كاوري تجاه ابنهما. كان من الواضح أن زوجته تحت ضغط نفسي هائل من حياتهما الزوجية تلك، بل وصل الأمر إلى أن كيدو الذي لا يكرهها في الأساس بوصفها إنسانًا شعر بأنها لو تزوجت مرة ثانية شريكًا آخر لربما عادت إلى شخصيتها الهادئة المستقرة التي كانت عليها في السابق.

ليس من السهل معرفة هل تحبه أم لا! وإن سُئل وهل تحبها أنتَ إذن؟ تتوقف الكلمات على لسانه، لكنه لم يستطِع أن يقول إنه لا يحبها.

لم يكن الأمر نتيجة صراع وقتي عنيف، بل استمر كيدو يفكر في طريقة إصلاح العلاقة التي بدأت تنهار بهدوء بعد مرور عشرة أعوام من الحياة

الزوجية. استمرا خلال الستة أشهر الماضية، في العيش معًا من دون أن يلمس كلٌّ منهما إصبعًا من الآخر، بين جسديهما مسافة تشبه المسافة بين الأغراب، حذرة حتى من مجرد أن تلمس إصبعان بعضهما بعضًا على سبيل الخطأ.

ومع ذلك كان من المؤكد أن كاوري من جانبها تحاول أن تبذل جهدها للتوقف.

كانت تحترس بكل ما أوتيت من قوة من أن تصبح عصبية وتنفجر عواطفها تجاه زوجها، ومقابل ذلك، أصبح توبيخها لسوتا يزداد عنفًا مع الوقت. فلم يسبق له أن رآها على هذا النحو ولو مرة واحدة خلال حياته معها على مدى عشر سنوات.

أما سوتا فهو أيضًا مع تطور نمو «الذات» الطبيعي جدًّا بات يتمرد على الأوامر التي تنهال عليه، فساءت علاقته مع والدته، وليس أمامنا إلا القول إنها حلقة مفرغة.

لمَّح كيدو بذلك إلى كاوري لكن كان ذلك غير كافٍ مطلقًا، وكأنه يمد يده برعب إلى علاقتهما الزوجية التي يبدو أنها ستنهار إن لمسها. ومقابل ذلك كان يواسي سوتا في أثناء استحمامهما معًا، أو في غرفة الأطفال عندما يذهب معه ليجعله ينام. ويستمع منه إلى حديثه وهو يحتضنه، لكن شعر بكراهية الذات تجاه سلوكه هذا الذي لا يمكن وصفه إلا أنه خداع. كان ذلك بعيدًا جدًّا عن صورة الأب التي يريد أن يكونها.

كان يعرف ويتفهم أنه سبب ما يتراكم داخل زوجته من مشاعر كراهية. لكن في كل مرة يحاول أن يطأ سبب الغضب الأساسي في عمق شكوك زوجته البلهاء أنه يخونها، كانت قدما كيدو تتراجعان على الرغم منه. وهكذا كان بحثه عن «X» طلبًا للهروب من الواقع لفترة قصيرة.

لو أن العلاقة الزوجية فقط هي المشكلة لما كان يمانع. لكن سوء العلاقة بين الزوجين يصل تأثيره السيئ إلى الأطفال، وهي حالة لا يمكن أن يتقبلها مطلقًا ويريد أن يفعل المستحيل لكي يتجنبها.

لم يكن كيدو يملك رأيًا جوهريًّا محددًا تجاه تربية الأطفال، لكنه يرى أنه ما من شيء آخر يفوق أن يجيء يوم في المستقبل يؤمن فيه سوتا من دون أي ذرة من الشك بأنه نشأ محبوبًا من والديه. وبالطبع يُفترض أن كاوري نفسها توافقه على ذلك الرأي.

كان سوتا لا يتمرد مطلقًا على والده. وكان كيدو مع كرهه لحنانه المغشوش، كانت النتيجة، أنه يحمل وهمًا خادعًا أنه جرى بناء علاقة ثقة مع ابنه ذات صفات خاصة. لكن عندما تغيب زوجته عن البيت، كان مَن يوجه سوتا له ذلك الإحباط النفسي هو والده وكأن ذلك هو الطبيعي.

ومع أن كيدو كان يتفهم ذلك فهمًا كاملًا، إلا أنه غضب من تمرد سوتا في النهاية بانفعال عاطفي لم يستطِع كبح جماحه، وألقى بالجورب الذي لا يريد أن يلبسه سوتا بعيدًا ووضع يده على رأسه وصرخ فيه: «توقف عن العناد!».

لم يكن ذلك مجرد وضع يده على رأسه فقط. على الأرجح من خلال سلوكه هذا الذي كان يريد منه أن يصغي إليه جيدًا، أنه ضربه على رأسه. ثم انتبه على الفور لذلك، وحاول بلا وعي تقريبًا أن يُخفي ذلك فلم يبعد يده عن رأسه. توقف سوتا عن البكاء وأصابه الرعب. تأمل كيدو بغضب شديد يده التي تمسك برأسه كقبضة النسر الكاسر. كان يتجمع فيها كل ملامح الكراهية تجاه العنف من دون أن ينقص منها ذرة.

شعر وكأن شيئًا ما في منتهى القذارة قد انفجر داخل صدره. وعندما ابتعد كيدو عن ذلك المكان فترة، ثم عاد، حضَن في النهاية ابنه الذي كان ينشج بالبكاء بوجه فاقع الاحمرار وهو يلبس الجورب، وأوقف نحيبه. أوصله بهذه الحال إلى روضة الأطفال صامتًا، لكن في اللحظة التي اختفى فيها ظهر ابنه عن عينيه، سيطر عليه الندم، وأضحى في منتهى البؤس.

في كل مرة يلمس أمثلة مأساوية لتعنيف الأطفال في دعاوى الطلاق، بجانب مشاعر الأسى على الأطفال، يتعاطف إلى حدٍّ ما مع الآباء والأمهات

الذين يولدون بتلك الصفات الشخصية التي تجبرهم على فعل ذلك، والذين يوضعون في مثل تلك الظروف التي تضطرهم إلى ذلك الفعل، لكن هذا لأنه كان يعتقد أنهم بشر يختلفون عنه اختلافًا تامًّا.

لكنه لأوَّل مرة في حياته يفكر بجدية أنه لو كانت معيشته الحالية أكثر تعثرًا، لربما كان أبًا يعنِّف ابنه. وأضر ذلك التفكير بثقته تجاه إنسانيته ضررًا خطيرًا. لقد حضنه في النهاية وطيَّب خاطره، لكن يبدو أن ذلك هو النموذج التقليدي المعتاد لجناة العنف الأسري الذين يكررون فترات العنف وشهر العسل.

وعندما ذهب بعد الساعة السادسة بقليل ليأخذه من روضة الأطفال التي تقع داخل مبنى محطة قطار الحي الصيني، أسرع سوتا بترتيب لعبة المكعبات التي كان يلعب بها مع أصدقائه، وجرى ناحيته وتملأ وجهه ابتسامة عريضة.

قالت له المربية إنه قضى طوال اليوم من دون مشكلات، ثم بعد أن تودد إلى أصدقائه وكأنه حزين على ترك اللعب معهم، حياهم بالتحية المعتادة: «مع السلامة»، ثم غادرا الروضة.

كان يومًا به رياح بحرية شديدة. وتتألق أنوار أشجار الطريق المزينة بسبب أعياد الميلاد في ظلام لا يسمح إلا برؤية ظلالها فقط. وعندما كانا ينتظران إشارة المرور وهما ينظران بأطراف أعينهما على حي موتوماتشي الصاخب، استمر رجل في ركل أعمدة الإضاءة لسبب مجهول.

قبض كيدو بحزم وقوة على يد سوتا، وابتعد عن ذلك الرجل بضع خطوات. بقي ذلك الرجل في مكانه حتى بعد أن تغيرت الإشارة إلى اللون الأخضر، ولذا اختفى على الفور من مجال رؤيته. لم يقُل كيدو شيئًا، لكن سوتا كذلك اجتهد في السير مسرعًا.

في كل إشارة مرور كانت تهب عليهما رياح باردة من بين المباني. أحسَّ

كيدو وهو يغلق أزرار معطفه الأمامية بأنامل سوتا التي خرجت من يده التي تمسكه.

- هل تشعر بالبرد؟ هل أنت بخير؟
- أجل بخير. أبي!
- ماذا؟
- لماذا يستطيع ألترامان أن يتكلم مع أن فمه مغلق لا يتحرك؟
- ماذا؟ تُرى لماذا؟

ضحك كيدو وعوج رأسه. شرح له سوتا بحماس شديد إلى أي درجة ذلك أمر غريب، وعيناه مفتوحتان على وسعيهما.

- أجل. لكن ألترامان يطير ويصدر من يديه أشعة فضائية، فليس من الصعب عليه أن يتكلم من دون أن يفتح فمه، أليس كذلك؟

فكر كيدو أن هذا شرح وجيه مع أنه شرحه، لكن بدا أن سوتا لم يفهم ذلك المنطق.

بعد العودة إلى البيت، أكلا معًا معكرونة اسباجيتي بصلصة اللحم، وهامبرجر مجمدًا بعد أن أعيد تسخينه. ثم قَبِل أن يشاهد سوتا التلفزيون، وضعه فوق ركبتيه على الأريكة، واعتذر إليه قائلًا:

- أعتذر إليك لأنني انفعلت عليك بصوت عالٍ في الصباح.

أومأ سوتا:

- نعم.

لكنه كان متلهفًا لمشاهدة التلفزيون أكثر من أن يحصل على اعتذار.

- في الصباح كنتُ مستعجلًا لأنني على وشك التأخر على العمل، وأنت أيضًا كنتَ ستتأخر على الروضة، أليس كذلك؟ ولذلك غضبتُ.
- بلى.
- في صباح غدٍ - انظر إليّ - لنستعد جيدًا كيلا نتأخر.
- نعم.

- إذن لننهي هذا الحديث. لا بأس أن تشاهد التلفزيون.
قال كيدو ذلك ثم مسح على رأس ابنه مرة ثانية، وحضن جسمه الصغير.

ثم انتهيا من الاستحمام معًا ودخلا غرفة الأطفال الغارقة في الظلام التام، قال سوتا لكيدو وهما نائمان معًا فوق السرير:
- أبي!
- ماذا؟
- لو كنتُ أنا وأنا المزيف نقف أمامك، هل ستعرف أنا الحقيقي؟
- ما هذا؟ ماذا تعني؟
قال له سوتا إنه في كتاب رسوم الأطفال المُسمَّى «أن پان مان» الذي قُرِئ عليه في الروضة ظهر «باي كين مان» متنكرًا في صورة «أن پان مان».
- آه، هل هذا ما تقصد؟ بالطبع سأتعرف عليك. لأنك ابني.
- كيف ستعرفني؟
- سأعرفك بمجرد رؤيتك. ومن الصوت مثلًا.
- ولو كان المظهر والصوت متشابهين؟
- لو كانا كذلك، إذن سأسألك عن ذكرياتنا معًا. أين ذهبنا في رحلتنا العائلية في عطلة الصيف الماضي؟
- هاواي!
- أجل. المزيف حتى وإن قلَّد الشكل الخارجي، لن يعرف الذكريات.
- حقًّا؟ أنت رائع يا أبي! إذن لو وُجد أبي مزيف فمن الأفضل أن أسأله عن ذكرياتنا معًا، أليس كذلك؟
- بلى.
- حسنًا، عندما ذهبنا إلى هاواي، هل أكل أبي قطعة من اللحم المشوي الضخمة جدًّا بحجم كبير أم لم يأكل؟
- أكل. لكن بطريقة السؤال هذه ربما حتى الأب المزيف سيعرف الحل.

وفي أثناء تتابع مثل هذا الحوار بينهما أصبحت الردود تتباعد تدريجيًّا، وفي النهاية بات يسمع من جانبه تنفُّس ابنه الصغير في أثناء نومه. بعد أن انتظر كيدو أن يتعمق هدوء ذلك الصوت في وسط الظلام، أعاد تغطيته باللحاف، وغادر الغرفة بهدوء شديد.

بدأ في تزيين شجرة عيد الميلاد التي عزم اليوم على الانتهاء منها بعد أن أجلها طويلًا، فشغَّل قرصًا مدمجًا للثنائي الجميل المكون من ماساهيكو توميكاشي وماساكي كيكوتشي. وعندما فتح الصندوق، وجد لمبات الزينة الذهبية والفضية موضوعة داخله بحالتها نفسها من دون اختلاف واحد منذ أن وضعها هو بنفسه في العام الماضي.

تذكر وهو يتأمل تلك الشجرة المزيفة أن استشارة ريئه له بخصوص «X» كانت في ذلك الوقت بالضبط من العام الماضي. اندهش بشدة من سرعة مرور العام مع أنه شعور مبتذل.

استعاد ذكريات تلك الليلة التي شرب فيها الفودكا بمفرده بعد أن ذهب مع سوتا لينام في غرفة الأطفال. فكر من دون وعي في ذلك الشعور الطاغي بالسعادة الذي أحسَّ به في تلك الليلة البعيدة.

بعد أن انتهى من تركيب الشجرة وضعها بجوار النافذة، وأدلى من فروعها كرات الزينة والنجوم، وفي النهاية لفها بالزينة المصنوعة من لمبات الليد. وبعد أن انتهى وجد أن تركيبها استغرق خمسين دقيقة. أضاء لمبات الزينة ثم أطفأ أنوار الغرفة وتأملها من على بُعد. انعكست على سطح زجاج النافذة التي تطل على الشرفة صورة الغرفة التي يقف فيها وحيدًا تمامًا.

فكر أن يواصل الشرب قليلًا، لكن عندما بدأت الأغنية الاستثنائية «كل ما هو أنت» التي تتكون من عزف منفرد على البيانو من كيكوتشي فقط، لم يستطِع التحرك من مكانه فترة.

كان الإيقاع وكأنه يفكك الزمن في بطء إلى أجزاء. تقطر النغمات بعد

أن تصير قطرات رائقة، قطرة قطرة في هدوء، فتنتشر الموجات بعضها فوق بعض داخل الشقة الهادئة تمامًا.

تأمل كيدو مظهر تغير لمبات شجرة عيد الميلاد في نمط واحد محدد ومتكرر، وهو يكتم أنفاسه. داخل اختلاط ذلك الصوت نفسه وتوقعه أكثر من الموسيقى ذاتها.

وأخيرًا سمع صوت وصول رسالة على تطبيق «لاين» من هاتفه الجوال الموضوع فوق المائدة. كانت الرسالة من كاوري:

> هل الأمر على ما يرام؟
> هل سوتا لا يزعجك؟

كان من النادر أن تتواصل معه في أثناء رحلات العمل، لكن ربما تكون قلقة على عدم الانسجام بينهما مؤخرًا. تمنى أن تكون الرحلة فرصة كي يعتدل مزاجها ولو قليلًا، ولذا فرح كيدو من تلك الرسالة المكونة من سطرين فقط. قالت إنها مع رئيسها الجديد، ويبدو أنه رجل ذو شخصية محبوبة، لذا لم تكن تشتكي العمل معه.

رد عليها كيدو بإيموجي على غير عادته ثم كتب:

> أجل كل شيء على ما يرام. وسوتا لا يسبب إزعاجًا. أتمنى أن تكون رحلة عملك ناجحة!

ثم وصل من زوجته رد به جملة: «شكرًا لك» تقولها شخصية درامية لا يعرفها، لكنها تبتسم ابتسامة مشرقة لم يرَها كيدو من زوجته نفسها خلال هذا العام كله.

ظل بعض الوقت يلهو بهاتفه الجوال وهو جالس إلى مائدة الطعام، وتذكر كيدو ما قالته ميسوزو عن وجهة نظرها في الحياة التي عبرت عنها بجملة «ثلاثة انتصارات وأربع هزائم».

كان يحمل تجاه ميسوزو مشاعر حب واضحة لا لبس فيها. لكنه منذ البداية كان متخليًا تمامًا عن بذل أي جهد من أجل تطوير تلك العلاقة.

فهي من مختلف المعاني ستكون غير واقعية، بل إلى درجة أنه لم يفكر فيها بجدية قَطُّ، ومع ذلك، كانت امرأة تحثه على أن يتخيل: ماذا لو كانت هي شريكة حياته؟!

عندما يتحدث معها كان يشعر تجاه ذاته بمشاعر مريحة تختلف عن كل الأوقات الأخرى. عندما يرى في الفيسبوك ذلك الوجه الضاحك المستمتع بدرجة كبيرة بأي شيء بسيط، لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يتخيل: ما شكل الحياة اليومية التي ستكون عليها حياته إن كانت بجانبه على الدوام؟! كيف سيكون الوضع إن كانت هي مَن تزوجها وكانت هي أم سوتا ابنه؟! لكن كان خيالًا يمكن أن يحدث في حياة أخرى وعالم آخر مختلف تمامًا، أكثر من وقوعه في هذا العالم.

فكر كيدو أنه لو كان أصغر عمرًا من الآن، وحتى لو كان متزوجًا، فربما لم يكن سلوكه ليكون بهذه العقلانية المقيتة ولم يكن موقفه يصبح بهذا التردد. لكن ذلك الحافز الذي يحثه - أي الرغبة الجنسية - يتراجع الآن إلى الخلف على استحياء، فيوافق شبه مرغم على علاقة في حالة أن الطرف الآخر يلح عليها ويريدها بقوة. الرغبة الجنسية التي تتألم تألمًا شديدًا من انعدام الجنس بينه وبين زوجته! كان على العكس يكسل عن أن يدفع هو تلك الرغبة الجنسية ويحاول تحفيزها عنوة. في العشرينيات من عمره كان يظن أن هذا الضعف كذب بلا جدال.

في كل الأحوال كانت فكرة التخلي عن حياته الحالية التي بناها، وبَدء حياة جديدة معها، تاركًا نفسه لحافز مدمر مفاجئ جدير برجل متوسط العمر في لحظة هوجاء، على طرف النقيض الآخر من فكرتها التي انبهر بها للتوافق مع الحياة: «ثلاثة انتصارات وأربع هزائم».

فكر كيدو لأوّل مرة أن «X» ربما يكون إنسانًا عاديًّا عاش حياة عادية ومملة جدًّا.

مفهوم أن يكون الإنسان مكونًا من «ذكرياته». ألا يمكن بذلك التفكير أن الشخص أصبح شخصًا آخر، بمجرد امتلاكه «ذكريات» ذلك الشخص؟

ألا يمكن أن تكون الحقيقة هي أنه رجل تافه يقضي الليل وحيدًا فتعرَّف على أوميورا من خلال الإنترنت، وفكر بسبب حياته المملة أن يطلب حياة أكثر إثارة ولو قليلًا من حياته وقتها من دون علاقة بجريمة قتل؟!

من خلال البحث في الإنترنت، لم يجد كيدو أصلًا لاسم «يوشيهيكو سونيزاكي» الذي كتبه أوميورا على إحدى حلمتَي المرأة العارية، وليس له سجل جنائي.

بسبب شخصية أوميورا المشبوهة، زادت شكوك كيدو في أن يكون «X» مرتكبًا جريمة ما، أكثر مما كانت في السابق. لذلك قَلَّ تعاطفه معه.

لكن على العكس من ذلك، شعر بأنه كان إنسانًا يعيش حياة هادئة إلى درجة أنه فكر في تبادلها مع حياة دايسكيه تانيغوتشي الذي كان على خلاف مع أسرته. أم كان ذلك من أجل المال!

في كل الأحوال لا شك أن ريئه لم تكن لتمانع في ذلك. ثم فكَّر كيدو نفسَه بجدية في أنه يجب عليه بعد أن ينتهي من «لعبة المخبر الخاص» تلك التي بلا جدوى، أن يعيد إصلاح علاقته مع أسرته.

لقد وصل كيدو إلى معرفة هوية «X» بعد أسبوعين من ذلك، وكان السبب حدثًا لا يتوقعه.

وكان ذلك سببًا في أن يغرق مرة أخرى في لعبة مخبر التحريات الخاص، لكن في الواقع قبل ذلك مباشرة كان على وشك أن يتخلى عن الأمر ويفقد اهتمامه به. لكن حدثت تلك الليلة.

١٣

قبل ثلاثة أيام من أعياد الميلاد أصبحت أجواء المدينة صاخبة لا تهدأ.

بعد أن أنهى قضية في محكمة طوكيو المحلية، زار كيدو في ذلك اليوم معرض صور صغيرًا يقع بجوار فرع سلسلة محلات توكيو بمحطة شيبويا.

كان صديقه المحامي سوغينو متحمسًا لإلغاء حكم الإعدام، وكانت له علاقة بمعرض فنون جميلة للوحات رسمها مساجين محكوم عليهم بالإعدام حكمًا نهائيًّا غير قابل للنقض، وتسلَّم كيدو منه دعوة لذلك المعرض.

كان كيدو يعارض حكم الإعدام لكن لم يكن يشارك في أنشطة إلغائه، ولم يسبق له كذلك أن تولى قضية يمكن أن يصدر فيها حكم بالإعدام على المتهم. لكنه بدأ يهتم باللوحات التي يرسمها السجناء بعد أن تسلم رسائل أوميورا من السجن وبها رسوماته الغريبة.

كان أوميورا محتالًا، مزاحه سيئ لكنه حزين القلب إلى حدٍّ ما. وبالقطع ستختلف تمامًا رسومات سجناء الإعدام.

لدى كيدو اهتمام لرؤية تلك اللوحات التي يرسمها إنسان ارتكب بنفسه جريمة قتل، وينتظر أن تنفِّذ الدولة فيه حكم الإعدام في القريب العاجل.

كان المعرض في الطابق السادس من مبنى متعدد الأغراض تكثر به المطاعم والحانات. كانت الأرصاد الجوية تتنبأ بهطول الثلوج ليلًا حتى في مركز العاصمة طوكيو، ومع أنه كان يمسك بمظلة إلا أن معطفه أمسى

أبيض من الأمام في أثناء مشيه في وسط الثلوج. وبقدر ما كان يُسرع الخطى تخدر خداه من البرد وانطلقت حرارة الجسم من الداخل.

وعندما توقف أمام المدخل ليُسقط الثلوج التي ما زالت عالقة بمعطفه جاء إليه سوغينو ليحييه قائلًا إنه آسف على هذا الطقس السيئ، ابتسم كيدو ابتسامة متكلفة وقال: «حقًّا! الجو شديد البرودة». كانت ضمن برنامج اليوم ندوة حوارية يديرها سوغينو.

تبللت أرضية المعرض المفروشة بألواح بيضاء من جرَّاء الثلوج المتبقية في الأحذية، وأوشكت فتاة تسير أمام كيدو مباشرة على الانزلاق والوقوع على الأرض. أُعدت مقاعد الندوة بالفعل، وعلى عكس المتوقع ازدحمت قاعة المعرض بالجمهور في مساحة تقترب من مائة متر مربع. عزم كيدو أن يغادر في منتصف الندوة بسبب خوفه من أن يفوته قطار العودة، لذا وضع معطفه على أحد المقاعد في الصفوف الخلفية.

كانت اللوحات لبضعة عشر سجين إعدام، متنوعة الأحجام، من الكبيرة التي يُنظر إليها عاليًا، إلى التي بحجم بطاقة بريدية. وبسبب شُح نوع المواد المستخدمة يمكن بسهولة معرفة عناء لصق الأوراق بعضها ببعض، أو تلوين اللوحات. ووضع بجانب العمل الفني عنوان العمل واسم صاحبه ونوع الجريمة التي ارتكبها. ما من شرح أكثر من ذلك، ومن الجمهور مَن يشاهد اللوحات وهو يبحث في الإنترنت باستخدام الهاتف الجوال.

عُرض في المدخل عمل ضخم مكون من لوحتين رأسيتين كل منهما نصف متر تقريبًا.

رُسم في اللوحة السفلى قاع بئر جافة عملاقة مصنوعة من الطوب، وأنثى تجثو على ركبتيها تحاول أن تتسلق جدران البئر. وتلت ذلك في اللوحة العليا سماء زرقاء وزهور وأعشاب خضراء تختلس النظر إليها من مكان يبعد عن رأسها مسافة بعيدة جدًّا، وأشعة الشمس التي تنصب عليها بهدوء.

على الأرجح أن السجين يشير إلى المنظر الذي يراه من نافذة الزنزانة. ويبدو أنه عمل صُنع من لصق عدد من الأوراق بحجم «B4» معًا. كانت طريقة المنظور المتعطش للحرية في الأفق البعيد، تثير مشاعر اليأس. ورفع التباين بين أشعة الشمس البرَّاقة والظلام الذي يزيد عمقًا كلما اقترب من قاع البئر، من تأثير فاعلية الألم والمعاناة.

كان العمل من رسم زوجة ظلت طوال المحاكمة تصر بلا تراجع على براءتها، حيث اتُّهمت هي وزوجها اللذان يملكان محلًّا لبيع الحيوانات الأليفة بقتل أربعة من الزبائن على التوالي وإخفاء جثثهم إخفاء تامًّا. وبسبب شهرة تلك القضية استُخدمت تلك اللوحة على نطاق واسع وكانت أيضًا هي التي تُزين ملصقات الإعلان عن المعرض.

أما اللوحة المجاورة فكانت لأرض فيما يبدو أنها بداية فصل الخريف، حيث تتناثر أكواز الصنوبر الفجة وأوراق الأشجار الخضراء الساقطة، وبدا أيضًا طابور من النمل، لكن كان الأمر الغريب في المشهد هو اختلاط ذلك كله بعدد لانهائي من القنابل اليدوية. وتظهر قدم بيضاء لأنثى تحاول أن تسير حافية فوق ذلك المكان. حتى في لوحة البئر الجافة كان ثمة تركيز على القدم العارية للأنثى.

وغير ذلك ثمة أعمال تلجأ بطريقة أكثر مباشرة إلى الشكوى ببراءتها.

اندهش كيدو أولًا من براعة تلك اللوحات. كانت تميل إلى أن تكون ملصقات إعلانية أكثر منها لوحات فنية.

واللوحة التي بجوارها كانت لامرأة متهمة في جريمة قتل عدد كبير من الناس بدس السُّم لهم، لكنها أيضًا تؤكد براءتها وقضيتها حاليًا يُعاد نظرها أمام المحكمة العليا في البلاد.

عُرض لها عشرة أعمال تقريبًا على ورق الرسم الملون الكبير. شاهد كيدو كل اللوحات وهو يسير خلف شاب وفتاة يسيران أمامه، ثم وقف أمام لوحة رُسم في مركزها خط أحمر سميك يتجه إلى أسفل في انحناء. وبالطول تتدلى

قطرات دماء تشبه الدموع. في الشرح الذي قرأه كيدو على شبكة الإنترنت قبل مجيئه، فعلى ما يبدو أن الخط العرضي الذي في المنتصف، يعبِّر عن الجرح الذي ينشأ على رقبة السجين عند لف حبل المشنقة عليه في أثناء تنفيذ الحكم، والذي يتقاطر هو دموع أسرته.

وبجانب ذلك، لوحة لُوِّن سطحها كله باللون الأزرق ثم رُسمت بها في المركز دائرة حمراء وقفص مربع صغير يشبه البقعة. وتلك بناءً على الشرح الذي قرأه، تعبِّر عن الوحدة وشعور العزلة داخل السجن، حيث لا يستطيع السجين أن يرى السماء الزرقاء.

مع عدم القدرة على وصفها بالبراعة مطلقًا بسبب فقر أدوات الرسم والتعبير عن الشكوى من الخوف والبراءة وبسبب تصميم اللوحات على شكل مربع سطحي، لكن مع ذلك ثمة قوة في كل عمل تضغط بشدة على وجود المشاهد.

كان كيدو يكتم أنفاسه في كل مرة يقف فيها أمام كل عمل، ثم يطلق تنهيدة طويلة بعد فترة من الوقت. ويكرر ذلك كل مرة.

كان عمل هذا السجين أيضًا يمكن القول إنه يميل إلى أن يكون تصميم جرافيك.

بعد أن مرت في عقله الباطن فكرة الفن في التعبير الإعلاني، على العكس، أعاد التفكير في أنه من الواجب النقاش حول فكرة الإعلان في التعبير الفني!

إن هدف تصميمات الجرافيك، هو التنبيه لوجود شيء ما سواء أكان حدثًا أم منتجًا. إن لم يُخبر عنه، سيُقتل بالصمت وكأنه شيء لم يكن له وجود من الأصل. فالملصق يستعير قوة الجمال لكي يصرخ قائلًا: «إن هذا الشيء موجود هنا!»، والنتيجة أن يرتفع بذلك التعبير إلى أن يصل إلى مرتبة الفنون.

لكن أليس جوهر الفنون هو في الأصل جوهرًا إعلانيًا، من دون علاقة بالرأسمالية ومن دون علاقة بمجتمع الاستهلاك الجماهيري الضخم؟

على سبيل المثال، مزهرية لزهور عبَّاد الشمس مزدهرة وكأنها على وشك الاشتعال. جياد تركض في سهول مرعى. حياة معيشية موحشة. مآسي الحروب. شعور بكراهية الذات. حب أحدهم. أن تُحَب من أحدهم. أليست التعبيرات الفنية جميعها، هي في النهاية إعلانًا عن ذلك كله؟!

أسرع كيدو من خطواته وهو ينتبه لساعة يده.

كانت تعبيرات كل سجين إعدام على حدة في منتهى التنوُّع إلى درجة تثير الدهشة والعجب. بداية من الأعمال التي تشبه الرسوم التوضيحية، والتي جُعلت على نسق المانغا، ورسوم التنين وأسماك الشبوط التي تشبه اللوحات الأصلية للوشم، وتقليد اللوحات الشهيرة، والرسم السريالي، وعمل جمَّع بجدية تامة المواد المستخدمة في حساء الميسو الذي يُقدَّم في وجبات السجن الثلاث الفطور والغداء والعشاء، إلى آخره. وما من عمل يشبه الآخر بتاتًا.

وثمة تفاوت بين المهارة والرداءة، فهناك أعمال تُظهر «موهبة» لا يمكن إنكارها. ولأن الأعمال كان تجميعها بناءً على طلب لعموم المساجين المحكوم عليهم بالإعدام، فربما أن مَن تقدَّموا برسوماتهم هم الذين يرسمون بمهارة من بينهم.

ثمة لوحات بعيدة تمامًا عما يعانيه السجين حاليًّا، لكن من جانب آخر ثمة لوحات جميلة تثلج الصدر لا يمكن مطلقًا تخيل أنها رُسمت داخل السجن.

في اللوحات التي رسمها سجناء معترفون بجريمتهم، ثمة شكوى من قسوة نظام الإعدام ذاته، لكن لم تكن قليلة الأعمال التي ترسم مجرد ما تريد رسمه فقط مثل الطيور والزهور والقطط.

ومع حيرة كيدو من ضرورة التمسك بإلحاح بالفكرة التي طرأت عليه في البداية من عدمها، لكنه استمر في التفكير عما يحاول هؤلاء «الإعلان» عنه.

فحتى شكوى البراءة، على غير المتوقع كان إنكار الجريمة نفسها قليلًا.

لم تكن الشكوى هي: لم أفعل مثل تلك الجريمة البشعة، بل كانت الصرخة باستماتة بالقول: إنني لستُ ذلك المجرم. أي الدفاع عن الوجود ذاته وليس السلوك. والسبب أن الدولة على وشك أن تحوِّل ذلك الوجود إلى عدم.

يحاول سجين الإعدام الذي يرسم لوحات جميلة ومحببة لا يمكن تخيُّل صدورها ممَّن ارتكب تلك الجريمة البشعة، أن يترك أثرًا لوجوده في مكان آخر مختلف خارج جسده الذي على وشك الزوال. كان ذلك «جانبًا غير متوقع» من هؤلاء الجناة، سيفنى معهم وقتما يُعدمون بوصفهم قتلة. إن كان يمكن فصل جوانب الشخصية الإنسانية، فربما يكون هؤلاء يعلنون باستماتة من قاع الخوف من الموت عن وجودهم ذلك الذي يشبه الضحايا الذين يموتون عرضًا في حوادث الطرق.

اقترب وقت بداية الحوار، فدار كيدو على جدران المعرض المزدحم وانتهى من مشاهدة باقي الأعمال التي لم يرَها وهو يتفادى الجمهور.

ثمة سلسلة من الأعمال التي تُرسم فيها صورة لجسد فتاة عارية تشبه ملصقات المواد الإباحية في منتصف لوحة مكدسة بتأييد يشبه المنشورات التحريضية مثل: «إلغاء الاتفاقية الأمنية!»، «تعيش دكتاتورية الطبقة العاملة!»، «نعارض زيادة ضريبة الاستهلاك!». فتح كيدو عينيه على وسعيهما من الدهشة. فقد كانت صورة طبق الأصل من تلك الرسمة التي أرسلها إليه أوميورا من حيث التصميم والوضع الذي يركز على الثديين. بل الأصح القول إنه من الواضح تمامًا أنه كان يُقلِّد هذه اللوحات. وكانت بين الأعمال المعروضة أيضًا لوحات نسخت رسوم كتاب سوترا القلب الطاهر الذي كان متمسكًا به جدًّا.

«من المؤكد أن ذلك الرجل شاهد هذا المعرض في مكان ما. أو ربما يكون قرأ تقريرًا صحفيًّا عنه نُشر في إحدى المجلات!».

تذكر كيدو كلمته له، «أبله!». هل كان غاضبًا من بلادة حسه، حيث لم ينتبه قَطُّ مع أنه رسم تقليدًا لسجين إعدام متعمدًا؟!

- حسنًا، دعونا نبدأ الحوار. نرجو من الجميع الجلوس في مقاعدهم. ثمة وقت بعد انتهاء الحوار يمكنكم في أثنائه مشاهدة ما تبقى لكم!

تلبيةً لطلب الإعلان كان كيدو أيضًا على وشك التوجه إلى مقعده، لكن اللوحة التي ألقى عليها نظرة أخيرة شلَّت حركته.

لوحة تختلف تمامًا عن باقي اللوحات، لوحة لمنظر طبيعي ينساب فيها جدول بين سهول جبلية، كانت رديئة الرسم، لكنها جعلته يشعر بالتواضع والبراءة. وبجوارها لوحة لشجرة كرز زهورها في كامل تفتُّحها، وعصافير، وكذلك لوحة لجانب من مدينة قديمة يكثر وجودها في كل مكان، بها صندوق بريد وأعمدة الكهرباء وطريق محاط بأسوار من الألواح الخشبية.

هجمت على كيدو مشاعر عجيبة. لأنه شعر إلى حدٍّ ما بأنها لوحات رآها من قبل في مكان ما. إنها لوحات ربما تشبه تلك اللوحات التي يمكن أن يرسمها تلميذ في المدرسة المتوسطة في حصة الرسم.

هل هي لوحات أوميورا؟ كلَّا ليست كذلك، إذن لوحات مَن؟

كُتب أن الرسَّام متهم بقتل عمد وحريق بيت في مدينة يوكائتشي عام ١٩٨٥، وكيدو الذي كان وقتها في العاشرة من عمره، ربما لديه فعلًا ذكرى خفيفة عنها.

ظل يفكر بعض الوقت، لكنه قال إنه على الأرجح تفكير زائد على الحد، ثم جلس بعد أن طُلب منه ذلك.

في الندوة الحوارية شرح الناقد الفني الذي أدى دور المُقيِّم للأعمال الفنية، السمات الفنية لكل عمل على حدة، ولأنه كان حتى النهاية ينظر إليها على أنها «أعمال فنية» لذا أحسَّ كيدو بالملل في منتصف الشرح. كان سوغينو المحاور، يبدو عليه موافقته على سياسة الشرح، إلى درجة أن كيدو فكر أن يذهب إليه فيما بعد وينبهه لذلك بكلمة منه.

كان كيدو ما زال منشغلًا بلوحات المناظر الطبيعية التي رآها في نهاية

مشاهدته للوحات المعرض. لقد نظر إليها شاردًا من فوق رؤوس الجمهور، لكنه بدأ يفكر في الرحيل بسبب قلقه من شدة هطول الثلوج.

كان متبقيًا ربع ساعة على نهاية الندوة التي كان مقررًا لها ساعة.

– لقد أوشك الوقت على الانتهاء لكن لنلقِ نظرة سريعة، هذه اللوحة لامرأة عارية تثير التحفز. إنها عمل متهم في جريمة قتل وقعت في مدينة كيتا كيوشو للحصول على مبلغ تأمين الضحية على الحياة. قضية بالغة التعقيد، لكن محتواها بإيجاز أن مالك حانة في مدينة كيتا كيوشو وعاملًا في الحانة خططا لعملية احتيال للحصول على مبلغ تأمين بسبب الحاجة إلى المال. رتَّبا أولًا عملية تبني حمي المالك الذي يمده بالمال، للعامل مما جعله أخًا لزوجة المالك. ثم تعاقدا على تأمين لحياة العامل بمبلغ ضخم، وكان المالك هو المستحق للمبلغ إن مات العامل. ثم أغرقا متشردًا في البحر بعد أن جعلاه مخمورًا على أنه هو العامل. وهو ما يُسمَّى «جريمة قتل شخص باسم شخص آخر، والاحتيال من أجل الحصول على مبلغ التأمين عليه». لكن حدث إهمال وأخطاء في التنفيذ، حيث كان الشخص المقتول يختلف في العمر وفي طول القامة وسمات الجسم عن العامل، لذا اكتشفت الشرطة الأمر بسهولة. في الواقع لقد ارتكب ذلك العامل، قبل تلك الجريمة جريمة سرقة بالإكراه والقتل العمد مع جريمة إشعال حريق عمد، لذا صدر ضده حكم بالإعدام. العامل هو مَن رسم هذه اللوحة.

كان كيدو يسمع شاردًا، ثم أخيرًا فهم معنى «جريمة قتل شخص آخر للحصول على التأمين»، فنظر إلى المتحدث على الفور.

«غُيِّرت هوية المتشرد إلى هوية العامل وقُتل المتشرد على أنه العامل!».

وعندها شعر بقشعريرة في ذراعيه وكأنه لمس شيئًا ما. بالطبع تذكر شخصية «X» الذي انتحل هوية دايسكيه تانيغوتشي.

ثم فتح فمه قائلًا: «آه»، لكن ظل ثواني متصلبًا بلا أدنى حركة.

لم يكن كيدو ينظر إلى اللوحة العارية التي رسمها العامل. بل ينظر إلى تلك المناظر الطبيعية التي رآها منذ قليل والمعروضة بجوارها. ثم انتبه فجأة لما اعتقد أنه قد رآها من قبل.

«إنها تشبه لوحات «X» تمامًا!».

أخرج كيدو الهاتف الجوال من جيبه، وبحث عن الصور التي صوَّرها لمتعلقات «X» في بيت أسرة ريئه. عثر على عدد من اللوحات، لكنها كانت مناظر طبيعية لمكان مختلف. لكن كانت اللمسات متطابقة تمامًا.

كان قلبه يضرب صدره من الداخل ضربات مستميتة محاولًا أن يخبره بشيء ما. لكن في اللحظة التالية، صار أكثر هدوءًا وسكينة، ثم فكر، ما معنى هذا؟!

كان شرح الناقد الفني في تلك اللحظة بالضبط قد انتقل إلى لوحات المناظر الطبيعية، ويبدو أن حكم الإعدام قد نُفذ بالفعل منذ عشرين عامًا على مَن رسم تلك اللوحات، وأن اسمه كان «كِنكيتشي كوباياشي». وطبقًا لبطاقة البريد الغامضة التي أرسلها إليه أوميورا، يُفترض أن الشخص الذي انتحل اسم «دايسكيه تانيغوتشي» يُسمَّى «يوشيهيكو سونيزاكي».

لكن كيف يمكن الجزم بذلك؟!

تجهَّم وجه كيدو وأمال رأسه قليلًا. فسبب تفكيره هكذا، فالأمر لا يزيد على مجرد أن أوميورا كتب ذلك الاسم على ثدي المرأة العارية في البطاقة البريدية التي أرسلها إليه فقط. ولقد كُتِب على الثدي الأيمن اسم «دايسكيه تانيغوتشي»، وعلى الثدي الأيسر اسم «يوشيهيكو سونيزاكي»، لكن لماذا فكَّر أن الاثنين تبادلا هويتيهما لهذا السبب فقط؟!

تذكر كيدو الحروف التي تراصت لترسم دائرة حول الحلمة. ثم فكر في تلك الجملة التي كُتبت في البطاقة:

هل عينا المحامي الوسيم مخرومتان؟ يا لك من أبله!

«لماذا قال إنني أبله؟!».

«هل يريد الإيحاء لي بشيء أم أن أوميورا كان يريد معنى محددًا؟!».

ربما كان ثمة معنى لتقليده رسم سجين إعدام بجريمة قتل بهدف الحصول على مبلغ التأمين على الحياة، لو كان أوميورا قد شاهد هذا المعرض في مكان ما، ألا يُفترض أنه قد عرف لوحات كِنكيتشي كوباياشي هذا! هل كان يحاول أن يقول ذلك! يقول ماذا! ألم يمُت كِنكيتشي كوباياشي بالفعل منذ زمن بعيد؟!

تُرِك كيدو وحيدًا وسط آثار موجات عدمية لحماس مندفع!

ثم انتبه إلى أن الندوة انتهت من خلال أصوات التصفيق. وتلا ذلك وقت الأسئلة.

تبدو أغلبية الجمهور من مؤيدي إلغاء نظام الإعدام، فكانت أغلبية الأسئلة انطباعات أكثر منها أسئلة، بل كان هناك مَن غلبته العاطفة فبكى. وكانت الأسئلة وهي لب الموضوع تدور حول متاعب إقامة المعرض، أو حول التطورات المتوقعة مستقبلًا، أغلبها لا ضرر منه ولا نفع. كانت الكلمات تُختار بحرص شديد إلى درجة التطرف في الحرص قليلًا.

وفي النهاية اختير رجل يجلس في الصفوف الأمامية، ظل يرفع يده من البداية، وأُهمل طوال الوقت، فقال مدير الجلسة:

- تفضَّل! واسمحوا لي أن أجعل هذا هو آخر سؤال.

- أشكركم اليوم على هذه الأحاديث القيمة جدًّا. ثم أشكركم كذلك لاقتطاع وقت لإلقاء الأسئلة. اسمي شونتشي كاوامورا، أعمل كاتبًا لكتب توثيقية. وأصدرت كتابًا عن أسر ضحايا جرائم القتل.

لم يكن كيدو يعرفه، لكنه بدا شابًّا جادًّا وكان يرتدي قميصًا أبيض وسترة رمادية. كانت نبرة حديثه في منتهى التأدب، لكن كان الصوت يبدو وكأنه سيفقد في التو والحال السيطرة على نفسه، مما جعل الجمهور في وضع التحفز.

- سأتحدث عن أمر أبدو من خلاله أنني منفصل عن الجو العام للجلسة، لكنني أعتقد أن إقامة هذا المعرض أمر خادع. بصراحة أنا أشعر بالامتعاض والغضب. لماذا قبل إقامة هذا المعرض، لا يُقام معرض للوحات ضحايا تلك الجرائم؟ لماذا في البداية تتفهمون مشاعر هؤلاء المجرمين وتتعاطفون معهم؟ قبل التأثر والانبهار أن سجناء الإعدام عندهم مثل تلك المواهب الفنية، لماذا لم تفكروا في الضحايا الذين قُتلوا؟ إلى أي مدى كانت لديهم مواهب ولديهم أحلام ولديهم قلوب جميلة! هل كان لدى هؤلاء متسع لرسم اللوحات قبل موتهم؟ تقولون إن الإعدام حكم قاسٍ ومتوحش، لكن أليس هم مَن جلبوه لأنفسهم بأفعالهم؟! لماذا تُعطى الحرية فقط لهؤلاء الناس لرسم اللوحات بهذه الرفاهية؟ مهما كانت لديهم رغبة في التعبير عن أنفسهم، فتلك الحرية سلبها هؤلاء المجرمون من ضحاياهم! من دون التفكير في ذلك، أليس إفراطًا في التمييز إقامة معرض للوحات سجناء الإعدام والتعبير عن التعاطف معهم بالقول يا لهم من تعساء؟! أليس من الواجب أن يُعرض مع اللوحات شرح مستفيض عن مدى ما ارتكبوه من جرائم وحشية؟ إن نسبة الحكم بالإعدام في جرائم القتل لا تتجاوز ٢ , ٠٪. إن ما فعله هؤلاء يفوق مستوى تخفيف العقوبة مراعاةً لظروف الجاني! ليس فقط مَن قُتلوا، ألا تفكرون إلى أي مدى يعاني أُسرهم وأحباؤهم وأصدقاؤهم؟ أنا أعتقد أن مثل هذا المعرض يثير مشاعر الغضب لديهم! انتهى تعليقي!

قال الشاب ذلك في دفعة واحدة وهو يرتعش، ثم جلس بحزم على مقعده، وأعطى مكبر الصوت إلى المعنيين بالمعرض. حدث ارتجاع صوت صدى حاد شقَّ هدوء المكان. وكان هناك مَن صفق بحماس في المقاعد الخلفية. فالتفت عدد من الحاضرين ناحيته. ثم وقف الشاب الذي يُدعى «كاوامورا» فجأة كأنه تذكر شيئًا وقال:

- آه، بالمناسبة أنا أعتقد أن الحكم بالإعدام على بريء مشكلة كبيرة، وأنا أيضًا أعارض ذلك بشدة. أرجو فقط أن تسمحوا لي بتلك الإضافة!
ثم جلس سريعًا على مقعده.

كان كيدو قلقًا من عدم وجود أي ذكر للضحايا، وشعر بأنه يجب أن يسأل أحدهم عن ذلك. وإن لم يسأل أحد كان ينوي أن يتحدث عن ذلك مع سوغينو فيما بعد، وربما كان ذلك أحد أسباب عدم مشاركته في أنشطة إلغاء الإعدام حتى الآن.

أجاب سوغينو بإيماءة من دون أن تتغير تعبيرات وجهه مطلقًا. وكان على ما يبدو أنه يعرف كاوامورا من قبل.

- أعتقد أننا ونحن نفكر في الأمر، يجب أن نفصل بين قضية الحقوق التي يكفلها القانون، وقضية مشاعرنا تجاهها. من الناحية القانونية فإن فكر قانون العقوبات الياباني لا يتبع نظرية العقاب بالمثل مطلقًا، بل يتبع منطق الحكم بالعقاب النسبي. إن طريقة التفكير في الانتقام بالضرر نفسه التي يُعبر عنها كثيرًا بجملة «العين بالعين» في الواقع هي انتقام يميل إلى التطرف العاطفي دائمًا، كان هو منطق وضع حدود من أجل عدم اتساع الأضرار. وتغيرت طريقة العقاب البدني على طريقة «العين بالعين» في قانون العقوبات منذ العصور الحديثة إلى عقوبة تقييد الحرية. ولذا في القانون الحالي ما من عقوبة على جريمة اعتداء سببت عمى للضحية بأن تُطمس عينا الجاني وجعله أعمى مثل الضحية. لن تستطيع الضحية أن ترى الأشياء الجميلة في هذا العالم طوال حياتها، لكن الجاني سيعيش قادرًا على رؤية ما يريد من أشياء جميلة. لكن مقابل ذلك يُحكم عليه بالحد من حريته بقدر ضخامة جريمته. هذه هي عقوبة الحرية. إن نظام الإعدام منحرف عن هذا المنطق تمامًا. إن مشاعري تتفهم تمامًا ما تفضلت بقوله لأن الضحية

فقدت حريتها بالكامل عن طريق الموت، فطبقًا لمنطقك لا يُفترض أن يُسمح للجاني بأي حرية مطلقًا لا حرية في أن يشعر ولا أن يفكر.
أجاب كاوامورا من دون أن يستخدم مكبر الصوت:
- أنا أرى ذلك فعلًا. من الواجب أن يُعدم فورًا! إن كل لحظة يعيشها تُعَد رفاهية باهظة الثمن بالنسبة إلى الضحية.
- أنا موقفي أنني أعارض الاعتراف بنظام الإعدام على أنه استثناء من نظام العقاب البدني. ثم أنا أحمي حق سجين الإعدام في العمل الفني كحدٍّ أدنى من أنشطة البقاء على قيد الحياة. لكنني أعتقد أن المجتمع عليه دور يجب أن يؤديه. وأعتقد أن إقامة معرض للوحات الضحايا وأُسرهم أمر يستحق الاهتمام العميق، لكن أعتقد أن جمعيات دعم الضحايا وأُسرهم هي التي يجب عليها تأدية هذا الدور. وأعتقد أن على المواطنين رؤية كلا المعرضين والحكم عليهما.
في أثناء حديث سوغينو هز كاوامورا رأسه بالعرض عدة مرات دليلًا على رفضه القاطع له، لكنه لم يعترض أكثر من ذلك. لكن ظهره المشدود كان يمتلئ بالغضب الذي لا يجد له مصرفًا. كان سوغينو في أثناء فترة التدريب على المحاماة مرشحًا لمنصب القضاء، وعُرض عليه الأمر أكثر من مرة، إلا أنه اختار في النهاية المحاماة، وهو أمر نادر الحدوث في هذا المجال. والإجابة التي أجاب بها توًّا، كانت النظرة التقليدية في تاريخ النظام القضائي، وشعر كيدو بأنه يتفهم اعتراض كاوامورا على عدم تغيير سوغينو لتعبيرات وجهه البتة.

بعد انتهاء الندوة، انسحب سوغينو وضيفه الناقد الفني إلى غرفة داخلية، ولذا انحرف كيدو عن تيار الجمهور في طريق العودة، وقرر أن ينتظره أمام تلك اللوحة للمناظر الطبيعية مرة أخرى.
طبقًا للشرح الذي قيل في الندوة منذ قليل، يبدو أن كِنكيتشي لم يقتل جاره

مدير المكتب الهندسي وزوجته فقط، بل قتل معهما ابنهما الوحيد الذي كان في الصف السادس الابتدائي. يعلم كيدو تمام العلم أنه رأي ساذج، لكن لم يعتقد أن مجرمًا مثل هذا يمكنه رسم مثل تلك اللوحات بالغة الحساسية.

بدأ المكان يخلو تدريجيًّا، وعندما بدأ كيدو البحث من خلال الهاتف الجوال عن اسم «كِنكيتشي كوباياشي» ظهر سوغينو خارجًا من الغرفة الداخلية.

- آسف لتأخري عليك. وأشكرك على البقاء حتى النهاية!

- أُقدر تعبك في هذا العمل. لقد استفدت كثيرًا.

حيَّاه كيدو بكلمة التقدير لجهوده تلك، ثم وهو يضع الهاتف الجوال في جيبه، فقد النطق عند رؤيته صورة وجه لمحتها عيناه سريعًا. إنها صورة «X».

انتظر سوغينو كيدو بجواره حتى ينتهي مما يعمله بهاتفه معتقدًا أنه يفحص الإيميل.

جرى كيدو بعينيه سريعًا على الكلمات المرفقة مع تلك الصورة.

- هذا!

عندما أراه شاشة «الآيفون» اقترب سوغينو بوجهه منه وقال:

- إنه الشخص الذي رسم هذه اللوحة. كِنكيتشي كوباياشي.

ظل كيدو يفكر لثوانٍ يقارن بين صورة الرجل واللوحات المعروضة في المعرض وهو يفكر تُرى ما هذا؟

لم يكن هو الشخص نفسه، بل يشبهه طبق الأصل. ثم وصل إلى أحد الاستنتاجات، لكنه كان في حالة من الحماس والذهول جعلته لا يستطيع التفكير الهادئ بعد ذلك.

١٤

طبقًا لما قاله سوغينو كان لدى كِنكيتشي كوباياشي طفل اسمه «ماكوتو»، لكن تغيَّر اسم العائلة الآن إلى «هارا» بعد طلاق والديه. بمعنى أن اسمه الآن «ماكوتو هارا».

لقد ارتكب كِنكيتشي كوباياشي جريمته في مدينة يوكائتشي بمحافظة مينه في عام ١٩٨٥. كان نموذجًا تقليديًّا لمدمن القمار، وبسبب ذلك غرق في الديون لأذنيه حتى بات غير قادر على فعل شيء إزاءها، فزار مدير المكتب الهندسي الذي كان على معرفة به، ليقترض منه مبلغ مائة ألف ين بإلحاح، فلما رُفض طلبه غضب غضبًا شديدًا، وبعد أن عاد مرة إلى بيته، دخل بيت المدير في منتصف الليل لسرقته، فقتل مدير المكتب وزوجته وطفلهما بسكين المطبخ، ثم أشعل النيران في البيت لإخفاء معالم الجريمة. جريمة وحشية نكراء!

وكما هو متوقع لم تكن في ذاكرة كيدو من هذا الحادث إلا آثار ضبابية، لكن من المصادفات أن ذلك الطفل المُسمَّى «ماكوتو» كان من مواليد عام ١٩٧٥ مثله.

وعندما يفكر، لو حدث وقتها أن زميلًا له في مثل عمره في الصف الرابع الابتدائي كان والده قاتلًا! تنبع داخله مشاعر حية ساخنة. وطرأت على ذهنه وجوه زملائه في الفصل وتذكر عندما كان يلعب معهم.

أذاعت وسائل الإعلام خبر الجريمة على نطاق واسع، ولأنهم تكالبوا

على المكان بأعداد كبيرة انتقلت أُم ماكوتو وابنها إلى سكن آخر. بعد ذلك دخل ماكوتو نفسه مؤسسة رعاية الأحداث في مدينة مايباشي. وانقطعت المعلومات عنه بعد خروجه منها.

لم يكن كيدو يتوقع قَطُّ أن يصل إلى معرفة وجود شخصية ماكوتو هارا.

منذ عام ٢٠٠٦ اعتاد السرقةَ من معروضات المحلات وبعد أن اكتُشف عدة مرات وأبلغت عنه الشرطة في عام ٢٠٠٨، قُدِّم للمحاكمة أخيرًا وحُكم عليه بالسجن عامًا مع وقف التنفيذ لمدة ثلاثة أعوام بتهمة السرقة. ثم قُبض عليه مرة ثانية في أثناء وقف التنفيذ بتهمة سرقة معروضات المحلات وحُكم عليه بالسجن لمدة سنة ونصف السنة مع النفاذ، ثم بعد خروجه مباشرة قُبض عليه للمرة الثالثة بالتهمة نفسها، وحُكم عليه وأنهى محكوميته في بداية هذا العام.

بعد الحكم عليه لأوَّل مرة نُشر ذلك في مجلة أسبوعية ضمن تقرير باسم «ما حدث بعد ذلك» مثالًا على أُسر الجناة في القضايا المشهورة.

كان التقرير باسم مستعار، لكن في الإنترنت في مواقع المهووسين بالجرائم نُشر اسمه الحقيقي حاليًّا «هارا». وفي أثناء ذلك بحث كيدو عن «كِنكيتشي كوباياشي» واختلس النظر إلى أحد تلك المواقع، لكن كانت خليطًا من الشائعات التي لا يُعرف حقيقتها من كذبها، والأكثر من ذلك أنه جفل مرعوبًا من هواية صاحب الموقع المريبة. لكن لأنه كان به عدد كبير من تقارير المجلات الأسبوعية مقصوصة ومرفوعة على الموقع كصور، استطاع أن يتعرَّف على التقرير سابق الذكر.

الأمر الذي أثار دهشة كيدو في سيرة حياة ماكوتو، أنه بعد خروجه من مؤسسة رعاية الأحداث، كان مسجلًا في صالة لممارسة الملاكمة بحي كيتاسنجو، وأنه ظهر ملاكمًا محترفًا في مباريات رسمية، وفاز في عام ١٩٩٧ ببطولة المحترفين المبتدئين في شرق اليابان في وزن الديك. كان

كيدو لديه معلومات إلى حدٍّ ما عن الرياضات القتالية، ويعرف أن هذا أمر عظيم لا يمكن تحقيقه بسهولة.

لكن يبدو أنه كانت لديه مشكلات نفسية فاعتذر عن عدم المشاركة في مباراة تحديد بطل اليابان في الليلة السابقة عليها واختفى. وبعد ذلك ظل لمدة عشر سنوات يقتات بالعمل البدني باليومية، لكنه في أي مكان يذهب إليه تنتشر الشائعات عنه أنه ابن مجرم قاتل، فلا يستمر في ذلك المكان طويلًا.

قُبض عليه أوَّل مرة بتهمة سرقة معروضات المحلات، في عام ٢٠٠٦، ثم سرعان ما أصبحت تلك عادة لديه.

كان تقرير المجلة الأسبوعية سالف الذكر، يميل إلى الشفقة تجاه ماكوتو هارا، إلا أنه انتهى بسؤال قاسٍ: «تُرى هل ينتقل الميل إلى الجريمة وراثيًا؟!».

بعد ذلك، قرأت محامية تُسمَّى «كادوساكي» تُشارك سوغينو في أنشطة المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام، مصادفة ذلك التقرير الصحفي عن ابن كِنكيتشي كوباياشي واندهشت منه، ثم قررت أن تتولى الدفاع عنه في المرة الثانية التي حُوكِم فيها بتهمة السرقة وحُكم عليه بالسجن مع النفاذ. في أثناء المحاكمة جرى التأكيد على تاريخ نشأة ماكوتو وتردده على مؤسسة الأحداث، وأن تكرار سرقة معروضات المحلات يُعَد مرضًا نفسيًا، إلا أن الحكم لم يراعِ ذلك.

وطبقًا لما قالته كادوساكي فهو على الأرجح مصاب بمرض «كليبتومانيا» أي مرض السرقة من دون حاجة إليها، ومن أجل الخوف من تكراره السرقة، بعد خروجه من السجن عرَّفته على طبيب وكانت على تواصل معه من حين إلى آخر.

لم يجد كيدو صورة ماكوتو هارا في الإنترنت، لكنه عندما سأل كادوساكي مباشرة من خلال تعريف سوغينو له بها، قالت يبدو أنه لا يشبه والده مطلقًا.

وعندما سألها في أي سجن يقضي ماكوتو هارا حكمه حاليًّا، أصيب بالذهول من إجابتها:

- في سجن يوكوهاما.
- ماذا! يوكوهاما؟
- أجل. إنه قريب منك يا أستاذ كيدو، أليس كذلك؟
- بلى قريب. لكن قبل ذلك!

إنه السجن الذي فيه أوميورا. عند النظر إلى السجون التي بها مساجين من فئة «ب» في نطاق مديرية سجون طوكيو، يبدو عددها ليس كبيرًا وهو أمر ليس غريبًا. فكر كيدو أن أوميورا تعرَّف على ماكوتو هارا في السجن. ثم شعر بالحيرة على العكس من أن الاستنتاج الذي كان هو نفسه يرتاب فيه ويقول عنه إنه «مستحيل» أصبح فجأة يتحلى بالواقعية.

لقد خمَّن كيدو أن «X» هو ابن كِنكيتشي كوباياشي، أي أنه هو ماكوتو هارا «الحقيقي»، وأن من قُبض عليه بتهمة اعتياد السرقة، هو شخص آخر تبادل معه هويته في السجل المدني بوساطة من أوميورا.

تحدث كيدو عن ذلك من خلال الهاتف مع المحامية كادوساكي لكنها قالت: «ماذا!»، وفقدت النطق لفترة.

- إذا كان «X» هو ابن كِنكيتشي كوباياشي الحقيقي، فيجب أن نفهم لماذا يريد تغيير ماضيه. فمواصلة الحياة بوصفه ابنًا لمجرم ارتكب تلك الجريمة البشعة أمر يسبب معاناة كبيرة.
- انتظر! ماذا؟ هل أنت جاد؟
- أجل.
- إنه إفراط في التفكير وأنا لا أستطيع ملاحقتك.
- حسنًا، في كل الأحوال، إن الوجهين طبق الأصل. وجه كِنكيتشي كوباياشي ووجه «X».
- هل هذا فقط هو دليلك؟

- كذلك الرسم أيضًا. هذا ما جعلني أتعجب! أهذا الأمر ينتقل من خلال الجينات الوراثية؟
- أمر عجيب!
- هل تحدث معك ماكوتو هارا الذي دخل السجن عن أبيه؟
- كلَّا، مطلقًا.
- وماذا عن ممارسة رياضة الملاكمة؟
- تحدث عنها قليلًا. كان يضحك قائلًا إنه بات غبيًّا من كثرة ما ضُرب رأسه.
- كم يبلغ طوله؟
- الطول! أعتقد أنه ١٧٠ سنتيمترًا تقريبًا.
- طويل! هل لديكِ اهتمام بالملاكمة؟
- كلَّا، مطلقًا.
- كان ماكوتو هارا يلعب في وزن الديك. أي وزن ٥٢ أو ٥٣ كيلوجرامًا.
- ماذا؟ هل هو بتلك الخفة في الوزن؟ بل يجب القول إن ذلك أقل مني أنا شخصيًّا!
- كان «X» طوله ١٦٣ سنتيمترًا، وهو مناسب تمامًا من حيث الطول لذلك الوزن.
صمتت كادوساكي مجددًا وأخذت تفكر ثم في النهاية قالت:
- لكن الطبيب الذي عالجه قال إن إصابة السيد هارا بمرض «كليبتومانيا» ربما بسبب ممارسة رياضة الملاكمة. بالطبع موضوع أبيه كان السبب الأكبر.
- هل تأكدت الشرطة من هويته؟ من رخصة القيادة أو غيرها من الوثائق المصورة؟
- لا أعتقد أنه كان يحمل رخصة قيادة، لأنه كان متشردًا بلا مأوى.
- آه، حقًّا!

- كانت لديه إعاقة عقلية خفيفة، فكان لا يستطيع الحساب مثلًا، هو يقول بسبب الملاكمة، لكن الطبيب يرجح أنه مولود بها.

- ....

- لكن إن كان «X» هو ماكوتو هارا الحقيقي، أليس هذا يا أستاذ كيدو فعلًا شائنًا؟ مهما كان يكره ماضيه، لماذا يخدع متشردًا بلا مأوى يعاني إعاقة عقلية ليتبادل معه هويته؟!

- أعتقد أن الأمر جرى من دون خداع. لو كان ماكوتو هارا هو ابن كِنكيتشي كوباياشي الحقيقي فهو يدرك ذلك جيدًا، أليس كذلك.

- مجرد أنه قال «أجل» فقط لا أدري هل كان يدرك أم لا. فهو يقول «أجل» على أي شيء. هل هذا من الجيد فعله مع مثل ذلك الإنسان؟

- ربما المال هو السبب.

- ربما كان المال هو السبب. لكن لا أعتقد مطلقًا أنه تلقى مبلغًا كبيرًا.

- على الأرجح هذا صحيح.

كان ما قالته كادوساكي صحيحًا تمامًا. إن كان حقًّا «X» هو ابن كِنكيتشي كوباياشي الحقيقي يمكن فهم أن الرغبة في التحرر من تلك الحقيقة هي أمنية شديدة الإلحاح بلا ريب. لكن لا يمكن التعاطف مع أن يُحمِّل شخصًا آخر عبء ذلك المصير. وإن كان ذلك عن طريق دفعه عنوة إلى شخص مشكوك في قدرته على الحكم على الأمور، فهو فعل لا يُغتفر!

لم يكن كيدو يفهم جيدًا شخصية ذلك الإنسان المدعو «X». لكنه كان في الوقت نفسه لا يفهم نفسه أيضًا.

لقد بدأ البحث في الأصل بسبب تعاطفه مع ريئه، وبسبب ذلك فقط كان يتمنى أن يكون «X» إنسانًا يستحق أن تحبه، حتى وإن كانت له ظروفه المعقدة. لأنه إن لم يكن كذلك ستكون تلك الأم الوحيدة التي لاقت أحداثًا تعيسة متوالية في حالة مزرية يرثى لها.

لكن كان كيدو على الأرجح يحسد «X» ومعجبًا به إلى حدٍّ ما، فهو يتخيله

أنه عاش حياة جديدة كشخص مختلف تمامًا بعد أن تخلى عن ماضيه. إن لم يكن الأمر كذلك فهو لا يستطيع بمهارة شرح سبب اهتمامه به. أليست الرغبة في عيش حياة إنسان آخر، أمنية عادية للإنسان الذي كُتب عليه أن يحيا حياة واحدة فقط حتى ولو لم يكن في حالة يأس؟ ولم يكن أمامه إلا أن يحلم بذلك فقط لأنه ليس لديه تهور اتخاذ ذلك القرار وتنفيذه. وبسبب أنه مقيم كان كيدو يتخيل ظروفًا متنوعة للإنسان المضطر إلى إخفاء هويته ويتعاطف معه، لكن كان سبب ذلك الحقيقي أن «X» كان شخصية محبوبة من امرأة مثل ريئه.

بعد لقائه مع أوميورا أصبح كيدو يخشى بجدية من احتمال أن يكون «X» قد ارتكب جريمة كبرى، وكان من قبل يعتقد أن ذلك مجرد أوهام وتخيلات من كيوتشي تانيغوتشي. ثم لم يكن أمامه إلا أن يعترف أنه ربما كان إنسانًا مختلفًا تمامًا عما تخيله.

عندما بدأ يفكر في احتمالية أن يكون «X» ابن كِنكيتشي كوباياشي، وكرد فعل على ذلك اشتد مجددًا إحساس كيدو بمشاعر «X». معاناته النفسية يمكن وصفها بالقدر المحتوم الذي لا دخل له فيه مطلقًا ولا لوم على الشخص نفسه. ثم كان لمراعاته ظروف تعاسة «X» تلك، فاعلية تخفف من قلق كيدو الحالي، من دونها كانت لتسوء حالته.

من أجل ذلك، شعر كيدو بمشاعر حزن مبهمة عندما ألمحت إليه كادوساكي بالقول: «أليس هذا فعلًا شائنًا؟»، ثم عندما بردت مشاعره وهدأت، فكَّر أن ذلك أمر غير طبيعي.

في كل الأحوال، كان استنتاج كيدو للأمر كما يلي:

على الأرجح أن الاسم الحقيقي للرجل المصاب بإعاقة عقلية الذي تولت كادوساكي قضيته هو الاسم الذي ألمح إليه أوميورا: «يوشيهيكو سونيزاكي».

لقد تبادل معه ماكوتو هارا هويته أولًا. وعاش بعض الوقت باسم «يوشيهيكو سونيزاكي». ثم بعد ذلك، قابل دايسكيه تانيغوتشي وتبادل معه الهوية للمرة الثانية أو سلبه هويته تلك غصبًا من اتجاه واحد. ثم قابل ريئه في بلدة سايتو على أنه «دايسكيه تانيغوتشي». ومن جهة أخرى إن كان دايسكيه تانيغوتشي الحقيقي ما زال على قيد الحياة، فيُفترض أنه منذ ذلك الوقت ينتحل اسم «يوشيهيكو سونيزاكي».

أيًا كان الأمر، كانت لدى كيدو رغبة في لقاء معتاد السرقة الذي ينتحل اسم «ماكوتو هارا»، لذا طلب من محاميته كادوساكي أن تعرِّفه عليه. ووافق الرجل على اللقاء بسرور بسبب احترامه وتبجيله لكادوساكي.

ذلك الشخص الذي ظهر في مقهى بجوار محطة هيغاشي ناكانو، كان يُفترض حسب هويته المدنية أنه من عمر كيدو نفسه، إلا أنه مهما نُظر إليه كان مظهره يبدو في منتصف الأربعينيات أو بداية الخمسينيات.

كان نحيفًا، ورأسه قصير الشعر جدًّا يختلط به الشيب، ومسطحًا أفقيًا وكأن شيئًا ما ضغط عليه من أعلى. وكان جفناه العلويان يتدليان بثقل، وينتهي وجهه المعوج بأكمله إلى اليسار بطرف ذقنه الصغير الذي انحرف عن المركز. وجَّه كيدو عينيه إلى أنفه الرفيع البارز إلى الخارج. فلم يبدُ ذلك الوجه قَطُّ وجه ملاكم سابق تلقى لكمات إلى درجة أن يقول: «ضُربت بإفراط حتى أصبحتُ غبيًّا».

– أهلًا يا أستاذة.

سَعِد ذلك الرجل الذي وصل أولًا وانتظر على الطاولة، سعادة حقيقية للقاء كادوساكي.

كانت كادوساكي محامية شابة في النصف الأول من الثلاثينيات من عمرها، ومظهرها من تسريحة الشعر إلى ملابسها يرسم صورة حقيقية للجدية. مد الرجل يده للسلام عليها، فسألته عن حالته الصحية بنبرة حميمية

ودود. وعندما عرَّفته على كيدو، حيَّاه بابتسامة تبجيل مع انحناءة من رأسه. قدَّم له كيدو نفسه بإيجاز، وطلب قهوة من النادلة التي جاءت حاملة أكواب الماء. كان الوقت عصرًا في يوم عمل من أيام الأسبوع، لكن كان المقهى مزدحمًا بزبائن من السيدات متوسطات العمر والمتقدمات منه.

وعندما هدأت الطاولة وجه إليه كيدو ضربة سيف مباشرة بأن قال له:

- السيد يوشيهيكو سونيزاكي!

وانتظر ليراقب رد فعله.

كانت تعبيرات وجه الرجل تقول «ماذا حدث لذلك الشخص؟»، وآثار الابتسامة الباقية تعلو وجهه كما هي.

سأله كيدو من جديد:

- السيد يوشيهيكو سونيزاكي! هل تعرفه؟

- أجل.

- ما علاقتك به؟

- أجل. لا أعرفه.

- ماذا! ألا تعرفه؟

- أجل.

- معذرة، لكن ألست أنت حقًا السيد يوشيهيكو سونيزاكي؟

- أنا ماكوتو هارا. إنني بالتأكيد كذلك.

اندهشت كادوساكي الجالسة بجوار كيدو من كلمة «بالتأكيد» ثم تحدثت إليه بطيبة قلب:

- أعتذر إليك، يا سيد هارا، لهذا السؤال المفاجئ، من المؤكد أنك اندهشت منه.

بدا عليه الاضطراب فطلب منها المساعدة. ويبدو أنه شعر تجاه كيدو بمشاعر كراهية.

- في الحقيقة، لقد مات زوج موكلة الأستاذ كيدو.

ثم شرحت له كادوساكي الأمر باختصار متقن.

- وهنا فكَّر الأستاذ كيدو أنه من المحتمل أن مَن مات هو ماكوتو هارا.

- أعتذر عن سوء أدبي. لكن تلك الزوجة تعاني معاناة شديدة بسبب عدم معرفتها هوية زوجها الراحل. وأنا أريد مساعدتها بأي شكل ممكن. ثم سمعتُ من أحد الأشخاص أن اسمك الحقيقي هو يوشيهيكو سونيزاكي، لذا سألتك وأنا أدرك أن ذلك وقاحة مني.

وضع الرجل لبنًا وسكرًا بكمية كبيرة في كوب القهوة وأمسك مقبض الكوب وأدار مقلتيه يمينًا ويسارًا. ثم فتح فمه باتساع من دون أن ينطق.

«إن هذا الرجل ليس ماكوتو هارا!».

كان ذلك اقتناع كيدو في تلك اللحظة، ولم يستطِع أن يسيطر على دهشته. ثم فكر أن سبب عدم استطاعته الحديث هو أن أوميورا هدده لكيلا يتكلم. من المؤكد أنه مهدد لكي يحافظ على السر.

- حسنًا، سأغير السؤال، هل تعرف السيد نوريو أوميورا؟

- أجل.

- تعرفه؟

سأله كيدو لكي يتأكد من معنى كلمة «أجل» تلك. كرر الرجل بنبرة حاسمة قائلًا:

- أجل.

- ألم يتوسط السيد أوميورا هذا من أجل تبديل الهويات؟

نظر الرجل ناحية كادوساكي وسألها في صمت هل يجب عليه أن يبتلع الكلمات المحشورة في حنجرته أم يجب عليه جذبها وإخراجها للعلن؟

- لا تخَف من الحديث. سيكون هذا أسهل لي لكي أستطيع مساعدتك، هل اسمك حقًّا ماكوتو هارا؟

- أجل.

- إذن ما اسمك الحقيقي؟

- حسنًا، هل سيؤدي ذلك إلى دخولي السجن مرة أخرى؟
قال كيدو وهو ينظر إلى عينيه:
- أي شيء أسمعه هنا لن أبوح به لأحد أيًّا كان.
حار الرجل لكنه قال فجأة:
- في الحقيقة أنا شوزو تاشيرو.
تجهَّم وجه كيدو وشعر بأن كادوساكي تبتلع لعابها بجواره.
- هل هذا اسمك الحقيقي؟
- أجل.
- هل أبدلت ذلك الاسم مع السيد ماكوتو هارا؟
- أجل. هذا ما حدث. الاسم والهوية والسجل المدني وكل شيء.
- ما السبب؟ من أجل المال؟
- أجل. بالإضافة إلى أن كوني متشردًا يصعب عليَّ الحصول على عمل أو أن أقترض مالًا.
- هل قيل لك ذلك؟
- أجل.
- ولهذا السبب أبدلت هويتك مع السيد ماكوتو هارا؟
- أجل.
- وهل تعرف مَن هو السيد ماكوتو هارا؟
- أجل.
- هل شرح لك هو نفسه ذلك؟
- أجل. الوسيط هو مَن شرح لي ذلك.
- ألم تقابل الشخص نفسه مباشرة؟
- بلى. قابلته.
- إذن اسمك السيد تاشيرو. وليس يوشيهيكو سونيزاكي، أليس كذلك؟
- بلى. لا أعرف مَن يوشيهيكو سونيزاكي هذا!

هز ذلك الرجل الذي ادعى مجددًا أن اسمه «تاشيرو» رأسه بالنفي بوضوح. وشعر كيدو بأنه لا يكذب.

أخرج كيدو صورة «X» وأراها له.

- هل هذا هو الرجل المُسمَّى «ماكوتو هارا» الذي أبدلت معه هويتك؟

مرة أخرى جزم ذلك الرجل بالقول بسلوك لا يترك أي قدر من الغموض، وكأنه يقسم بكبريائه وعزة نفسه تقريبًا على ذلك:

- أجل. ليس هو هذا الرجل. أنا لا أعرف مَن هذا!

بعد ذلك أكل الثلاثة كعكة وسمع منه قصة حياته التي عاشها حتى ذلك الوقت. تخرَّج في المدرسة المتوسطة وانتقل بين الأعمال والوظائف، لكنه أينما ذهب تُصب عليه اللعنات والسباب، بأنه بطيء وغبي وبليد الذهن، إلى آخره. فلم يستطِع الاستمرار وبات بلا مأوى قبل عشر سنوات. والمبلغ الذي حصل عليه من تبديل الهوية بعد دفع العمولة كان ثلاثين ألف ين. وقال إنه لا يعرف كم دفع ماكوتو هارا إلى أوميورا.

وعندما سأله ألم يعتقد أن حياته ستصبح على العكس أصعب فأصعب عندما يصبح ابن كِنكيتشي كوباياشي قال:

- بلى. لكن كان اسم العائلة مختلفًا وأنا لن أقول ذلك لأحد.

غادر المقهى بعد ساعة ونصف الساعة تقريبًا، وبعد أن أصبح كيدو وكادوساكي بمفرديهما بدا أنها لا تقدر على قول شيء من الصدمة.

- تُرى ماذا كان دعمي له حتى الآن؟ السيد هارا، كلَّا بل السيد تاشيرو، لم يتحدث عن قضيته، لكن كنتُ أعتقد أن ذلك هو الطبيعي ولم أكن أسأله بعمق!

- لا حيلة في ذلك.

- كنتُ أعتقد أحيانًا أن إصابته بمرض «كليبتومانيا» بسبب الملاكمة، وأحيانًا بسبب والده، وكان يبدو صادقًا فبدا لي الأمر كذلك فعلًا.

وكنت أفكر أن التجاعيد عند طرف عينيه بسبب المعاناة الكبيرة من العيش بوصفه ابن مجرم قاتل، كنتُ أشعر بذلك حقًّا!

- لكن، من المؤكد أنه أيضًا يملك ماضيًا يمتلئ بالكثير أليس كذلك؟ لأن في تعبيرات وجهه لا يتغلغل إلا حزن تام ووحدة تجريدية.

قال كيدو ذلك وهو يواسيها. وفكر في أمر «X» الذي كان يحكي بألم حياة دايسكيه تانيغوتشي على أنها معاناته الشخصية.

كتب كيدو رسالة إلى أوميورا يطلب منه اللقاء مرة أخرى، وهو يفكر أنه على الأرجح سيتجاهله. وفكر في أنه يجب أن يجذب محتوى الرسالة انتباهه فكتب:

> لقد بحثتُ بنفسي بعد ذلك، وفهمت أخيرًا ما كنت تعنيه في البطاقة البريدية.

جاء الرد على الفور من أوميورا. من دون رسم توضيحي ولا لوحات بل كتب يشكره، وأنه يمكنه أن يأتي لزيارته في أي وقت. السجناء في العادة يفضلون زيارة من الأشخاص خارج السجن، ولذلك ليس بالضرورة أن يكون تغيُّر موقفه هذا عجيبًا، لكن شعر كيدو بالدهشة من تغيُّر رأي أوميورا بشكل خاص.

في يوم التاسع والعشرين من ديسمبر، حيث اقترب العام من نهايته ذهب كيدو مجددًا إلى سجن يوكوهاما لمقابلة أوميورا. لم تكن الثلوج تهطل، لكن كانت السماء غائمة والهواء باردًا ويتردد صدى صوت الحذاء الجلدي الذي أصبح سريعًا تلقائيًّا فوق طريق المشاة الأسفلتي بصوت صلد جاف.

بدأ المكتب عطلة رأس السنة منذ اليوم السابق، وكانت القطارات بدأ يقل ركابها أخيرًا. ولأنه لم يسبق له زيارة السجون في وقت مثل هذا لذا أصبح يشعر ببعض الانفعال.

أضاف هدوء نهاية العام بحزم وصرامة كآبة لثقل عام كامل.

بمجرد أن دخل أوميورا إلى غرفة الزيارة، قال موجهًا ناحيته طرف ذقنه وهو يفتح عينًا واحدة:

- أهلًا بالمحامي الكوري! غِبت عنا فترة طويلة!

إزاء ذلك السلوك بسط كيدو خديه قليلًا وانحنى برأسه قائلًا:

- لم نتقابل فترة طويلة حقًا.

ذلك السلوك الذي أشعل داخله الكراهية والبغضاء إلى تلك الدرجة من قبل، لسبب مجهول لم يجعله الآن غاضبًا قَطُّ! ليس بمعنى أنه شعر بحميمية أو ألفة، وعلى العكس لم يكن يتذلل له، وفي كل الأحوال، في تلك اللحظة كان ثمة شيء ما يستدعي الضحك.

- تبدو عليك الصحة الجيدة.

- يجب ألا تمزح! فأنا أعيش بصعوبة بالغة هنا.

- لقد قابلتُ السيد ماكوتو هارا.

عندما قال كيدو ذلك، للحظة زمَّ أوميورا شفتيه ونظر بإحدى عينيه إليه في ارتياب.

- حقًا؟ لقد كان هنا حتى وقت قريب.

- هل كنت الوسيط له أيضًا؟

- في ماذا؟

صمت كيدو منتظرًا أن يفتح أوميورا فمه.

- حسنًا، لا أدري عما تتحدث! لكن ليست لي علاقة بالأمر.

- إنه شخص آخر في الحقيقة، أليس كذلك؟

- عمَّن تتحدث؟

تجاهل كيدو سؤال أوميورا الذي يتظاهر بالجهل.

- ألم يشعر السيد ماكوتو هارا الحقيقي بالتردد في أن يفرض عليه قدره الذي وُلد به؟

عندما سمع أوميورا ذلك هز خديه فجأة من الدهشة، وضحك ضحكة ذات معنى.

- في النهاية، أنت لا تعرف أي شيء يا أستاذ!
- أحقًا ذلك؟!

كان يبدو على أوميورا أنه سعيد سعادة بالغة وطأطأ رأسه وهو يبتسم ابتسامة شريرة.

قلق كيدو من السجّان الذي يسجل محتوى الحوار في سجل الزيارة، لكن كان ذلك القلق لا ضرورة له. فقد كان يغرق في الملل الذي لا يزعزعه أي شيء مطلقًا بحكم الوظيفة، فأبعده تمامًا عن أي فعل شاق، وجعله لا يكترث بأي شيء. كان حوارًا مريبًا، لكن لم تكن يد السجّان تتحرك تقريبًا.

- حسنًا، ربما كان الأمر كذلك. لكنني عرفت الاسم الحقيقي للرجل الذي كان مسجونًا هنا، لكن في مقابل ذلك أصبحت لا أعرف مَن يكون يوشيهيكو سونيزاكي! الذي كتبت اسمه في البطاقة البريدية.

شكوى كيدو الصريحة لم تكن سببًا في أن يتحرك أوميورا، بل أظهر ما يُبيِّن أنه على وشك القيام من مقعده في التو والحال ثم قال:

- إنك يا أستاذ تُظهر غباءً شديدًا. ألا تخجل من حياتك تلك؟

لم يكن أمام كيدو إلا أن يبتسم ابتسامة مصطنعة، لكن بدا أن رد فعله لم يرُق له، لذا استمر ثواني يندد بمحتوى الرسائل التي كتبها حتى الآن وكأنه يحاول تحطيم كبرياء الطرف الآخر تحطيمًا تامًّا. نظر السجّان، لكن ليس إلى أوميورا، بل إلى كيدو وكأنه يرى شخصًا نادر الوجود. بالطبع لم يرضَ كيدو عن ذلك المحتوى، أي نعم غضب بالفعل، لكنه شعر بأن مثل هذا التنديد عبارة عن برنامج من برامج السيطرة على العقل.

- مع أنك يا أستاذ كوريٌّ إلا أنك تحتقرني، أليس كذلك؟ تقول في سرك إنه مجرد محتال! وفي الأصل لا تثق بأي شيء أقوله لك من

البداية. وفي الوقت نفسه الذي تعتقد فيه أنني عنصري، كنتَ أنت الذي تعاملني بعنصرية وتحيز!

كان كيدو على وشك أن يقول له: «ليس تحيزًا مني، لكنك بالفعل تقضي حكمًا بتهمة الاحتيال! أليس كذلك؟».

لكن إن قيل إنه يحتقره فهو يحتقره بالفعل! وهو يمسك بمثل هذه الكلمات التي يختلط فيها الخير والشر على طرف لسانه. كانت في كلمات أوميورا وطريقة حديثه، التي تحاول خلق موضع لقدمه من خلال الوطء بقدم راسخة على قلب محدثه من حوافه، مَقدِرة يجب وصفها بأنها استعراض لملكاته الطبيعية. ولم يحتمل كيدو تفكير أنه لو كان يستمع إليه وجهًا لوجه في مطعم أو مقهى أو أي مكان غير هذا المكان، لتقبَّل برحابة صدر كل ما يدعيه.

- هل أقول لك يا أستاذ أغبى ما فيك؟

- ماذا؟

- إنك تعتقد أنني بتُّ محتالًا بسبب تصويري عنوة في فيديو إباحي للوطيين! أليس كذلك؟

- لا أبالغ حتى ذلك المدى، لكنني أعتقد أنها قصة يجب وضعها في الحسبان بشدة، لأنك قلتها لي بإصرار في أول لقاء يجمعنا.

- لماذا تعتقد أن هذه القصة فقط حقيقية، مع أنك تحتقرني بوصفي كذابًا ومحتالًا؟

- ....

- لذلك قلت لك إنك أبله يا أستاذ!

قال أوميورا ذلك ثم قرَّب وجهه من لوح الأكريليك في سلوك يضع كيدو تحت ناظريه:

- كيف تعرف حتى أنني «نوريو أوميورا»؟ هل لي وجه يدل على وجه «نوريو أوميورا»؟

فَقَد كيدو القدرة على النطق! وظل يحملق فقط إلى عينيه.

- حتى صانع الوشم! لا يصنع الوشم على أجسام الآخرين فقط، بل في البداية يصنع وشمًا على جسمه هو أولًا، أليس كذلك؟ لماذا إذن تعتقد أنني لم أبدِّل هويتي أنا أيضًا؟ إنك لا مثيل لك في الغباء!

- أنت أيضًا! شخص آخر مختلف في الحقيقة؟

ضحك أوميورا باستمتاع تجاه سؤال كيدو المباشر. ثم عندما أُبلغ بانتهاء وقت الزيارة قال له أخيرًا ما يلي:

- لأنك مسكين أيها المحامي الكوري، فسوف أُعلمك شيئًا واحدًا فقط. إن الرجل الذي تجتهد بحماس لكي تعرف هويته، هو في الواقع شخص في منتهى الملل والتفاهة! يبدو أنك تحمل أمنية غريبة، لكن في النهاية تلك هي طبيعة ابن المجرم القاتل. أنت لديك أسرة، أليس كذلك؟ احترس إذن من الثعابين السامة إن اقتربت من الأحراج أو لمستها!

١٥

قضى كيدو ليلة رأس السنة كما هي العادة في كل عام في بيت أسرة كاوري القريب من بيتهم، ثم بعد بداية العام ذهبوا إلى بيت أسرة كيدو في كانازاوا.

قضت كاوري وقتًا ممتعًا مع والديها وشقيقها، ثم تعاملت مع حماتها وحميها بلطف وود، فكانت عطلة رأس السنة ليس بها أي تغيير على السطح. وكان كيدو كذلك عندما يجتمع مع الأسرة حول مائدة الطعام يتحدث مع زوجته بوجه باسم في تلقائية وطبيعية تامة، وبعد أن يذهبا إلى الغرفة المخصصة لهما للنوم في بيت كل من الأسرتين، يفرشان معًا فراش النوم ويتأكدان من جدول مواعيد اليوم التالي، فيتبادلان الحوار الضروري بينهما.

وكان سوتا الذي في العادة يذهب معه أبوه أو أمه إلى غرفته حتى ينام، ثم بعد ذلك يظل وحيدًا حتى الصباح، أصبح عندما ينام بينهما غير قادر على النوم بسهولة من شدة حماسه وانفعاله.

إن وصل الأمر إلى الطلاق فلا بد من شرح تلك الظروف لكلٍّ من الأسرتين، وعندما يفكر كيدو في ذلك يصاب بالهم والغم. وسيضطر إلى الصراع مع كاوري على حق حضانة سوتا، ومع أنه ليس لديه أي نية في أن يتنازل عن ابنه مطلقًا، إلا أنه يرى أيضًا أن من القسوة اختطافه من حضن أمه. كثيرًا ما يجري نقاش في مكتب المحاماة الذي يعمل به يتعلق بإدخال نظام الحضانة المشتركة بين الزوجين بعد الطلاق. وكل من الأسرتين

يحبون الحفيد من أعماق قلوبهم، ولذا كان يشعر بالأسف والرغبة في الاعتذار إليهم.

وعلاوة على ذلك، فحتى وإن بدا حاليًّا أن سوتا يحبه حبًّا شديدًا، لكن لو خُيِّر بين أبيه وأمه فكيدو يرجِّح أنه سيختار الأم.

وفي كل الأحوال، فكل شيء يتعلق بالطلاق وحشي وقاسٍ، ويُفترض أن كلًّا من الزوجين ليسا في وضع يحتم عليهما أخذ القرار الحاسم، هكذا فكر وهو يتأمل سقف بيت الأسرة المظلم داخل الفراش الذي يسمع فيه أنفاس زوجته النائمة بلا نهاية.

بعد أن قلَّ مؤقتًا ضغط بدايات العام في العمل، زار كيدو صالة الملاكمة التي كان يتدرب فيها ماكوتو هارا في الماضي، التي تقع في حي كيتاسنجو، وقد كان لدى كيدو فضول تجاهها منذ نهاية العام الماضي.

بالنسبة إلى رياضة الملاكمة كان كيدو منذ الصغر يشاهد البث المباشر في التلفزيون للمباريات العالمية، وفي نهاية التسعينيات وبتأثير من انتشار الرياضات القتالية، قَوِي لديه الاهتمام بالناحية الفنية فيها، فأصبح في إحدى مراحل عمره يشاهد المنافسات الشهيرة على الإنترنت.

لكن هذه هي أوَّل مرة في حياته التي يدخل فيها صالة ملاكمة، ولقد تذكر على العكس المانغا الخاصة بالملاكمة التي كان يعشقها في صباه مثل «اجتهد يا غِنكي!» ومثل «جو الغد!»، وهو يمشي في سوق المحلات الشعبية المُسماة «سوق شوا» في شارع واحد من المحطة تحت الهواء البارد.

كانت أعمدة الإنارة تبدو وكأنها إنسان مطأطئ الرأس ينتظر صديقًا تأخر عن موعده.

تأكد كيدو عدة مرات من الخارطة وهو يفكر هل حقًّا توجد صالة ملاكمة في مثل هذا المكان! لكن بعد قليل ظهر مبنى ولوحة تدل على ذلك.

عندما أرسل إليه «إيميل» سابقًا بالرغبة في الزيارة قبل مجيئه رد عليه مدير الصالة سريعًا بقبول الطلب مسرورًا. وقال له إنه يتذكر ماكوتو هارا جيدًا، وعندما عرف بموته تلقى صدمة شديدة. وعندما قال له إن زوجته تريد أن تعرف حياته قبل موته، اتصل أيضًا بملاكم سابق كانا يتدربان معًا.

عندما فتح كيدو باب الصالة الزجاجي نظر إليه الشاب الذي يقف فوق الحلبة وشابان تحتها في وضع الاستعداد، ثم نادى أحدهم على المدير بصوت عالٍ من غرفة الإدارة الداخلية.

فخرج رجل في الخمسين تقريبًا من عمره، يرتدي بدلة تدريب سوداء. إنه مدير الصالة واسمه «كوسوغي» الذي تبادل معه الإيميلات، وعندما ألقى كيدو عليه التحية استقبله بابتسامة من وجهه الذي بدا في غاية الصحة والحيوية.

كانت الصالة في السابق مصنعًا للحوم، وتتدلى من السقف العالي مصابيح عملاقة ومع أنه عند النظر عاليًا تكون الإضاءة شديدة، إلا أنه بسبب قلة عددها بالنسبة إلى حجم الصالة، بدت الصالة معتمة إلى حدٍّ ما.

أُدخل كيدو إلى غرفة داخلية، بعد أن مر بين عدد من أكياس الرمل الحمراء والسوداء المتدلية من السقف.

تنساب موسيقى «التكنو» ويدق منبه ليعلن عن الوقت كل ثلاث دقائق. وعلى جدران الصالة الأربعة عُلقت ملصقات في مكان ضيق للأحداث التي تقيمها الصالة ولصور المباريات العالمية الشهيرة في الماضي مثل مباراة مايك تايسون ضد إيفاندر هوليفيلد. وتُزين أحد الجدران صورة لمؤسس الصالة الراحل مع بعض من إرشاداته التعليمية، وجدول بقائمة التدريبات اليومية، وصور لأبطال الصالة على مدى العصور وهم يرتدون حزام البطولة. كل شيء كان نادرًا وغريبًا بالنسبة إلى كيدو.

في غرفة الإدارة، يجلس الملاكم السابق الذي كان يتدرب كثيرًا مع

ماكوتو هارا واسمه «ياناغيساوا» ويبدو أنه أكبر قليلًا في العمر من ماكوتو، وهو الآن معتزل الملاكمة وأعطى لكيدو بطاقة اسم لمحل أدوات صيد يعمل به في حي كينشيتشو.

بنية التأكد مما أبلغه به من قبل من خلال الإيميل، شرح كيدو الظروف التي أدت إلى الوضع الحالي في إيجاز، وأراهما صورة «X» وهو يسأل:

- هل هذا الشخص هو ماكوتو هارا؟

نظر كلٌّ من كوسوغي مدير الصالة، وياناغيساوا زميله في التدريب إلى الصورة نظرة سريعة ثم أومأ كلاهما وقالا:

- أجل، إنه ماكوتو.

- هل أنتما متأكدان من ذلك؟

- أجل. عندما عرفت أنك ستأتي يا أستاذ، أخرجت صورة قديمة له. إنه الشخص نفسه، أليس كذلك؟

أراه كوسوغي صورة لماكوتو هارا يلبس قفازات ملاكمة حمراء ويأخذ وضعية القتال. كان وزنه يبدو منخفضًا جدًّا، لكنه كان «X» من دون أدنى شك.

ظل كيدو بعض الوقت يتأمل تلك الصورة في صمت وقد شعر بأنه وصل إليه أخيرًا. الرجفة التي بدأت من كتفيه، التي لم تعرف أين يمكنها أن تندفع لتعبر عن نفسها، جرت مرات في الظهر فترة ثم تبعثرت في ذراعيه وساقيه.

الحدس المفاجئ الذي لمع في ذهنه في أثناء معرض لوحات سجناء الإعدام أن «X» هو ابن كِنكيتشي كوباياشي، أوصله إلى هذه اللحظة. كان كيدو نفسه يستوعب بذهول أن ذلك التخمين العشوائي كان صحيحًا، وقد كان يُعِد نفسه أن يتنهَّد تنهيدة أسى عندما يتضح أنه ليست له علاقة بالأمر.

سأله كوسوغي مدير الصالة بعد أن وجده لا يتكلم:

- كيف مات ماكوتو؟

رفع كيدو وجهه وكأنه عاد إلى وعيه:
- كان يعمل في شركة لقطع الأشجار في الغابات، ومات في أثناء العمل.
ثم شرح تفاصيل أكثر لا ضرر من ذكرها. سمعه كوسوغي وهو يشبك ذراعيه حول صدره وفمه نصف مفتوح. وكان ياناغيساوا كذلك يسمع وهو يصنع تجاعيد تشبه تجاعيد البرقوق المخلل عند ذقنه.
ومن خلال ذلك السلوك أدرك كيدو أن كليهما يعلم أصول ماكوتو.
- في أي وقت بدأ يتردد على هذه الصالة؟
- في ربيع عام ١٩٩٥. أتذكر ذلك جيدًا، لأنه كان بعد وقوع زلزال هانشين الكبير، وجريمة سكب غاز الخردل السام في مترو أنفاق طوكيو.
- آه، في ذلك العام!
- في البداية قلت له مازحًا ألستَ عضوًا في الحقيقة السامية وهربت منها إلينا؟
قال ياناغيساوا ذلك مازحًا بصوت هامس. فأسرع كوسوغي يقول لكيدو الذي ظهرت عليه علامات الارتياب:
- لقد كان ماكوتو لا يتحدث مطلقًا عن نفسه. وكذلك كانت عيناه ذواتي طبيعة خاصة جدًّا، فكان يعطي إحساسًا بأن لديه ظروفًا ما. كان إنسانًا حساسًا غير ماهر في التعامل مع الآخرين، وفي الوقت نفسه كان يملك طبيعة مستقرة ذات قوة مؤثرة.
- بالنظر إلى الصور فقط تبدو عيناه لشخص طيب القلب.
- عندما أرى تلك الصورة أشعر بذلك على خلاف ما كان وقت وجوده هنا. أعتقد أنه أصبح سعيدًا من خلال حياته مع تلك الزوجة، أليس كذلك؟
- بلى. سمعت أنه كان كذلك.
أومأ كيدو وهو يؤمن بذلك من أعماق قلبه.
- لكنه عندما كان ملاكمًا كان هكذا.

أشار كوسوغي إلى الصورة القديمة مرة ثانية، وكما قال، عند النظر إلى عينيه فقط يبدو إنسانًا آخر.

- لكن في كل الأحوال كان إنسانًا صالحًا وطيب القلب. ليس معنى ما قلت إن عينيه كانتا مرعبتين مثل عينَي النمور مثلًا، كيف يمكن قول ذلك!
- لقد رأى الكثير، رأى أمورًا متنوعة.
- أجل. كانت له مَقدرة على التميز. فالملاكمة لأنها رياضة تنافسية تعتمد على وضعك في موقف المواجهة هكذا وجهًا لوجه. وفي ذلك الوقت يتضح بجلاء مَن يمتلك حس الملاكمة ممَّن يفتقده.
- هل الأمر كذلك! لماذا بدأ ممارسة الملاكمة؟ وهل كان من البداية يهدف إلى أن يكون محترفًا؟
- في البداية بدأ من دون تفكير. كان يقف أمام مدخل الصالة يشاهد التدريبات، وفي أثناء ذلك دخل فجأة إلى الصالة. أتذكر ذلك جيدًا حتى الآن.

ألم يكن ماكوتو بتلك الحالة نفسها عندما دخل لأوّل مرة محل الأدوات المكتبية الذي تملكه ريئه في بلدة سايتو؟ اختلط المشهدان داخل ذهن كيدو وامتزجا معًا. ربما كانت تلك طريقته الدائمة التي تمتلئ بالحذر، في لمس معالم هذه الحياة.

- إذن في أثناء الممارسة ظهرت مهارته؟
- أجل، أجل. لم يكن لديه أي معرفة سابقة عن الملاكمة، لكن كانت لياقته البدنية الفطرية جيدة جدًّا، وكان سريع الحفظ. فانهمك في الملاكمة وكأنه يقول: هذا هو طريقي الوحيد. وهذا هو أهم شيء في النهاية.

ضرب كوسوغي على صدره مرتين أو ثلاث مرات بإبهامه. وشعر كيدو في قبضة كوسوغي التي سلَّم بها عليه فقط بقوة مؤثرة في تجاعيدها المعقدة تختلف تمامًا عن قبضة الإنسان العادي.

- لقد عرضتُ عليه بعد أن بدأ هو نفسه يميل إلى ذلك. قلت له ما رأيك لو تُقدِّم لاختبار الاحتراف. وكان السيد ياناغيساوا كذلك يتدرب باجتهاد لكي يكون محترفًا.
- هل عدد مَن يستهدف الاحتراف قليل؟
- الآن قليل فعلًا. إن عدد الأعضاء هنا ثمانون فردًا تقريبًا. أغلبهم هواة. من ضمنهم الإناث اللائي يمارسن الملاكمة من أجل الرشاقة. فمن الصعب أن يستطيع المحترف أن يعيش فقط على دَخْل الاحتراف. أجل يبقى فقط أن الجادين منذ البداية في الاحتراف يبحثون حاليًّا في الإنترنت عن الصالات المشهورة، ويذهبون إليها. أما صالة مثل هذه الصالة الصغيرة في منطقة شعبية، فمن الصعب...
- مفهوم. لكن كم يصل المبلغ؟ أعتذر عن هذا السؤال لكنني مهتم.
- أجرة العضوية عندنا عشرة آلاف ين. وبالمبلغ الشهري اتحاد الملاكمة يضع حدًّا أقصى اثني عشر ألف ين في الشهر، يُضاف إلى ذلك التكلفة المكملة مثل صُنع قطع حماية الأسنان وشراء القفازات، إلى آخره. فهي رياضة يمارسها المرء عاريًا، لذا التكلفة ليست كبيرة.
- أعتقد أنه يقصد دَخْل الملاكم.

نظر ياناغيساوا إلى تعبيرات وجه كيدو، وتدخل في الحوار وهو يبتسم حرجًا. ثم أجاب هو بدلًا من كوسوغي الذي ظهرت على وجهه تعبيرات الدهشة.

- يخوض الملاكم ثلاث مباريات في العام على الأغلب. في المباريات الرباعية يكون مبلغ الملاكمة الذي يحصل عليه أربعين ألف ين، والمباريات السداسية مائة ألف ين. ولذلك فمستحيل أن يستطيع أحد العيش بهذا المبلغ. بل ولا يكون نقدًا، بل عبارة عن تذاكر للمباريات. لذلك شخص مثل ماكوتو ليست لديه القدرة على الاعتماد على الأصدقاء، يكون الأمر معاناة كبيرة.

- هل معنى هذا أن الجميع يمارسون الملاكمة وهم يعملون أعمالًا أخرى؟
- أجل. في مطاعم ومشارب على الأغلب. ماكوتو كان يعمل في مطعم صيني.

لم يسجل كيدو ذلك الحوار صوتيًّا، لكنه كان يدوِّن كل ما يسمعه.

- عند التقديم على اختبار المحترفين ثمة ضرورة لوجود بطاقة هوية، أليس كذلك؟
- عند الاختبار لا ضرورة لذلك. لكن عند إصدار الترخيص بعد النجاح ثمة ضرورة لوثائق تثبت الهوية مثل سجل الهوية أو شهادة إقامة البلدية.

كان كوسوغي يجيب عن أسئلة كيدو، لكنه فجأة بدأ يقلق على الملاكم الذي يتدرب تدريب الظل على الحلبة فالتفت إليه. نظر كيدو أيضًا إلى الملاكم. كان شابًا في العشرين من عمره تقريبًا يفرق شعره من المنتصف. في تلك المساحة المربعة التي لا يوجد أحد فيها غيره، يستمر في توجيه اللكمات إلى شخص ما يُفترض وجوده أمامه. يحرك قدميه بلا توقف ويهز نصف جسمه الأعلى بحركات دقيقة يمينًا ويسارًا من أجل أن يتفادى ضربات المنافس. ينطبع تأثير لكماته على جسد منافسه الذي لا يُرى حاليًّا، يفصل بينه وبين ذلك المستقبل قفص الحاضر!

تخيل كيدو أن ماكوتو أيضًا على الأرجح استمر يتدرب هذا التدريب الموحش كل يوم في هذه الصالة المنعزلة.

- المعذرة!

استغل اللحظة التي عاد فيها كوسوغي لينظر إليه، فسأله أكثر سؤال كان يريد توجيهه إليه:

- هل تعرف بأمر والد ماكوتو؟

أجاب كوسوغي وهو يتبادل النظر مع ياناغيساوا:

- أجل أعرف.

- منذ متى؟
- قبل أول مباراة له في الاحتراف. شاورني في أنه يريد أن يكون له اسم شهرة على الحلبة. بالطبع وافقته على ذلك. لأن رياضة الملاكمة متواضعة مقارنةً بالرياضات القتالية الأخرى. لذا من المهم أن يجذب الملاكم الجماهير إلى مشاهدته، ولذا قلت له أن يفكر في اسم صارخ جذاب. وعندها على العكس قال إنه يريد اسمًا عاديًّا لا يلفت الانتباه.
- ثم تحدث إليك عن سبب ذلك؟
- وقتها لم يقُل لي شيئًا. لكني سمعت بعد ذلك، بعد أن بات بطل المبتدئين في شرق اليابان.
- حقًّا؟!
- لقد أصابتني الدهشة أنا شخصيًّا، لكنني شجعته بالقول إن الأب أب، والابن ابن، لا علاقة بينهما. وإنه يجب أن يجتهد لأنها حياته هو!
- وهل تحدث إليك وقتها عن ماضيه؟
- أجل. عاش بعد الجريمة فترة عند خالته وزوجها، كانا في البداية عطوفَين، لكن مع الوقت لم يَعُد زوج الخالة قادرًا على التحمُّل، وبات موقف خالته بين زوجها وأختها كأنها بين طرفَي الرحى، فأصيبت بالاكتئاب، وفي النهاية ترك ماكوتو ذلك البيت.
- مأساة!
- بعد ذلك اختفت أمه تمامًا، وعاش ماكوتو في مؤسسة رعاية الأحداث حتى تخرَّج في المدرسة المتوسطة. وحتى في المدرسة كان الوضع مريعًا، من المتنمرين!
- لكن في ذلك الوقت ألم يتغير اسم العائلة فلم يَعُد «كوباياشي» وأصبح «هارا»؟
- المدرسة التي انتقل إليها في البداية كانت قريبة جدًّا، لذا انكشف أمره على الفور. إن والد ماكوتو قتل حتى الطفل الصغير، أليس كذلك؟

أكبر من ماكوتو بقليل. أصدقاء ذلك الطفل وجهوا إلى ماكوتو سهام الكراهية لأن والده قتل صديقهم. ثم المدرسة التي تردد عليها بعد ذلك من مؤسسة الرعاية، لم يكن أحد يعلم عن أمره شيئًا، لكن أمسى هو نفسه يميل إلى العزلة، وبات ذلك هو سبب التنمُّر أكثر من أنه بسبب والده.

– ألم يذهب إلى المدرسة الثانوية؟

– دخل مدرسة داخلية بدوام كامل، لكنه قال إنه تركها على الفور. ثم ترك وقتها مؤسسة الرعاية، وحتى مجيئه إلى هنا قضى عامين أو ثلاثة مشردًا بلا مأوى. لكنه لم يتحدث عن التفاصيل. إن الأحداث الصغار حياتهم صعبة بمفردهم، أليس كذلك؟ فقد تُركوا وحدهم في هذا العالم من دون مسكن يأوون إليه. منتهى البؤس.

– لقد نُفذ حكم الإعدام في كِنكيتشي كوباياشي عام ١٩٩٣، وكان وقتها ماكوتو في الثامنة عشرة من عمره، هل هو هذا التوقيت؟

– لقد كان ماكوتو يكره والده إلى درجة الموت. كان شخصًا هادئًا، لكن عندما يفكر لماذا وُلد لمثل ذلك الأب؟ يصير وجهه مرعبًا وكأن شيطانًا قد تلبَّسه، ثم يرتعش. وتصير عيناه حادتين وكأنهما مجوفتان. كان الطفل القتيل من ضمن أصدقائه الذين يلعب معهم، فكان لا يحتمل الموقف.

– وهل ذهب لزيارته في السجن؟

– كلَّا، لم يذهب. جاءته منه رسائل، يعبِّر فيها عن ندمه وعن الشعور بالذنب، لكنه في النهاية لا يتحدث إلا عن أنه يعاني وحتى الاعتذار نحو الضحايا كان شكليًّا فقط، ويبدو أنه تمنى من ماكوتو ألا ينسى الذكريات الحلوة معه.

تنهَّد كيدو عندما تذكر تلك المناظر الطبيعية الهادئة التي رسمها في السجن.

- وهل كان أبًا جيدًا تجاه ماكوتو؟
- لا أدري! فعندما يحدث ما حدث تختلف النظرة تجاه الذكريات. لكن في كل الأحوال، لم يقُل إنه كان يريد أن يظل والده على قيد الحياة. لكن بالطبع لا أعرف حقيقة ما في قلبه.
- بالطبع، هذا طبيعي.
- جاء إلى هذه الصالة بعد مرور عامين على إعدام والده. كان يرى أقرانه في العمر يذهبون إلى الجامعة، أو يبدأون العمل في وظائفهم، فكان يبحث عما يجعله يرغب في مواصلة الحياة.

أومأ كيدو كأنه يقول أفهم ذلك جيدًا.

التفت كوسوغي مجددًا نحو الحلبة.

- معذرة. هل تسمح لي. وقت قليل ثم أعود. اسأل السيد ياناغيساوا عن كل ما تريد أن تسأله ولا مانع أن تأخذ جولة حرة داخل الصالة إن كان لديك اهتمام بذلك.

ثم خرج فجأة من غرفة الإدارة. بالطبع وافق كيدو ثم وقف وانحنى له. كانت فاعلية مكيف الهواء متفاوتة، وعندما جلس مرة ثانية على مقعده أحسَّ بهواء بارد عند قدميه. ثم اكتشف أنه مر أكثر من ساعة.

ياناغيساوا الذي بقي مع كيدو، بعد أن نظر إلى كوسوغي الذي يلعب دور المنافس فوق الحلبة، قال بعينين ضيقتين:

- لقد وعظ مدير الصالة ماكوتو مرة. أجل.

بعد أن عدل كيدو جلسته ليكون في مواجهته قال متسائلًا:

- وعظ؟

بنبرة مَن يتحدث إلى شخص قريب منه في السن.

- لقد كانت لدى ماكوتو موهبة حقيقية. لا أعرف هل يمكن أن يكون بطلًا أو أنه موهبة نادرة، لكن مقارنةً بي كان رائعًا. وكانت علاقتنا جيدة بسبب اختلاف الأوزان.

- أجل.

- لقد نجح في اختبار المحترفين من أوَّل مرة، حتى ذلك الوقت كان الأمر على ما يرام. لكن فوزه ببطولة شرق اليابان للمبتدئين لفت إليه الأنظار. وكانت المباراة النهائية بالضربة القاضية. كان ذلك الوقت مختلفًا عن الآن، فلم يكن عصر الإنترنت بالطبع، كان لفت أنظار جزئيًّا. لكن قبل أن يلعب المباراة النهائية لتحديد بطل اليابان كلها للمبتدئين، قال ماكوتو لمدير الصالة إنه يريد الانسحاب. حتى أنا تشاور معي في الأمر.

- في النهاية ما اسم الشهرة الذي اختاره؟

- اسم الشهرة «كاتسوتوشي أوغاتا». كاتسوتوشي بمعنى الفوز. كنت معه، فتح دليل أرقام الهواتف وهو مغمض العينين فوجده في الصفحة التي فتحها.

ابتسم كيدو وهو يقول:

- هل قرره بتلك الطريقة؟

- أجل، قال إن الاسم ذو فأل جيد للفوز، وعندما يفوز يُكتب: فوز كاتسوتوشي «فوز» أوغاتا. فكان الجميع يضحكون، مما جعل ماكوتو يندم في النهاية.

لقد ظل كيدو يفكر في أمر ماكوتو هارا لأكثر من عام كامل، لكن هذه هي المرة الأولى التي يتخيله فيها يضحك في حياته قبل أن يلتقي ريئه. وهنا أحسَّ أن مظهره الذي كان حتى الآن لا يزيد على حكايات عن سيرته فقط، جرت فيه الدماء فجأة.

- هل كان السيد هارا كثير الضحك؟

- كلَّا، نادرًا. لم يكن شخصًا كئيبًا بل يعطي شعورًا بأنه عاقل ورزين. لذلك عندما رأيت صورته مع زوجته منذ قليل شعرت بأنه شخص آخر. كبر في السن، لكن باتت ملامح وجهه طيبة. وبدا سعيدًا.

- أجل كان كذلك.
- حسنًا، ماذا كنتُ أقول؟ أجل، لأعود إلى حديثي السابق. سأله مدير الصالة عن السبب الذي يجعله يريد الانسحاب من المباراة النهائية، وعندها تحدث لأوّل مرة عن أمر والده.
- هل انتبه أحد من ذوي العلاقة بالملاكمة لذلك الأمر؟
- كلَّا، يصعب القول، لكن لم يكن خوفه من انكشاف أمره، بل كان يتساءل هل يحق له أن يقف في موقف التألق هذا؟! هذا هو الأمر!
- آها.
- كان في حالة يرثى لها. الملاكمة التي بدأها بسبب كرهه لأن يكون في الظل على الدوام، ومع ذلك عندما تحدث المعجزة. أعتقد أنه كان يخاف السحق والتحقير. هذا من المؤكد، لكن لم يكن الأمر هذا فقط. كان يشعر بالأسف تجاه صديقه المقتول.
- أجل.
- أليس هناك مَن يحمل مرض اضطراب الهوية الجنسية، الذي يعاني عدم توافق الجسم مع الروح؟ في كل الأحوال لقد كان ماكوتو أيضًا كذلك. وكأنه سُجن داخل دمية بشعة الملامح ولا يستطيع الخروج منها إلى الأبد.
- هل تعني أنه لا يُنظر إليه إلا بوصفه ابن قاتل سفَّاح؟
- أجل. لكنه يتحدث أيضًا عن جسده نفسه. لقد كان صورة طبق الأصل من والده!
- أجل. كان كذلك فعلًا.
- ولذلك، عندما يفكر أن دماء أبيه نفسها تسري في عروقه، يحس بغُصَّة في القلب، ويشعر بالاشمئزاز من جسمه إلى درجة الرغبة في الخروج منه. ولا يستطيع بهذا الجسد احتضان الفتاة التي يحبها، لذلك ظل بتولًا عندما كان هنا.

أومأ كيدو عدة مرات وهو ينظر إلى أسفل من دون أن يواصل الحديث. تأمل يديه وقدميه التي في مرمى بصره. وفكر تُرى أي معاناة عندما يكون الجسد الذي يُفترض أنه الملجأ الأخير للإنسان جحيمًا! وما تلك الحياة التي تضطر الإنسان إلى أن يفتقد مؤهل أن يُحِب وأن يُحَب!

- ألسنا جميعًا نسأل بعضنا بعضًا أنشبه الأب أم الأم؟ لكنه لم يكن يستطيع ذلك. لأن شبهه بأبيه يجعله لا يحق له العيش في هذا العالم. لذلك لا تتوافق روحه وجسده. كان يشعر بقلق بالغ أنه في وقت ما سيتمرد هذا الجسد ولا يستطيع السيطرة عليه. وفي الأصل كان مَن حوله يقولون له ذلك ويتنمرون عليه. إن الشخص العادي مهما كانت درجة غضبه لا يفكر في القتل. لكنه كان يعتقد أنه يمكن أن يفعلها. ولذلك كان ماكوتو يرغب في إيلام جسده. كان يعاني إن لم يُضرب ويُلكم وأن يُتَنمر عليه خلال التدريب حتى الثمالة. ثم كان يريد أن يسيطر على حافز العنف الذي داخله من خلال ممارسة الملاكمة.
- هل هذا كان حافزه لممارسة الملاكمة؟
- هذا ما قاله هو بنفسه. لقد كنت أواسيه بالقول إنني لم يسبق لي أن سمعت عن أب وابنه ارتكبا جرائم قتل على مدى جيلين متتاليين. لكن قابل ماكوتو كثيرًا من التنمُّر، وأنا أيضًا كنتُ كذلك، يصبح العنف هو المنطق والحجة. إن كنت تُضرب كل يوم فمن أجل أن تتقبل هذه الحقيقة، إما أن تتحوَّل أنت نفسك إلى متنمر، وإما أن تفكر أنك تستحق ذلك الضرب. إن هذا في الأصل ما يحدث، مهما فعل الشخص.
- أجل. مثل إيذاء النفس. أنا أيضًا أتفهم أن الألم يخفف من مشاعر نفي الذات. في مرحلة المراهقة مثلًا.
- أجل. لكن مدير الصالة لم يفهم جيدًا ما قاله ماكوتو. اعتقد أنه يريد التكفير عن ذنب أبيه من خلال الألم والمعاناة، ورأى أن ذلك التفكير غريب، ورد عليه بقسوة شديدة قائلًا: «مهما كانت درجة معاناتك، فلن

تستطيع أن تعيد حياة مَن مات، وقولك: انظروا إليَّ إنني أتألم، مجرد إرضاء للذات فقط مثل رسائل والدك إليك». لكن على ما فهمتُ لم يكن ماكوتو يقصد شيئًا مما قال. وفي كل الأحوال كان المدير يقلق بشأن ماكوتو على طريقته الخاصة، وكان غاضبًا من التراجع في هذا الوقت بعد كل الجهد الذي بُذل. أعتقد أن مشاعره كانت مختلطة. ثم قال له إنها حياتك أنت وإن كنت قلقًا إلى تلك الدرجة، فلِمَ لا تذهب إلى أهل الضحايا وتشرح لهم الأمر؟ إن تقبَّل أهل الضحايا طريقة حياتك الجديدة، فمهما قيل لك، تستطيع أن تعيش من دون خجل أو تردد.

وجه كيدو عينيه إلى كوسوغي الواقف فوق الحلبة من دون أن يضبط عليه بؤرة النظر. على ما يذكر إن لمدير المكتب الهندسي المقتول شقيقًا أصغر ووالدين.

- مسكين ماكوتو!

ظل ياناغيساوا يفكر في أمر ما بملامح يبدو بها شوق مع أسى لا يدري أين يصرفهما.

- في ذلك الوقت كنا كثيرًا ما نركض معًا في الصباح في هذه المنطقة. ثم في النهاية عندما بات عليه أن يقرر ماذا يفعل، في ذلك اليوم أيضًا عرضتُ عليه الركض معًا، وعندما وصلنا إلى حديقة عامة قريبة بدأ ماكوتو يتأخر عني تدريجيًا، وعندما انتبهت ثم التفتُّ إلى الخلف، كان قد توقف عن الركض، ثم جثا على ركبتيه فجأة وكأن قواه انهارت، وعندما اقتربتُ منه أسأله: «هل أنت بخير؟»، ارتمى كما هو فوق الأرض وأخذ يبكي وهو يزحف على الأرض. في منتصف الحديقة الواسعة، يحك وجهه في التراب ويبكي بحرقة وبصوت عالٍ. كان الجو باردًا والأرض تمتلئ بالصقيع!

- حقًّا؟!

تخيل كيدو ذلك المشهد فشعر بالاختناق. على الأرجح هي الحديقة العامة التي مر عليها في طريق المجيء إلى هنا منذ وقت قصير.

- وهنا قلت له لا تذهب. لقد عرض المدير عليك الذهاب، لكن ليس عليك أن تتحمل المسؤولية. وعلاوة على ذلك ربما يثير ذهابك حفيظة وعداء أسرة الضحايا.

أجاب كيدو بملامحه فقط إجابة غامضة. ثم سأله بعد أن ترك فترة صمت قصيرة:

- وفي النهاية هل ذهب؟
- لم يذهب. بل يجب القول إن الحادثة وقعت بعد ذلك مباشرة.
- حادثة!
- سقط من شرفة الطابق السادس من مسكنه. أصيب بعدة كسور في أماكن متفرقة من جسمه إصابات بالغة، لكنه سقط فوق سطح مرأب سيارة، وأنقذ ذلك حياته في النهاية.
- وهل كان ذلك...

غمغم كيدو باقي السؤال. وبدا أن ياناغيساوا أدرك ما يريد قوله فأجاب:

- هو نفسه قال إنه خطأ غير مقصود وإنه لا يتذكر جيدًا ما حدث. لكن من الصعب أن يخطئ شخص ناضج ويسقط من شرفة الطابق السادس، وبها سور منيع. لكنني لا أعتقد أن ماكوتو كان يريد الموت. أعتقد أنه لم يدرِ ماذا يفعل فأراد الهروب من كل شيء. من الطبيعي أن الإصابة جعلت مباراة البطولة لا معنى لها. فظهرت على وجهه علامات الارتياح.
- وماذا قال المدير؟
- كانت صدمة هائلة بالنسبة إليه، بعد أن ظهر ملاكم محترف في الصالة بعد فترة غياب طويلة. اعتذر إليه ماكوتو، لكنه اختفى بعد خروجه من المستشفى. ولام المدير نفسه على ذلك لومًا شديدًا. وظل مدة طويلة

مصابًا بالاكتئاب، لكنه حاليًّا شُفِي تمامًا. لقد خرج فجأة من الغرفة الآن أليس كذلك؟ على الأرجح كان يتألم من تذكُّر تلك الأحداث.

نظر كيدو مرة أخرى إلى الحلبة وتعاطف مع كوسوغي.

- لقد كان المدير يريد أن يجعل من ماكوتو بطلًا مهما كلفه الأمر. لقد كان يريد أن يُغيِّر له حياته المأساوية تلك، ويجعله يثق بنفسه.

- أجل.

- لكن، كان ماكوتو يريد أن يكون إنسانًا عاديًّا فقط وليس بطلًا بصفة خاصة.

- ....

- كان يريد أن يعيش حياة هادئة عادية. من دون أن يلفت انتباه أحد، مجرد إنسان عادي. كان يريد ذلك من أعماق قلبه. لكن أعتقد أنه كان يعاني لأنه كان يعرف أن المدير يبذل كل ما في وسعه لكي يجعله بطلًا.

في اللحظة التي كتب فيها كيدو عبارة «إنسان عادي» في مفكرته، ظل فترة من الزمن صامتًا يتأمل تلك الحروف. وهو يدفع ويبعد الاعتراضات المعتادة التي تشتبك وتتلاحق معًا بإصرار وإلحاح، تقبل مشاعر الإجلال القوية المتضمنة لتلك العبارة كما هي تمامًا.

وفي النهاية وبسبب استمرار تأمله لتلك العبارة وقتًا أطول من اللازم وصل كيدو إلى أنه لم يَعُد يفهم قَطُّ معنى عبارة «إنسان عادي» تلك، وعندها سأل مجددًا:

- هل انقطعت أخبار السيد هارا بعدها؟

- أجل.

- متى كان ذلك بالتقريب؟

- عام ألف وتسعمائة و... تُرى متى كان؟ أجل وثمانية وتسعين.

- وبعد ذلك لا تعلم عنه أي شيء، أليس كذلك؟

- بلى.

أومأ كيدو لكي يعيد ترتيب كثير من الأحداث، واستمر يكتب ملاحظاته التي تهاون فيها قليلًا. لقد زار ماكوتو هارا بلدة سايتو باسم «دايسكيه تانيغوتشي» وقابل فيها ريئه بعد تسعة أعوام من ذلك.

وأخيرًا رفع وجهه وعندها سأله ياناغيساوا:

- هل لي بسؤال؟

- أجل، تفضَّل.

- هل كانت نهاية حياة ماكوتو انتحارًا؟

اتسعت عينا كيدو للحظة، لكنه هز رأسه بالنفي عدة مرات هزات خفيفة.

- على حسب ما أعلم، كلَّا، لم تكن انتحارًا.

- حقًّا؟! هذا جيد. لقد شعرت بمشاعر كريهة عندما سمعت أن محاميًا سيأتي للسؤال عنه خصوصًا.

حار كيدو؛ أيتحدث إليه بتفاصيل أم يمتنع عن ذلك! لكن لم يكن أمامه إلا أن يحيط الأمر بالغموض. ارتاب ياناغيساوا أمام هذا الموقف، لكنه لم يسأل أكثر من ذلك، ثم واصل كلامه وكأنه قد انتهى مما يجب أن يحكيه.

- ألم يمارس ماكوتو الملاكمة بعد ذلك؟

- على ما يبدو أنه لم يفعل.

- حقًّا؟! للأسف.

قال ذلك ثم مد يده إلى صورة ماكوتو هارا مع ريئه التي فوق المكتب مرة أخرى.

- أنا في شدة الحزن لموته في ريعان شبابه، لكن من الجيد أنه في النهاية كان سعيدًا.

لم يعرف كيدو هل ذلك القول موجه إليه أم موجه إلى الصورة، لكنه قال موافقًا عليه:

- أجل أعتقد أنه كان سعيدًا.

- من الجيد حقًّا أنه أنهى حياته من دون أن يجرح أحدًا مثلما كان يخشى.
وأريد أن أقول له: «ألم يسِر الأمر كما قلت لك بالضبط؟» إنني لديَّ الكثير الذي أريد أن أحكيه له. والمدير كذلك بالتأكيد.

كان كيدو ما زال قلقًا على سلامة دايسكيه تانيغوتشي، لكنه في ذلك الوقت وافق على كلام ياناغيساوا بكلمة: «أجل» فقط.

١٦

بعد عودته من صالة الملاكمة في كيتاسنجو، كتب كيدو قصة حياة ماكوتو هارا من خلال ما سمعه من الاثنين معتمدًا على ذاكرته بقدر الإمكان وعلى الملاحظات التي كان يسجلها بسرعة. ليس فقط ذلك، بل أعاد ترتيب كل المعلومات التي سجلها خلال عام من البحث عشوائيًا على أنها ملابسات حياته.

شعر بأنه وصل إلى المرحلة التي يستطيع أن يعطي ريئه تقريره عن ذلك. ثم انتبه من خلال ذلك العمل لأمر في غاية البساطة لم يصل إليه ذهنه إلا الآن لسبب مجهول.

لقد عرف كيدو بوجود نوريو أوميورا من خلال الجريمة التي وقعت في عام ٢٠٠٧ التي تبادل فيها رجل في الخامسة والخمسين من عمره في حي أداتشي بمحافظة طوكيو هويته مع رجل آخر في السابعة والستين من عمره.

وطبقًا لمدونة يكتبها «مهووس بسماع المحاكمات» حضر جلسات تلك القضية، فإن أوميورا بدأ وساطته في «غسيل الماضي» منذ عام ٢٠٠٦. ويقول إن نقطة البداية وراء ذلك كانت أخبار «جريمة جيمس بلجير» التي وقعت في مدينة ليفربول بإنجلترا عام ١٩٩٣.

لقد اختطف طفلان كانا في ذلك الوقت في العاشرة من العمر، جيمس بلجير الذي كان عمره عامين من مركز للمتاجر وقتلاه قتلة بشعة، ما أعطى

صدمة هائلة للعالم أجمع وليس داخل إنجلترا فحسب، وثارت عاصفة من الغضب وتسبب في تفشي ظاهرة حزن وشؤم من الحياة.

وعندما أضحى الاثنان في الثامنة عشرة من العمر، أنهيا سجنهما الذي حُكم عليهما فيه بثماني سنوات ووسط حدوث أنشطة عنيفة للاعتراض على ذلك، ومن أجل قضاء باقي حياتيهما «شخصين عاديين» أُعطيت لهما هويتان جديدتان تمامًا وأفرج عنهما.

لكن في يونيو من عام ٢٠٠٦ نشرت إحدى صحف «التابلويد» معلومات عن أحدهما أنه تزوَّج من دون أن يعرف المحيطون به أصله، ومعلومات عن مكان عمله في إحدى الشركات. ووصل أوميورا إلى فكرة بيع وتبادل الهويات والسجل المدني عندما شاهد تلك الأخبار.

ويبدو أنه توسط في عدد أكبر بكثير مما اكتُشف، وترديد أوميورا كلمة «كوري» على الدوام، بسبب أن من بين زبائنه مقيمين وأجانب بجنسيات لدول أخرى، أو لأنه كان يتوقع وجود ذلك الطلب. ويبدو أن ثمة من بدَّل هويته أكثر من مرة عندما لا تعجبه الهوية الجديدة. وما تنبه له كيدو الآن متأخرًا هو ذلك الأمر.

لقد ظل كيدو وقتًا طويلًا يتساءل لماذا ألبس «X» أي ماكوتو هارا هوية ابن رجل حُكم عليه بالإعدام إلى متشرد بلا مأوى ومصاب بإعاقة عقلية مثل شوزو تاشيرو؟ ولقد أصاب ذلك كيدو بخيبة أمل، ثم شعر بعدم فائدة «لعبة المخبر الخاص» هذه التي استمرت طويلًا. ومع أنها أمنية في منتهى السذاجة، فإنه تمنى أن يكون الزوج الذي يعيش في ذاكرة ريئه ليس هو الإنسان الذي يفعل ذلك مطلقًا.

لكن إن صدَّقنا شهادة تاشيرو المهزوزة بدرجة كبيرة، فإن الشخص الذي بدَّل معه هويته ليس ماكوتو. أو على الأقل لم يلتقِ ماكوتو لكن التقى شخصًا آخر ادعى أنه هو.

بمعنى أن الاستنتاج الأول اختلف قليلًا، وبات كالآتي:

في البداية بدَّل ماكوتو هويته مع شخص آخر غير تاشيرو. ثم بدَّل ذلك الشخص هوية ماكوتو ابن القاتل المزعجة مع تاشيرو. وتوسَّط أوميورا في كلتا الحالتين.

ثم في استنتاج كيدو، هذا الشخص الآخر الذي بدَّل هويته مع ماكوتو هو «يوشيهيكو سونيزاكي» الذي كتبه أوميورا في البطاقة البريدية ذات الرسم العاري.

وإن أعدنا ترتيب ذلك من جديد من جهة ماكوتو يكون كالآتي:

عرف ماكوتو من خلال الإنترنت أو ما شابه بوجود أوميورا، ومن خلاله أصبح في البداية باسم «يوشيهيكو سونيزاكي»، لكن على الأرجح أن ذلك لم يرُق له لسبب من الأسباب. بعد ذلك تعرَّف على «دايسكيه تانيغوتشي» ووقعت عملية تبادل الهويات للمرة الثانية، فأصبح «دايسكيه تانيغوتشي» وذهب إلى بلدة سايتو وهناك تعرَّف على ريئه.

أي أن دايسكيه تانيغوتشي هو الذي ينتحل الآن اسم «يوشيهيكو سونيزاكي». بالتأكيد إن لم يكن قد كرر عملية تبادل الهوية أكثر من ذلك.

هذا إنْ كان على قيد الحياة أصلًا!

شعر كيدو شعورًا واقعيًّا بأن ماكوتو الذي كان حتى الآن وجوده كليًّا في ملف كتابة فوق الكمبيوتر الذي أمامه، ثم تركه يختفي كما يحلو له، ظهر خلال الكلمات مرة أخرى وأصبح له وجود مؤكد. كان عمله بوصفه محاميًا هو أن يفعل ذلك على نحو أساسي، يحوِّل الأحداث التي وقعت والأشخاص الذين لهم علاقة بها إلى كلمات، لكن بخلاف طرح ذلك أمام المحكمة لم يكن الهدف هو تقليص الحقائق، بل كتابة كل التفاصيل الدقيقة بأقصى جهد ممكن حتى التي تُعَد بلا فائدة. كان ذلك قريبًا من مشاعر أهل الميت في محرقة الجثث الذين يحاولون بكل طاقاتهم تجميع أكبر قدر ممكن من عظام جثة الإنسان الذي يحبونه.

في الوقت الذي كان ماكوتو هارا ذاته موجودًا بجسمه في هذا العالم، ترك حقائق ماضيه هذه تختفي تلقائيًّا. بل ربما على العكس كان يجتهد في إخفائها بنفسه. والسبب أنه بالنسبة إليه هو بوصفه إنسانًا يحاول أن يعيش، كان الماضي عبئًا ثقيلًا وأغلالًا تقيده. لكن الآن بعد أن مات ذلك الإنسان، فيجب على أحبائه أن يعيدوا إحياء شخصيته كلها بما فيها الماضي، إن كان ذلك يمكِّنهم من أن يفهموا ويحبوا كل ما ينتمي إليه.

ثم لم يكن كيدو يدري هل يجب أن يطلق على الإنسان الذي اكتمل بهذه التفاصيل اسم «ماكوتو هارا» أم لا! لكن استجابة لتشكُّل وجود واضح له، على الرغم من تضليل المعلومات المتفرقة حتى الآن، وعلى العكس من قلقه الشديد شخصيًّا، شعر كيدو بأنه يُشكِّل وجودًا متناسقًا له شخصيًّا بوصفه إنسانًا.

شعر كيدو بوحشة لا يمكن وصفها عندما أصبح على وشك استقبال نهاية «لعبة المخبر الخاص» هذه بعد وقت قصير. كان هو نفسه يشعر شعورًا مؤلمًا أن ذروة على وشك المجيء، لكن عندما يتخيل الفراغ الذي سيأتي بعدها يشعر قلبه بالكآبة والعزلة.

وحدة. أجل، لقد عبَّر من دون خوف عن المشاعر المعقدة داخل قلبه في هذا الوقت مع خجله وحيائه منه.

لم يكن يتخيل ذلك في شبابه، أن الوحدة التي تحاول أن تنتزعه من قاع منتصف العمر، إنْ تهاون معها قليلًا، ستغمره انفعالات شديدة البرودة لا يملك أن يُوقفها.

وقتها، كان كيدو كثيرًا ما يتخيل منظر ماكوتو باكيًا يُمرِّغ أنفه في تراب حديقة حي كيتاسنجو. شعر بأن ذلك المنظر بالنسبة إليه انفصل عن المكان والزمان، وبات مشهدًا من حكاية أسطورية. من المفهوم أن الارتماء على الأرض مباشرة في التو والحال وفي هذا المكان ثم البكاء هو بلا أدنى شك

فعل يفوق أفعال البشر. ومع ذلك عرف ألم احتكاك الخدين بسطح الأرض عند التمرُّغ في التراب المختلط بالحصى، وكأنه خاض تلك التجربة من قبل.

طبقًا للتقرير الصحفي، فقد وُلد كِنكيتشي كوباياشي عام ١٩٥١ في مدينة يوكائتشي.

كان في طفولته فقيرًا إلى درجة عدم القدرة على تناول الطعام الكافي، وعانى كذلك تعنيفًا شديدًا من أبيه. وفي المراهقة صار سيئ السلوك، وترك الدراسة في المرحلة الثانوية، وظل فترة متسكعًا بلا عمل ولا دراسة، وأخيرًا بدأ العمل في مصنع بمسقط رأسه، وقطع علاقته مع والديه، وبدأ العيش بمفرده.

ثم تزوَّج في الحادي والعشرين من العمر بفتاة تصغره بعامين، وأنجب بعد ثلاثة أعوام ابنه الوحيد ماكوتو.

كان كوباياشي يمارس العنف اليومي ضد ابنه وضد زوجته معًا، لكن كما حدث معه هو شخصيًا في طفولته لم يكن العنف الأسري في ذلك العصر يسبب مشكلة كبيرة. بل انعكست صورتهم على أنهم أسرة عادية جدًا لمدة خمس سنوات بعد ذلك في أعين الناس.

ويُقال إن غرقه في القمار قبل وصوله إلى سن الثلاثينيات بقليل، كان بتأثير كبير من صديق قديم من أيام المدرسة المتوسطة كان يكبره في العمر التقاه بعد غياب. ومنذ ذلك الوقت، غرق لأذنيه في الديون ووقت ارتكابه الجريمة كان الدائنون ووكلاؤهم يلاحقونه يوميًا.

وقعت الجريمة في صيف عام ١٩٨٥. زار كِنكيتشي كوباياشي، بيت مدير المكتب الهندسي الذي تعرَّف عليه من خلال دخول ماكوتو «النادي الرياضي»، وطلب منه إقراضه المال بإلحاح شديد، وعندما رُفض طلبه أصيب بهياج شديد. وبعد أن رجع مرة إلى منزله، عاد يدخل في وقت متأخر من الليل لسرقة البيت بالإكراه، فقتل الزوجين وطفلهما الذي كان

في الصف السادس الابتدائي شر قتلة. وسرق ١٣٦ ألف ين، ثم أشعل النيران في البيت من أجل إخفاء معالم الجريمة، وذهب إلى منزله. لكن قُبض عليه بعد أسبوع واحد.

كانت جريمة في منتهى الطيش والغباء، خصوصًا في نقطة قتله للطفل، نشرت وسائل الإعلام أنها «جريمة من عمل شيطان». وبسبب قتل ثلاثة أفراد كان من الطبيعي توقُّع حكم الإعدام، ولم يلجأ كِنكيتشي نفسه إلى دحض محتوى الاتهام، وكذلك لم يستأنف الحكم الذي أصدرته المحكمة الابتدائية بعد صدوره.

شعر كيدو بمشاعر كئيبة من أعماق قلبه عندما فكر أنه لو التقت حياته في مرحلة ما مع حياة إنسان مثل كِنكيتشي كوباياشي فيقتله هو وزوجته وابنه لهذا السبب السخيف. كانت أداة الجريمة «سكين مطبخ طول نصلها عشرون سنتيمترًا»، يكاد يفقد عقله عندما يتخيلها تخترق جلد سوتا الغض النحيف الضعيف اللامع.

لكن الغضب تجاه ذلك الرعب واللامنطق، لم يرتبط بالضرورة ارتباطًا مباشرًا بكراهية كِنكيتشي كوباياشي.

وبالطبع كان سبب ذلك أن كيدو لم يكن ضحية مباشرة لتلك الجريمة. وفي الوقت نفسه، أعلمته خبرته الوظيفية أن مثل هذه الجريمة النكراء ممكنة الحدوث، وجعلته يرى أن التعرض لها هو أحد أنواع القدر أو الحادث العارض.

من سوء الحظ - أجل حظ سيئ حرفيًّا - يوجد بشر مثل كِنكيتشي كوباياشي حتى الآن. لم تكن العناصر التي دفعته إلى ارتكاب جريمته، سواء أكانت موروثة أم مكتسبة، بالإضافة إلى كثير من المصادفات والضرورات، استثنائية أو لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإنساني، بل على العكس، كان كل شيء عاديًّا ومبتذلًا إلى درجة أن تسربت منه آهات التأسي.

ولذا من الطبيعي أن يفكر كيدو أيضًا أن ثمة مسؤولية تقع على كوباياشي

أيضًا. فهو لا يستطيع مهما حدث أن يقف الموقف المتطرف الذي يقول بعدم الاعتراف بتاتًا بوجود إرادة حرة للبشر. لكن، كانت الحقيقة هي أن البيئة التي تربى فيها كوباياشي في منتهى التعاسة والبؤس، وأن من الواضح الجلي أن فشله في حياته يعود أغلبه إلى أصله ذلك.

كانت الدولة غافلة عن تعاسة حياة هذا الفرد من مواطنيها. ومع ذلك، ولكي تتظاهر بأنها في الوضع الذي يجب أن تكون عليه في الواقع، أزالته تلك الدولة من الوجود بالإعدام بادعاء الانحراف عن نظامها القانوني. كان رأي كيدو أن موقف الدولة هذا خطأ. محاولة السلطة القضائية محو وإزالة وجود المنحرف ذاته للتغطية على فشل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية وكأنه لم يكن، ليس إلا خداعًا. وإن مر ذلك من دون اعتراض، فكلما سقطت الدولة أكثر، سيصبح من الضروري أكثر فأكثر محو وإزالة الشعب الذي تدهورت به الحال من خلال الإعدامات، وهكذا تستمر الدائرة المفرغة.

لكن لم يسبق أن حكى كيدو أفكاره هذه بإيجابية لأحد. وبصفة خاصة زوجته، التي لا يمكنها مطلقًا فهم هذا المنطق. في إحدى المرات وهما يشاهدان الأخبار في التلفزيون تبادلا النقاش حول ماذا لو قتل أحدهم سوتا! فقالت بعناد شديد إنه يجب إعدام الجاني، وألحَّت عليه كي يوافقها الرأي.

في البداية قال لها إن النظام القضائي الياباني الآن لا يحكم بالإعدام على مَن يقتل شخصًا واحدًا فقط. لكنها على الفور ألحت أكثر بالقول:

- إذن لو قتلني أنا وسوتا معًا؟

قال وهو يستعد للقتال:

- أعتقد أن الشرط الأدنى من أجل محو الشر المتمثل في قتل النفس، هو إنكار الفكرة ذاتها التي ترى أنه لا بأس من قتل إنسان إن وقع أمر مهول. ليس هذا بالأمر السهل لكنه يجب أن يكون هو هدفنا جميعًا. من المؤكد أنني لن أسامح الجاني أبدًا، لكن يجب على

الدولة أن تتحمل مسؤوليتها الاجتماعية في وقوع الجريمة، من خلال حمل مسؤولية إعطاء كل الدعم للضحايا، وليس أن تتظاهر بالبراءة، وترضية مشاعرهم بالعقاب. على كلٍّ، وجهة نظري أن الدولة يجب ألا تسقط في المستوى الأخلاقي نفسه تجاه الشر المتمثل في قتل النفس.

ارتعشت عينا كاوري ووجهها يصطبغ بالاحمرار من الغضب وخيبة الأمل. كانت نظراتها تجعله يشك أنها لا تسري في عروقها دماء بشرية، وأدرك كيدو أن مواصلة هذا الحوار سيستدعي وضعًا مدمرًا لا يمكن الرجوع عنه أبدًا في العلاقة الزوجية، ولذا أنهى وقتها الحوار. لا ضرورة للتشاجر من أجل مأساة لم تقع بعد. كان عمر سوتا وقتها سنة واحدة فقط.

وحاليًّا السبب الآخر الذي لا يجعل كيدو يكره كوباياشي كراهية مباشرة، بالإضافة إلى التعاطف بشدة معه لمعرفته قصة طفولته، أنه عرف بوجود ابنه ماكوتو أيضًا.

تخيل كيدو مشاعر ماكوتو في ذلك الصباح الذي عرف فيه أن زميله في «النادي الرياضي» الذي يتدرب معه على لعبة البيسبول بالكرة الخفيفة، والذي ذهب أكثر من مرة إلى بيته لأنه هو الذي يحتفظ بأدوات اللعب من مضارب وقواعد، قد قُتل فجأة في أحد الأيام مع والديه قتلة شنيعة. تخيل الحي وقد تحوَّل إلى ضوضاء صاخبة بإنذارات عربات الإسعاف والشرطة، وتخيل الآباء والأمهات وهم يهرعون للتجمع في صالة الاجتماعات الكبرى في المدرسة الابتدائية التي يتردد داخلها البكاء.

وفي أثناء ذلك، هو فقط دونًا عن باقي التلاميذ الذي توقفه وسائل الإعلام في أثناء ذهابه وإيابه من المدرسة لا لتسأله عن صديقه الراحل فقط، بل وتسأله بالضرورة عن حالة ومشاعر «والده» أيضًا. يتخيل كيدو منظره وهو يرى بتعجب تعبيرات والدته الذاهلة. ثم زيارة رجال الشرطة إلى البيت، ووسط تدافع وتكالب وصرخات المصورين وهم يصورون والده

المقبوض عليه. جرب كيدو أن يرسم في خياله مشهد القبض على والده واقتياده إلى مخفر الشرطة.

شعر كيدو بالشفقة الشديدة من أعماق قلبه. فكر في ماكوتو بعد أن كبر ونضج. فلم يجد كلمة يمكن أن يواسيه بها.

كانت روضة الأطفال التي يتردد عليها سوتا تقع داخل مبنى محطة الحي الصيني في موتوماتشي، وعندما يذهب لأخذه منها في وقت مبكر قليلًا، كان الأطفال يلعبون في أغلب الأحوال في حديقة الجبل الأمريكي فوق سطح المبنى. كانت حديقة جديدة افتتحت عام ٢٠٠٩ وهو العام الذي مر فيه على افتتاح ميناء يوكوهاما ١٥٠ عامًا. على الجهة الأخرى من الطريق المعبَّد بالأحجار، منحدر بميل لطيف متصل بمقابر الأجانب في المدينة، وساحة بها نجيلة وأحواض زهور.

تستمر سلالم متحركة في صعود دائم من رصيف قطار الأنفاق تحت الأرض إلى السطح ويجب تبديلها عدة مرات، شعر كيدو في أثناء ذلك أن الوقت أطول مما هو عليه في الحقيقة، لأنه دائمًا كان يرغب في رؤية سوتا بأسرع وقت ممكن.

كان الجو باردًا في وقت الغروب في بداية فبراير كما ينبغي له أن يكون، لكن الأطفال، وعددهم عشرون تقريبًا، يرتدون قبعاتهم الخضراء ومستغرقون تمامًا في الجري واللعب وهم ينزلون سحَّاب معاطفهم المصنوعة من ريش النعام حتى منتصف صدورهم.

عندما ذهب كيدو لأخذه ذلك اليوم كان سوتا في مكان بعيد يلاحق صديقًا له بطريقة جري «زجزاجية» وهو يضحك ولا يتوقف عن الضحك.

حيًّا المربية الشابة التي أبلغته أنه كان هادئًا، ثم نادت سوتا بصوت عالٍ. لكن، قبلها، كان عدد من أصدقائه قد أعلموه وهم يشيرون بأصابعهم قائلين: «آه، والد سوتا!».

وعندما اكتشف وجود والده تألقت عينا سوتا بما يشبه الحياء. تغيرت ابتسامة الوجه بفارق دقيق، فأصبحت تعبيراته وكأنه يخجل من أن يراه والده، وفي ذات الوقت يأمل منه ما لا يمكن الحصول عليه من أصدقائه.

- والد سوتا جاء!

اقترب منه عدد من الأطفال أسرع من ابنه، والتصقوا به ليلاعبهم. فلقد انطبع في ذهن الأطفال عنه أنه أب يلاعب الأطفال بمرح، بعد أن حضَن أحد الأطفال الذي داعبه في يوم من أيام زيارة الوالدين للروضة.

وفي ذلك اليوم أيضًا أربعة أو خمسة أطفال أحاطوا به وعندما وصل إليه سوتا غار منهم وبدأ يبعدهم عنه بالقول:

- ابعدوا! لا تقتربوا من أبي!

- توقف! جذبهم بهذه الطريقة يؤلمهم، أليس كذلك؟

مع تحذيره هكذا قرَّبه كيدو منه قليلًا وحضَنه واقفًا. قال له أحد الأطفال:

- اليوم عندما تعارك ريو مع كوهيه تدخل بينهما سوتا وأوقف العراك بالقول: العراك ممنوع!

- أجل هذا ما حدث! أليس كذلك يا سوتا؟

- أوه! أحقًا هذا؟! عمل عظيم!

فكَّر كيدو فجأة أن أحد هؤلاء الأطفال الأبرياء ربما يصبح قاتلًا في المستقبل. حتى وإن لم يكن من بين هؤلاء، لكنْ ثمة طفل في الخامسة من العمر ويلعب مع أصدقائه الآن بمرح في مكان ما، سيرتكب جريمة قتل في المستقبل. سواء أكان مضطرًا إلى ذلك أم عن طريق خطأ في الفهم. تُرى مَن سيتحمل تلك المسؤولية؟

فكر كيدو في ذلك وهو يحافظ على ابتسامة خديه من دون أن تنهار. فحتى كوباياشي كان في الخامسة من عمره طفلًا بريئًا مثلهم. كلَّا بل ربما كان طفلًا أكثر حرجًا ومثيرًا للشفقة.

وكان الجانيان في قضية جيمس بلجير، في العاشرة من عمرَيهما.

وحمَّلهما الرأي العام في إنجلترا تلك المسؤولية بصرامة، لكن في حدود الأخبار المذاعة، فقد كانت ظروفهما، في منتهى السوء إلى درجة بشعة.

طبقًا للقانون الجنائي الياباني يُطبَّق قانون الأحداث حتى التاسعة عشرة من العمر، وتُعَد الجرائم التي ترتكب بعد البلوغ مسؤولية الجاني نفسه. لكن التأثيرات السلبية التي تراكمت داخل الإنسان حتى ذلك العمر لا تنمحي فجأة في سن العشرين وكأنها لم تكن. حتى وإن تفوقت التأثيرات الإيجابية على السلبية وقتها عند أغلب البشر.

إن جهد الشخص نفسه له أهمية كبيرة، لكن حتى ذلك الجهد هو في النهاية قدر سعيد أُعطي له، على شكل أناس أو أحداث يحددون مسار ذلك الجهد. إن ناكاكيتا مثلًا يرى أن من الغباء الصراع الثنائي بين الموروث والمكتسب، الصراع الذي ينفي ويطرد ما عدا ذلك، ويثق ثقة مطلقة بالإدراك البيولوجي الحالي، الذي يرى أن القرار النهائي في تحديد الصفات الشخصية للإنسان يعتمد على «التأثير المتبادل» لكل من العناصر الوراثية وعناصر البيئة معًا. وبالطبع يرفض القول إن كل شيء مسؤولية فردية، رفضًا قاطعًا على أنه قمة الغباء. وفيما يتعلق بتلك النقطة كان كيدو يوافقه الرأي تمامًا.

بعد العودة إلى البيت استمرت تلك الأفكار بإلحاح داخل عقل كيدو.

قبل عدة أيام، اتصل بكيوئتشي تانيغوتشي بعد غياب طويل، وشرح له أنه ما من معلومات جديدة حول ماكوتو. وكان ذلك أيضًا ما طلبته منه ريثه أن يفعله. وما زال اللغز الأخير حاليًّا هو مسيرة ماكوتو لمدة تسع سنوات منذ أن غادر صالة الملاكمة إلى أن قابل ريثه، والأهم بصفة خاصة التأكد من سلامة دايسكيه تانيغوتشي. ومن أجل معرفة ذلك فالطريقة الأكثر قابلية للنجاح هي طلب مساعدة الأهل.

في أثناء الاتصال الهاتفي، صاح كيوئتشي أكثر من مرة بالقول: «أحقًّا ما

تقول؟»، معربًا عن دهشته، وعندما انتهى الكلام، قال بصوت يختلف عن درجة خطورته عندما قابله لأوَّل مرة في نهاية العام قبل الماضي:

- أليس الأمر أن دايسكيه قُتل على يد ذلك الرجل كما توقعتُ؟ فهو ابن قاتل سفَّاح!

قال كيدو بانفعال على غير عادته:

- لا يمكن القطع بذلك. إن ابن القاتل يريد أن يتحرر من أصله ويتقبله المجتمع بقَبول حسن، فإن ارتكب هو نفسه جريمة قتل ضاعت كل جهوده.

أصدر كيوتشي صوتًا ينم على الذهول من نبرة الحديث ومحتواه، ثم قال معترضًا:

- ولذلك يقتل من دون أن تُكتشف الجريمة. أبوه هو ذلك المجرم، فلا أعتقد أنه يفكر بتلك الطريقة المنطقية التي تقولها. إنْ غضب، فلا يمكن معرفة ماذا يفعل!

- من المفترض أن ماكوتو عندما قابل شقيقك كان اسمه يوشيهيكو سونيزاكي أي أنه لم يَعُد ابن قاتل. ولذلك خصوصًا، قبل شقيقك أن يتبادل معه هويته. وكذلك كان بينهما وسيط وما من سبب لقتله من أجل سلب الهوية.

- إن كل هذا مجرد تخمين منك يا أستاذ. اعذرني على قول ذلك، لكن أليست هذه أوهامًا لديك؟ هل لديك أدلة محددة عليها؟ هناك العديد من الأسباب للقتل! على سبيل المثال أن دايسكيه عرف أنه ابن مجرم سفَّاح فقتله لكي يمنعه من إفشاء ذلك السر.

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

- لأنني أعتقد أنه إنسان لا يفعل ذلك.

- ها! هل أصابك شيء يا أستاذ؟ كيف تستطيع الجزم بذلك؟

- لأنني سمعت قصة حياته ممَّن يعرفونه جيدًا.
- هذا لأنه بشر، والبشر لديهم ظاهر وباطن.
- في كل الأحوال، من أجل التأكد من ذلك أريد منك مساعدتي في البحث عن شقيقك.

مهما كانت علاقة الأخوَين سيئة، فمن المفترض أن كيوئتشي ليس لديه اعتراض على ذلك، لكنه كان غاضبًا فلم يستطِع كيدو أن يحصل منه على إجابة واضحة.

لقد غضب كيدو غضبًا شديدًا من كلماته غير المسؤولة عن أن ابن القاتل لا يستبعد أن يقتل، وحتى بعد انتهاء المكالمة لم يهدأ غضبه وفي أثناء اعتراضه على ذلك داخل عقله، تدريجيًّا بات غير متأكد من منطقه.

سبب محاولة كيدو أن يتفهَّم مشاعر القاتل كوباياشي هو التأثير الناتج عن تعنيف والده له. إن كان الأمر كذلك، فيجب القول إن موقف كيوئتشي الذي يحاول أن يرى مخاطر ارتكاب جرائم من الابن الذي تربى في البيئة العائلية السيئة نفسها - أي ماكوتو نفسه - يملك المنطق نفسه أو له بعض الوجاهة. وحتى في الجينات الوراثية فقد كان ماكوتو يشبه والده في ملامحه إلى درجة تثير الشفقة عليه، بل ورسمه الذي يشبه انعكاس قلبه البريء النقي يشبه تمامًا رسم والده داخل السجن، إلى درجة أن التهكُّم يصبح قسوة ووحشية.

لا شك أن حياة ماكوتو كانت في الواقع منسحقة دائمًا بين مطرقة الماضي وسندان المستقبل. الجريمة التي ارتكبها والده في الماضي جعلت قلبه مقيدًا لا يستطيع تحريره. إن الابن ليست له علاقة بالوالد، وما من سبب يحتم عليه الشعور بالمسؤولية تجاه تلك الجريمة. لكن عائلة الضحايا تستمر في المعاناة والألم، وهو شخصيًّا يرى أنه ليس من المنطق ألا تعاني عائلة الجاني، ويتألم من ذلك. بل إنه كانت لديه ديون تجاه الماضي، وتجاه المستقبل يُنظر إليه على أنه خطر على المجتمع من أنه ربما يكرر جريمة والده نفسها.

ليس فقط يُنظر إليه على هذا النحو من الآخرين، بل إن أكثر من كان يخاف ماكوتو هو ماكوتو نفسه. لكن، حتى وإن كان الأمر كذلك، ماذا يعني؟ يُفترض أن ذلك ليس له أي علاقة بأن يقول كيدو: «لأنني أعتقد أنه إنسان لا يفعل ذلك». إن كل مَن تعامل معه يجزم بقول ذلك. فما من ضرورة لكي يغيِّر ماكوتو هويته، وكان يستطيع حتى الآن أن يعيش على أنه ماكوتو هارا، أليس كذلك؟!

١٧

بعد أن تناولوا وجبة السوكي ياكي في العشاء، قال سوتا إنه يريد اليوم النوم جوار والدته، فتركه لها بعد الاستحمام، وغسل كيدو أواني الطعام في المطبخ. ثم بعد ذلك استلقى على الأريكة في غرفة المعيشة، وهو يسمع تشيللو ميشيل نيدوغيو، وأخذ يفكر بلا ضابط ولا رابط في ذكرياته في أثناء ممارسته لعزف البيس في فرقة هواة في مرحلة الدراسة الجامعية. فكر شاردًا: لو كان هو أيضًا في مهارة ناكاكيتا، لاستمر حتى الآن مع الفرقة، ولكان ذلك بالتأكيد منفسًا جيدًا لضغوط الحياة. وفي أثناء ذلك نام في غفوة.

كان في منتهى الإرهاق.

استيقظ بعد الحادية عشرة. أحسَّ ببرودة في أطراف أصابع قدميه، فرفع درجة مكيف الهواء الساخن، وبلا هدف محدد فتح التلفزيون الذي لا يشاهده في المعتاد. وبعد أن بحث في القنوات قليلًا، قفزت إلى عينيه صور لمظاهرات صاخبة لجماعات تسير في الطرقات ترفع أعلام اليابان وقت الحرب المسماة «رايات الشمس المشرقة» وهم يصرخون في وضح النهار بكل جرأة: «أرسلوا الكوريين إلى أفران الغاز!»، على ما يبدو أنه برنامج وثائقي عن «خطاب الكراهية» فكان كيدو على وشك إغلاق التلفزيون ضجرًا وهو يفكر: هذا ما كان ينقصني!

لكن مع ظهور تنبيه بكتابة على الشاشة يقول: في المكان نفسه مظاهرة

مضادة. عندها ظهرت على الشاشة امرأة تحمل لوحة كُتب عليها «لنكن أصدقاء!» اندهش كيدو وقفز من فوق الأريكة. كانت لقطة للحظة سريعة لكن بدا له أنها ميسوزو.

«ماذا تفعل في ذلك المكان؟!».

في الوقت نفسه سمع كيدو من خلفه صوتًا يناديه:

- أبي!

وعندما التفت وجد سوتا يقف وهو يحك عينيه الناعستين.

- ماذا حدث؟

- صحوتُ من نومي. ماذا تشاهد؟

اقترب سوتا من الأريكة. حار كيدو في الشرح وهو يسمع شجار المتظاهرين معًا وبينهم الشرطة. وفي اللحظة التالية انطفأ التلفزيون.

- تعالَ هنا يا سوتا، يجب أن تنام!

وضعت كاوري التي جاءت للبحث عن سوتا جهازَ التحكم في التلفزيون عن بُعد على الطاولة بضجة كبيرة.

استاء كيدو من إغلاق التلفزيون فجأة على المشهد الذي كان يراه، لكن لم تقُل كاوري شيئًا بل جذبت سوتا من يده وذهبت معه إلى غرفة نومه.

كان كيدو على وشك فتح التلفزيون بجهاز التحكم الآخر الذي كان قريبًا منه، لكن لم تكن لديه رغبة في المشاهدة مجددًا، ولم تكن أمامه إلا الموافقة على رأي زوجته.

فكَّر في المشهد الذي رآه، هل كانت ميسوزو حقًّا؟ لكن كانت ذاكرته مشوشة. عندما تناولا معًا وجبة الغداء بالقرب من متحف يوكوهاما للفنون الجميلة، أشارت في حديثها إلى المظاهرات المضادة ومن المؤكد أنها قالت: «إذن سأذهب أنا بدلًا منك»، لكن كيدو لم يأخذ كلامها على محمل الجد، ونسيه تقريبًا.

انقطع التواصل بينهما منذ فترة، لكنه اندهش عندما عرف أنها وفَّت

بوعدها الذي قطعته على نفسها وبدأت تنفيذه، شعر بأن ذلك يدل على شخصيتها فعلًا وابتسم، لكنه كان يحمل مشاعر معقدة تجاه فعلها ذاته ولا يعرف أهو شعور فرح أم حزن!

فرِح لأنه يشغل حيزًا ما داخل تفكيرها. فمن المؤكد أن ذلك ليس بالأمر الهين. لكن خرجت منه تنهيدة أسى تجاه انكساره الذي لا يستطيع مهما فعل الترحيب بذلك التدخل من دون تحفظ.

كان كيدو يرى دائمًا أن نظرته الشخصية تجاه أنه مقيم هي نفسها تقريبًا فكرة شخصية ليوفين تجاه الفلاحين في رواية «أنَّا كارنينا».

> لو سُئل ليوفين هل تحب الفلاحين؟ من المؤكد أنه سيحار في الرد. فمشاعره تجاه الفلاحين كمشاعره تجاه البشر كافة، يحبهم وفي الوقت نفسه يكرههم. وبالتأكيد لأنه طيب السريرة فمَن يحبهم من الناس أكثر ممَّن يكرههم، لذا موقفه هذا هو نفسه تجاه الفلاحين. لكنه لم يستطِع أن يجعل للفلاحين وجودًا خاصًّا بهم فيكرههم أو يحبهم بسبب أنهم فلاحون. ولم يكن السبب في ذلك مجرد فقط أنه عاش وسط الفلاحين ويحمل علاقات مصالح شاملة بينه وبينهم، لكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه جزء منهم، ولأنه لم يحاول أن يكتشف فيه أو فيهم مميزات أو عيوبًا خاصة، ولم يستطِع أن يضع نفسه على النقيض من الفلاحين.

ثم كان كيدو يشعر بامتعاض يشبه النقد عندما يحاول مَن يحمل تجاههم اقترابًا وألفة فكريًّا الارتباط بمشكلات المقيمين، يشبه بالضبط الذي يوجهه ليوفين في أوقات كثيرة إلى أخيه كوزنيشيف بقوله:

> أن تحب حياة الريف لأنها على النقيض من الحياة التي تكرهها وتمدحها، وتحبِ الفلاحين لأنهم على النقيض من البشر في الطبقة الاجتماعية التي تكرهها.

وفي كل الأحوال يمكن إجمال تعب كيدو وإرهاقه من أصوله بوصفه «مقيمًا» في أنه يكره بشدة فكرة تجميع الناس في أنماط موحدة. ومن البديهي أن بين

المقيمين أخيارًا وأن بينهم أشرارًا. وحتى الأخيار لديهم صفات يكرهها، والأشرار لديهم فضائل يحبها.

ويُعتقد أن نقد ليوڤين لشقيقه كوزنيشيف بقوله:

> إن أخي أو غيره من الكثير من النشطاء في المجتمع لم تتفتح أعينهم على الأنشطة الخيرية في المجتمع بسبب أنهم لبَّوا نداء قلوبهم، بل لأنهم فكَّروا بمنطق وعقل وقرروا أن من الأفضل الارتباط بهذه الأعمال، وهذا فقط الذي يجعلهم يؤدون هذه الأعمال الخيرية.

هو نقد غير صائب مطلقًا.

لكن في الوقت نفسه كان ذلك سبب عدم قدرة زوجته كاوري على أن تثق بـ«حب الأعمال الخيرية للمجتمع».

اصطدم بهذا التناقض وظل يفكر فيه وهو يمسك إحدى ركبتيه بين يديه فوق الأريكة.

بالتأكيد كانت مشكلة هل يمكن عدُّ كيدو من المقيمين الكوريين بالغة التعقيد. ولأنه حتى قبل أن يتجنس، نشأ وكبر على أنه ياباني نشأة كاملة، فلم ينتبْه قَطُّ أي قلق أن يكون طرفًا من أطراف قضية المقيمين الكوريين. فهو لا يستطيع مهما فعل أن يتخيل أن يأتي يوم ينبت بينه وبينهم حب تجاه «العمل التعاوني المشترك المر» مثل الذي شعر به ليوڤين في تلك الليلة الجميلة التي لا يمكن وصفها بعد أن عمل مع الفلاحين طوال اليوم حتى بلغ منه التعب منتهاه.

تعب كيدو من التفكير وفتح التلفزيون مرة أخرى بلا وعي تقريبًا. عادت الشاشة إلى الاستديو وكان الضيف ينتقد، بوضوح يندر وجوده على شاشات التلفزيون مؤخرًا، كراهية الأجانب وهو يشير إلى مذابح الكوريين التي وقعت في أثناء زلزال كانتو.

لقد وقع زلزال كانتو في عام ١٩٢٣، والعام الماضي مر عليه تسعون

عامًا وهو رقم هامشي. لكن شعر كيدو بمشاعر غير مستساغة إلى حدٍّ ما، أن ذكراه المئوية ستأتي بعد أقل من عشر سنوات.

إن وقوع زلزال في حوض البحر الجنوبي أو زلزال تحت العاصمة في المستقبل شبه مؤكد. وهناك مَن يهمس أن وقوع مثل ذلك الزلزال يعني نهاية اليابان، لكن لا أحد يعلم متى يقع. ولا يقتصر الخوف على انهيار المباني فقط، ولكن ثمة خوفًا من تسونامي. إن كان حظه حسنًا وكان سوتا في البيت فهو في الطابق التاسع لن يصيبه أذى، ولكن لو كان يلعب في روضة الأطفال فعلى الأرجح لن يجد وقتًا للهرب.

ستكون أضرار المدينة مهولة. بعد مائة عام بالضبط من زلزال كانتو - أي بعد عشر سنوات تقريبًا من الآن - ربما يأتي أحمق لقتله أو لقتل أسرته وهو يرتعد من الخوف وقد صدَّق دعوة: «اقتلوا الكوريين!» التي ربما تكون مجرد مبالغة شريرة في إعلان أو تنفيسًا عن غضب مكتوم. من دون أي علاقة إن كان محاميًا أو كان أبًا لطفل صغير أو كان محبًّا للموسيقى أو كان «إنسانًا صالحًا»! أو ربما كل ما سبق. أو على العكس أن تلك المميزات التي وُهبت له تكون محفزًا للكراهية بدرجة أكبر!

حاول كيدو أن يمحو ذلك القلق بالسخرية من نفسه لإفراطه في التشاؤم، لكن ارتعش خدَّاه المتشنجان ولم يستطِع مهما فعل أن يصنع ابتسامة عليهما. لقد رأى عددًا من سجلات وقائع أحداث زلزال كانتو الكبير، وصل عدد الحالات التي أقيمت فيها فقط دعوى قضائية بقتل كوريين إلى ٥٣ قضية قتل، وطبقًا لوزارة العدل وقتها، قُدِّر عدد الضحايا بمائتين وثلاثة وثلاثين قتيلًا. وهناك تقديرات - مع وجود اعتراضات كثيرة عليها - أن العدد الحقيقي أضعاف ذلك. وعلاوة على ذلك قُتل أيضًا صينيون. وفوق ذلك كانت بشاعة طرق القتل تثير الغثيان والسؤال: لماذا؟!

تخيل كيدو ذلك العدد من الجثث التي قُتلت بطريقة بشعة، فاجتاحته قشعريرة باردة وكأنه قد لمس برودة تلك الأجساد التي سُلبت أرواحها

ووجودها. وشعر بأنهم أهله وناسه. وتذكر القلق العميق الذي شعر به داخل القطار السريع في أثناء عودته من المشاركة في جنازة زميله. ذلك الشعور بالضغط الذي يحاول أن يمحو ذاته التي تحتل حيزًا من خلال حجم وشكل جسمه بعد ولادته من دون الحاجة إلى إذن خاص من أحد. لقد أدرك أنه حاليًّا في طور التوحُّد تمامًا مع مشاعر هؤلاء الضحايا بوصفه «مقيمًا». لكن في الوقت نفسه، فهو بوصفه مواطنًا يابانيًّا، يجب عليه أن يتحمل المسؤولية التاريخية التي يتحملها الجاني.

وفي الوقت الذي بدأ فيه الفاصل الإعلاني أغلق التلفزيون، وعندما أعاد التفكير في أفكاره على مدى الدقائق الماضية شعر بأنه مخطئ.

من المؤكد أن المقيمين أنواع متعددة من البشر. لكن مشاركة ميسوزو في المظاهرات المضادة الآن، ليست بسبب أنها ترى المقيمين مثاليين، لكن لأنهم في خطر يوشك أن يقضي على وجودهم. إنه هو نفسه الذي قال لها: «يجب على اليابانيين الذين يتركون هؤلاء الشرذمة يفعلون ما يحلو لهم بمصائرهم، المشاركة على أنها مشكلة وطنهم!»، لأن الدولة اليابانية ذاتها في وضع خطير. مع أنه هو نفسه الذي يجب أن يكون أوَّل اليابانيين المسارعين إلى المشاركة.

في أثناء تفكيره شعر كيدو مجددًا بالغثيان فاستلقى على جنبه ودفن وجهه في الأريكة. وحاول التوقف عن التفكير بأي طريقة.

ثم من أجل أن يُصرف ذهنه عن التفكير تذكر زيارة متحف الفنون الجميلة مع ميسوزو وشعر بأنه يرغب في لقائها مرة أخرى.

بعد فترة عادت كاوري إلى غرفة المعيشة وانتقدت زوجها قائلة:

– لماذا جعلت سوتا يرى تلك المشاهد؟

بعد أن ذهبت كاوري إلى رحلة عمل في منطقة كانساي في نهاية العام

الماضي، تواصلت أعياد الميلاد ورأس السنة، وتحسنت العلاقة الزوجية بقدر ما في أثناء تبادل الكلمات بمرح ولو شكليًا أمام سوتا وأمام أبويهما في بيت أسرة كل منهما، ولذا قلق كيدو من الحوار القادم بينهما عندما رأى تعبيرات وجه زوجته الصارمة. ثم اجتهد أن يقول بنبرة هادئة مسترخية:

- لقد جاء فجأة في أثناء مشاهدتي!

- ألم يكن من الأفضل إغلاق التلفزيون على الفور؟

أومأ كيدو، لكن كان يعرف بنفسه أن تعبيرات وجهه تدل على الضجر. وظلت كاوري تنظر إلى زوجها وهي واقفة، لكن أخيرًا تكلمت وكأنها تقول لا أريد سوى أن أشرح ما يلي:

- إنني أتفهم أنها أصولك، وأنت تعرف أنني تزوجتك وأنا على علم بذلك. ولم أكن أريد قول ذلك، لكن كانت هناك اعتراضات على زواجنا، ولكنني أقنعتهم. لكنْ مثل هؤلاء الناس السابقين موجودون في الواقع، ومن مسؤوليتنا أن نحمي سوتا، أليس كذلك؟ أليس من الأفضل أن نتحدث معه عن أصولك بعد أن يكبر قليلًا؟

اعتدل كيدو في جلسته، وظل يحملق إلى وجه زوجته الواقفة وهو يستند بظهره إلى مسند الأريكة، مع تفكير أنهما يجب أن يتناقشا ولكن من خلال مشاعره التي تقول ليكن ما يكون التي يشعر بها، بحث عن كلمات يجب أن يقولها، لكنه لم يعرف من أين يبدأ الحديث.

والمريب شعور كيدو بأن زوجته جميلة وهو يتأملها بتمعن وكأنه ينظر إلى امرأة غريبة عنه.

في مكان عمله كان الجميع يقولون: «إن زوجة الأستاذ كيدو من الجميلات»، وحتى بين أولياء أمور روضة الأطفال لها السمعة نفسها. وكان سوتا فخورًا بذلك، ولا شك أن كيدو نفسه تزوجها لأنه يعتقد أنها جميلة. وكان وعيه بجمالها فجأة دليلًا على أن ذهنه يفكر في الطلاق، مما جعله في النهاية يحار في اختيار الكلمات المناسبة.

توترت عينا كاوري في قلق وهي تنظر إلى زوجها الصامت. وعلى ما يبدو أنها أحسَّت أن زوجها يحاول أن يتخطى الخط الذي حرص كلاهما على عدم تخطيه حتى الآن.

خاف كيدو أن تبادر زوجته بأخذ قرار حاسم فقال:

- أنا أعاني من وضعنا الحالي. وأريد أن نتناقش من أجل تحسينه. لأنني أريد لحياتنا الزوجية أن تستمر.

مرت سريعًا على وجه كاوري ابتسامة خفيفة تقريبًا لا يمكن لمحها، ثم لَوَّت عنقها وقالت ببلاهة:

- ماذا؟ هل قلتُ شيئًا بهذا الخصوص الآن؟

لم يتوقع كيدو منها هذا الموقف، لكن يبدو أنها لا تفكر في الطلاق كما كان يظن. مع أن مظهرها منذ عدة أشهر وأيضًا الآن، أنها تكاد تطلب الطلاق منه بلسانها. لكن بدت في عينيها مشاعر تعاطف مع زوجها الذي اضطر إلى أن يبوح بذلك لزوجته في تلك اللحظة.

قال كيدو بهدوء بعد أن خفف قليلًا من عبوس وجهه:

- أولًا، كما قلت لك ذلك مرات عديدة، أنا لا أخونك.

- هذا الموضوع انتهى. ألم أتوقف عن ذكر هذا الأمر مؤخرًا؟

- الصمت ذاته مستفز أكثر من الكلام.

- إنها عقدة اضطهاد.

ابتسم ابتسامة ساخرة شوهت معالم وجهه:

- تتهمينني ثم تقولين ذلك! يا لها من جراءة! ليست خيانة، لكنني خلال هذا العام كله كنتُ ألاحق شخصًا، وكنتُ منهمكًا في ذلك تمامًا، فربما بدا أنني أخونك. لكن ذلك الشخص ليس امرأة بل رجل. قصته لها علاقة بالعمل، لذا لم أخبرك بها.

- مَن يكون؟

- ابن قاتل حُكم عليه بالإعدام.

حكى كيدو قصة حياة ماكوتو هارا التي ظل يكتبها على جهاز الكمبيوتر الخاص به، لأوَّل مرة إلى شخص وهي مكتملة. بدأ من نشأة كِنكيتشي كوباياشي، ثم تلا ذلك محتوى جريمة القتل التي ارتكبها، ثم بعد ذلك التنمر الذي عاناه ابنه ماكوتو هارا، ثم تخلي أمه عنه وإيداعه في مؤسسة رعاية الأحداث، ثم ممارسته لرياضة الملاكمة، وانهيار ذلك الحلم بعد ظهوره ملاكمًا محترفًا من خلال «حادث».

استمعت كاوري في البداية وعلى وجهها تعبيرات مرتابة كأنها تتساءل: لماذا تحكي لي هذه القصة؟ لكنها راقبت هذا المشهد أكثر من كونها تسمعه، لأن زوجها يحكي بحماس بالغ.

لكن مع ذلك عندما وصلت القصة إلى جزء تبادل ماكوتو هارا هويته، قالت كي تُظهر اهتمامًا فقط:

- هل يمكن أن يحدث هذا؟

فتحدث لها وهو يخفي أمر ريئه أنه بعد ذلك تزوَّج امرأة ذات حظ تعيس فقدت طفلها، وأسس معها حياة زوجية سعيدة فترة قصيرة، وفي النهاية مات في حادثة في أثناء عمله في تقطيع أشجار الغابات.

سمعته كاوري حتى النهاية لكنها سألته وهي تبدو غير مدركة كما هو متوقع تمامًا:

- يبدو أنه كان تعيسًا، لكن ماذا تعني حياته بالنسبة إليك أنت؟

قال كيدو ساخرًا من نفسه ومن سؤال زوجته الضحل الدال على شخصيتها:

- لا أدري، في البداية لم تكن تعني شيئًا. لكن كان مجرد عمل قبلته بسبب مشاعر التعاطف مع ظروف موكلتي التعيسة. لكن في أثناء العمل بدأت أهتم بأمر عيش حياة شخص آخر، وأتخيل حياته التي تركها، هل هو هروب من الواقع؟ ألا يشبه الأمر قراءة رواية شائقة؟

- هواية مريبة.

- حقًا؟

- تريد الهرب مِن ماذا؟

نظر كيدو إلى وجه زوجته، لكنه عجز عن الجواب.

- أشياء متنوعة. هذا وذاك، أعتقد أن متلازمة الخوف من الزلزال ما زالت باقية. ليس فقط الكوارث الطبيعية، لكن كذلك الناس الذين ظهروا على التلفزيون منذ قليل.

فكر كيدو بالتأكيد في سوء العلاقة الزوجية، كأحد الأسباب، لكنه لم يقُل ذلك.

- لست وحدك في هذا، أليس كذلك؟

- بلى. أعتقد أنه كان عليَّ مراعاة الضغوط التي عليكِ.

- ما رأيك لو تذهب لاستشارة نفسية؟

- ماذا؟

- من دون التفكير بتلك المبالغة! مجرد أن يستمع إليك شخص ما، ألا يجعل ذلك مزاجك يتحسن؟ أليس هذا في الأصل هو عملك أنت؟

- أنا لا أعطي استشارات نفسية.

- ليست استشارات نفسية، ألا يستشيرك طرفان لا يستطيعان حل المشكلات التي بينهما بأنفسهما، فحتى وإن تحدثت إليَّ فلن يحل ذلك شيئًا، أليست تلك هي طبيعتك؟

- هه، طبيعتنا معًا. لكي أكون صريحًا، إن علاقتنا ليست على ما يرام. وفي كل الأحوال، هناك ضرورة للنقاش، لكن ربما ما تقولين صحيح. من الأفضل تأجيل النقاش بيننا إلى ما بعد ذلك. لكن ليس أنا فقط بل يجب عليك أنت أيضًا الذهاب. إلى استشارة نفسية!

- أنا لا حاجة بي إلى ذلك.

- لماذا؟

- لأنني أستشير الناس دائمًا.

- لكنهم ليسوا متخصصين، من المؤكد أنك تقولين ما يجب أن يقال.
- مثل ماذا؟
- في كل الأحوال، أنا أريد أن تعاملي سوتا بحنان أكثر. فأنت توبخينه أكثر من اللازم.
- أين ذلك؟
- الاستشارة النفسية تبدأ من هنا، بقولك: إن زوجي قال لي ذلك.
هزت كاوري رأسها أفقيًا وهي غير مصدقة.
وحملق كيدو إلى وجهها ثم انفك تشنج خديه قليلًا. وعندما ارتاح من ضغط أنه يجب عليه إيجاد حل ما في هذا المكان الآن، وكأنه اطمأن، بدأت الكلمات تخرج من فمه:
- عند التفكير مليًا في الأمر، فهذه وتلك، كلها مشكلات يجب التعرض لها بطريقة محددة. لكن عندما أبدأ التفكير أصاب بالامتعاض وأشعر بمعاناة أن وجودي نفسه ليس له أي ضمانة أو حماية مطلقًا. وعندها، في أثناء بحثي عن الشخص الذي حدثتك عنه منذ قليل، كانت روحي تتلهى لسبب مجهول. أنا نفسي لا أعرف لماذا؟ على أي حال من خلال حياة الآخرين، ولو بطريقة غير مباشرة، أستطيع لمس حياتي الشخصية. وأستطيع التفكير فيما يجب عليَّ التفكير فيه. لكن مباشرة مستحيل أن يحدث ذلك. ولذلك قلت وكأنني أقرأ رواية. إن الجميع لا يستطيعون معالجة مشكلاتهم النفسية بأنفسهم فقط، أليس كذلك؟ فيطلبون شخصًا يأتمنونه على ما في وجدانهم من مشاعر. أنا أعرف أن وجودي معكِ أصبح غير مشوق بالنسبة إليكِ، لأنني بوجه كئيب على الدوام.
جلست كاوري على المقعد وهي عاقدة ذراعيها كما هي، وهزت رأسها بطريقة مختلفة عما سبق وبها حميمية طفيفة.
- لكن ظروفك تختلف تمامًا عن ظروف ذلك الرجل.
- وهذا هو الأفضل على ما يبدو. إن المسافة تعطي قدرًا من الأمان.

- لا أفهم.
- لكن في كل الأحوال أنا أريد أن تتحسن علاقتي معكِ. هذا حقيقي. لقد عانيت معاناة شديدة من أجل أن أستطيع النطق بتلك الكلمة، ولا أريد أن ينتهي حبكِ لي. سأكون في مأزق. لقد فكرت كثيرًا، سأكون في مأزق حقيقي. ولكنني كذلك لا أستطيع إجبارك على شيء، لقد ظللتُ أكرر المعاناة العميقة جدًّا أكثر بكثير من وقت لقائنا الأول، في السنة الثانية عشرة من الزواج أسأل نفسي وأبحث عن الإجابة، ماذا أفعل لكي أجعلك تحبينني؟

قال كيدو ذلك وضحك من نفسه لغرابة القول. وأفلتت من كاوري أيضًا ضحكة على طريقة قول زوجها تلك التي يبدو بها استخفاف، لكن كان ذلك الحوار الجاد الذي بدا مزاحًا يحدث بينهما بعد غياب طويل. وفرح كيدو عندما اكتشف في ملامح زوجته سعادة لم يرَها منذ فترة طويلة.

بعد ذلك حملقت كاوري في زوجها وقالت:

- أنت تبالغ في التفكير السيئ.

أومأ كيدو.

- هل أنت بخير؟
- لماذا؟ أجل أنا بخير.
- حقًّا؟! ألا تفكر أن تفعل فعلًا مريبًا؟ أنا أكره ذلك، أكره أن تفاجئني بفعل أناني.

لم يعرف حقًّا ماذا تقصد زوجته بالضبط، لكن من خلال ملامح وجهها الجادة استشف أخيرًا ماذا تعني وأصيب بالذهول! إن هذا هو حقًّا الشك غير المنطقي أكثر بكثير من أن تشك في خيانته.

قال بذهول:

- لا شيء، لا تقلقي! ماذا حدث لكِ؟ ما ذلك الفعل المريب؟ إن لديَّ سوتا! ومن المستحيل أن أفكر في ذلك.

لم يستطِع أن يخفي دهشته وهو يتذكر «الحادث» الذي أنهى مسيرة ماكوتو هارا في الملاكمة وهو يفكر هل كان ذلك ما قلقت منه زوجته!

نظرت كاوري بعيدًا عن زوجها وكأنها تتأكد من صدق كلماته بوجهها الشاحب نفسه.

- إن كان الأمر كذلك، فلا بأس.

لكن كيدو قلق فجأة عندما فكر أن ذلك الأمر طرأ على ذهن زوجته مرات عديدة في تلك الأزمة.

ظل الاثنان فترة صامتَين.

ضرب كيدو على ركبتيه لينهي هذا الحوار قائلًا:

- ارتحت أنني استطعت الحوار معكِ. يبقى أن يذهب كلٌّ منا إلى الاستشارة النفسية.

- لا داعي أن تتمسك بذلك. أنا لا أفهم جيدًا، لكن إن كان ذلك يريحك فلماذا لا تستمر في البحث عن ذلك الرجل؟ ومقابل ذلك كن في صحة وحيوية وأنت في البيت.

- سوف أنتهي من البحث قريبًا. وأنتِ أيضًا إن كان هناك ما تريدين التحدث عنه، تحدثي عنه سواء معي أو مع استشاري نفسي.

- أنا بخير. أشكرك أنك تحدثت معي. سأذهب لأستحم إذن.

راقب كيدو ظهر زوجته وهي تخرج من غرفة المعيشة.

ثم بعد أن تأمل الشرفة فترة، دفن رأسه في الأريكة وهزه ببطء. وأطلق التنهيدات المتبقية في صدره بقوة.

١٨

في الخامس عشر من فبراير جرى التصالح في قضية الادعاء بالحق المدني للموت من كثرة العمل التي يتولاها كيدو. دفعت سلسلة المطاعم والمشارب ورئيسها بصفته الشخصية معًا مبلغ اثنين وثمانين مليون ين وتعهد بتنفيذ سياسة تتضمن ثمانية بنود لعدم وقوع المشكلة نفسها مرة أخرى. وهو محتوى يمكن وصفه بأنه انتصار ساحق.

لبى كيدو دعوة عقد مؤتمر صحفي مع عائلة الشاب الذي انتحر في السابعة والعشرين من عمره وهم يحملون صورة الفقيد. وبعد انتهاء المؤتمر الصحفي ذهبوا جميعًا لتناول وجبة العشاء في مطعم إيطالي وتبادلوا الأحاديث لمدة ثلاث ساعات. لم يكن محور الحديث المحاكم والقضاء بل كان حديثًا عامًّا وعند الوداع أمسك الوالدان يد كيدو بقوة وأبلغاه شكرهما العميق.

كان كيدو مسرورًا، لكن عندما يتخيل الاثنين في شيخوختهما يشعر قلبه بمشاعر قوية بعيدة كل البعد عن السرور. ومع أنها قضية مأساوية إلى تلك الدرجة، فقد فكر أنه استطاع أن يُنهيها بسمت المحامي القدير من دون أي زعزعة أو اهتزاز حتى النهاية.

بعد نقاشه مع كاوري، بات كيدو يفكر أنه على الأرجح يجب أن يضع حدًّا فاصلًا لاستمراره في ملاحقة ماكوتو هارا. ومن أجل ذلك، كان يريد أن

يبحث عن دايسكيه تانيغوتشي بأي طريقة ويتأكد من أنه يعيش في سلام، وأن يسمع لو استطاع قصة لقائه مع ماكوتو، لكن كان البحث عنه يسير في طريق مسدود كما هو.

ثم حدثت تغيرات مفاجئة وسريعة في الموقف، إذ إن مشاهدته لفيديو المظاهرات المضادة في الأخبار جعلته يتصل بميسوزو بعد انقطاع عن التواصل عدة أشهر.

ويبدو أن ميسوزو لم تكن تعرف أنها ظهرت على شاشة التلفزيون، ومع اندهاشها أرسلت إليه ردًّا بنبرة فخر: «لقد ذهبت مرتين حتى الآن!»، ولم يكن ثمة شرح مسهب. ثم واصلت الرد: «بالمناسبة لقد تركت حانة «صَني» في نهاية العام الماضي. لقد حدثت أمور كثيرة سوف أحكيها لك في لقائنا المقبل».

شعر كيدو بالوحدة عندما فكر أنه إذا ذهب إلى تلك الحانة فلن يجدها هناك. بعد أن زار صالة الملاكمة في حي كيتاسنجو في نهاية يناير الماضي، فكر في إلقاء نظرة سريعة على الحانة بعد غياب لكنه لم يفعل، لو ذهب فلن يجدها فهي قد تركت العمل بالفعل.

في رسالة ميسوزو غير ذلك كان ثمة محتوى غير متوقع.

لقد جُمِّد حساب الفيسبوك المزيف الذي أنشأته ميسوزو مع كيوئتشي باسم «دايسكيه تانيغوتشي»، بعد أن قدَّم شخص ما بلاغًا عنه. لم تكن إعادته صعبة، لكن باتت علاقة ميسوزو مع كيوئتشي «صعبة» لذا أهملت الحساب بعد ذلك.

ومؤخرًا عرفت أن على حسابها هي الشخصي مع خدمة «طلب الصداقة» هناك صندوق رسائل آخر غير صندوق الرسائل العادي، وأصيبت بالدهشة عندما فتحته واكتشفت رسائل لم تقرأها على مدى عدة سنوات مضت.

وفي تلك اللحظة فتحت خانة «طلب الصداقة» في حساب دايسكيه وعندها انتبهت لرسالة بعنوان «تحذير» من حساب شخص يُسمَّى «يوئتشي فوروساوا» بلا صورة ولا موضوعات.

كان محتواها كما يلي:

> أرسل إليك هذا التحذير بالنيابة عن موكلي. أرجو منك على الفور إزالة هذا الحساب المزيف الذي ينتحل شخصية إنسان آخر. وفي حالة عدم الاستجابة لذلك سوف أتخذ جميع الإجراءات القانونية ضدك.

ولم يذكر مَن يكون موكله هذا.

وما زال الحساب موجودًا إلا أنه تقريبًا لا تطرأ عليه تحديثات، وفي النهاية ما من دلائل على أنه اتخذ إجراء قانونيًّا تجاه حساب دايسكيه تانيغوتشي الذي لم يستجب لتحذيره. وعلى الأرجح أن الشكوى التي جُمِّد الحساب بسببها كانت من ذلك الشخص.

قالت ميسوزو إن تلك الرسالة من دايسكيه تانيغوتشي نفسه.

– لسبب مجهول. محاولته الكتابة بطريقة مخيفة، لكن كون الناتج غير مخيف على الإطلاق ينم عن شخصية دايسكيه تمامًا.

لكن كيدو شك في أنها أحد أنواع الرعاية بعد الخدمة من الأشخاص الذين توسطوا في عملية تبادل الهويات والأسماء التابعين لأوميورا، وقرر أن يتواصل مع ذلك الشخص.

انتهت رسالة ميسوزو بالسؤال: «هل أنت بخير يا سيد كيدو؟». كان سؤالًا معتادًا إلا أنه ترك صدى في نفسه.

يئس كيدو من الاستعانة بكيوئتشي في عملية البحث عن شقيقه دايسكيه.

لقد بحث كيوئتشي في الإنترنت عن كِنكيتشي كوباياشي، وفي النهاية أظهر رد فعل رافضًا بعنف لمحتوى جريمته البشعة، وفي كل الأحوال كان كمَن يقول له لا أريد الارتباط بأي مما يمت له بصلة. استخدم كلمة «عالم آخر» في رسائله إلى كيدو وأصبح يصب اللعنات بدرجة أكبر من ذي قبل على شقيقه الذي ترك البيئة الرائعة التي وُلد ونشأ فيها ودخل بإرادته عالم هؤلاء الناس، وأنه أحمق أبله لا يمكن إنقاذه. وفي

النهاية قال إنه لا يريد بأي حال من الأحوال أن يتورط في القضية إن هو تدخل برعونة.

زميله الوحيد في المكتب الذي استشاره في هذه القضية، وهو ناكاكيتا، لوى عنقه مندهشًا من تدخل ميسوزو في البحث عن دايسكيه بصرف النظر عن كيوتشي نفسه.

- يا سيد كيدو، أنا أعتقد أن ذلك تهور منك. أليست حبيبته السابقة؟ ماذا ستفعل إن كانت «مترصدة»؟ فثمة احتمال أن يكون الشخص المُسمَّى «دايسكيه» قد بدَّل هويته هربًا منها. من خلال شرحك حتى الآن يبدو أنه ترك هويته بسبب مشكلاته مع أسرته، لكن الحقيقة مجهولة. ربما تكون مترصدة وتتعلل بحجج لكي تجده.

صمت كيدو أمام هذا التلميح الذي لم يكن يتخيله. كان يفكر أن ميسوزو يصعب أن تكون كذلك، لكن إن قيل له إن ذلك وهم من أوهامه بلا دليل فلن يستطيع الرد. ثم شعر بأنه لا يتحمل أن تنشر كلمة ناكاكيتا ظلًّا مظلمًا على الانطباع الذي أخذه عن ميسوزو في قلبه إلى تلك الدرجة خلال هذا العام.

يُفترض أن لا أحد مهما كان، يستطيع معرفة الماضي الحقيقي للآخرين، ولا ماذا يفعل ذلك الشخص في مكان آخر عندما لا يكون أمام عينيه. كلَّا، حتى وإن كان أمام عينيه، فتفكيره أنه يعرف حقيقته وجوهره لهو الغرور بعينه.

سأله ناكاكيتا عندما حاول العودة إلى مكتبه قائلًا:

- هل أنت بخير يا سيد كيدو؟

شك كيدو أن ناكاكيتا أيضًا يوجه إليه السؤال نفسه وليس زوجته فقط، ففتح عينيه قليلًا وأظهر وجهًا بشوشًا له وقال:

- لماذا؟

رتب كيدو طريقة التواصل مع ذلك «الوكيل».

إن كان هو فعلًا دايسكيه تانيغوتشي فيفترض أنه الآن يُسمَّى «يوشيهيكو سونيزاكي». ثم إنه ولكل الأسباب المعروفة لا يريد أن يقابل شقيقه الأكبر كيوئتشي. وفي الوقت نفسه يجب الاحتراس في إظهار اسم ميسوزو لأن رأي ناكاكيتا منطقي جدًّا.

تعب كثيرًا في كتابة رسالة تجعله يثق به من دون أن يعرف الطرف الآخر شخصيته. وربما يجب ألا يشرح القصة كلها من أجل إثارة اهتمامه. وقرر كذلك ألا يذكر اسم «يوشيهيكو سونيزاكي»، بل الاكتفاء بالأحرف الأولى له أي «ي س».

كتب كيدو له ما يلي:

> أرجو منك المعذرة على وقاحة الاتصال بك فجأة من دون سابق معرفة.
> أتواصل معك بخصوص الرسالة التي أرسلتها إلى حساب السيد دايسكيه تانيغوتشي بتاريخ الثامن من أكتوبر من العام الماضي.
> أنا اسمي أكيرا كيدو وكيل زوجة السيد دايسكيه تانيغوتشي، أعمل محاميًا مسجلًا في نقابة المحامين الفرعية بمحافظة كاناغاوا، وأعمل شريكًا متعاونًا في إدارة مكتب المحاماة المسجلة بياناته أدناه، ويمكنك التعرُّف على المكتب أكثر من خلال الضغط على رابط موقع المكتب على الإنترنت المدون أدناه أيضًا.
> في الواقع لقد تُوفي السيد دايسكيه تانيغوتشي إثر حادث أليم في شهر سبتمبر منذ ثلاث سنوات. ولا أستطيع كتابة التفاصيل في هذا المجال، لكنني أريد أن أتواصل مع السيد «ي س» من بين من كان لهم به علاقة في أثناء حياته، وعندما كنتُ أبحث عثرت على حساب السيد دايسكيه تانيغوتشي، ولما تواصلت مع القائمين على الحساب، اكتشفت رسالة من الوكيل السيد يوئتشي فوروساوا بطلب حذف الحساب بالنيابة عن شخص ما.
> اعذر لي وقاحتي لكن ألست يا سيد فوروساوا وكيل السيد «ي س»؟
> إن كان الأمر كذلك فثمة ما أريد إبلاغه له بأي طريقة كانت، لذا أكون سعيدًا لو تفضلت بالرد على هذه الرسالة.
> إن كان استنتاجي خطأً فأرجو منك غفران هذا الخطأ وسوء الأدب.
> وأرجو منك إهمال هذه الرسالة والتخلص منها بعد قراءتها.

كان كيدو يرى أنها رسالة مشبوهة على الرغم من أنه هو الذي كتبها، ولذا لم يأمل أن يأتي رد. لكن مهما قلنا إنه تخلى عن هويته، إلا أن المرء لو سمع أن مَن كان هو في الماضي قد مات! فمن المؤكد أنه سيهتم بالأمر. يعتقد كيدو أنه يعيش مع شعور بالحنين والشوق إلى حياته الماضية التي تخلى عنها.

إن كان ماكوتو قد بدَّل هويته مع دايسكيه، وهو باسم «سونيزاكي»، في المرة الثانية، إذن لا بد أن دايسكيه ما زال يعيش باسم «سونيزاكي»، ويُفترض أنه قلق من أن تفضح أرملة ماكوتو ذلك إلى أسرته.

جاء رد من يوئتشي فوروساوا في اليوم التالي بعد الساعة الثانية صباحًا بقليل. انتبه كيدو الذي كان نائمًا وقتها في الصباح لوصول رسالة خاصة على الفيسبوك ولا إراديًّا تسربت من فمه صيحة: «أوه!».

أمر طبيعي تمامًا، كان بسبب الحذر الشديد يتقمص الهدوء، إلا أنه لم يستطِع إخفاء الارتباك الذي بدا عليه.

وإذ وصل إلى تلك اللحظة أخيرًا، استنتج كيدو استنتاج ميسوزو نفسه. أي أن الوكيل هو دايسكيه الذي استمر يبحث عنه طويلًا ويعيش الآن باسم «سونيزاكي». وبدأ كيدو يتعاطف معه إذ رأى بلاهته تلك وهو يحاول أن يستخدم اسمًا مستعارًا من البداية.

كتب يوئتشي فوروساوا في البداية أنه لا يصدق أن كيدو محامٍ. وقال بالتأكيد نجد محاميًا يُسمَّى «أكيرا كيدو» عند الدخول على الموقع، لكن ما الذي يثبت أن مرسل الرسالة هو الشخص نفسه؟ ثم قال ثانيًا مَن يكون «ي س» الذي كتبت الأحرف الأولى فقط من اسمه؟ ثم مَن الذي أنشأ حساب دايسكيه؟ وما علاقتك به؟ إلى آخره.

اقترح عليه كيدو التواصل عبر السكايب. فإن رأى وجه كيدو سيتأكد أنه هو المحامي الذي في الموقع ويثق بذلك. وإنه يمكنه أن يغلق الكاميرا من جهته ولا مانع أن يكون التواصل بصوته فقط. ولو أنه يريد التواصل مباشرة

مع السيد «ي س»، لكان كتب أنه لا مانع أن يتأكد السيد يوئتشي أولًا من شخصيته مرة قبل ذلك.

ويبدو أن الرسالة قُرئت على الفور، لكن الرد وصل في المساء. جعلت فترة الصمت تلك كيدو يتخيل أنه يعمل في النهار.

وكان محتوى الرد أنه لا يستطيع قول اسم موكله. لكن موكله يرغب في حذف حساب دايسكيه. ويريد أن يعرف أكثر عن موته. ولذلك فسوف يتواصل معه الليلة في الحادية عشرة عبر السكايب.

حار كيدو في اختيار الملابس التي يجب أن يرتديها، لكنه في النهاية، قرر أن يكون بالقميص والبدلة من دون رابطة عنق، أي بالزي الذي يرتديه عادةً في المكتب. ارتدى قميصًا مكويًّا بعد أن استحم وأنام سوتا، فأحسَّ بغرابة ذلك إلى حدٍّ ما.

في الحادية عشرة إلا خمس دقائق جاء اتصال من يوئتشي فوروساوا.

– ألو! مساء الخير أنا كيدو. ألو.

– ....

– هل أنت السيد فوروساوا؟ هل تستطيع أن تراني؟

مثلما يلتقي موكلًا لأوَّل مرة كانت ابتسامة عريضة تملأ وجه كيدو.

انقطع الاتصال لحظيًّا من دون رد. فقلق من أنه لن يستطيع التواصل معه إلى الأبد!

– أنا كيدو! هل تراني؟ سيد فوروســ..

– أجل أراك.

– حقًّا!

أصيب كيدو بالذهول من تلك الكلمة المرتعشة التي جاءته عبر الشاشة السوداء تمامًا.

تُرى هل هذا هو دايسكيه تانيغوتشي الحقيقي الذي استمر يبحث عنه

على مدى العام كله؟! بلع ريقه، وفكر أنه يجب أن يرد بقول شيء فأجاب بصوت مرح بشوش محاولًا ألا يسبب الخوف للطرف الآخر:

- هل تراني؟
- أجل.
- جيد جدًّا. أشكرك شكرًا جزيلًا على الاتصال.
- لا داعي للشكر.

الصمت يسيطر على المكان، ويتردد صدى يدل على أنه يعيش وحيدًا في شقة ضيقة.

صوته أجش ينم عن أنه في منتصف العمر، لكن شعر كيدو بعدم الكياسة وكأنه يحاول أن يغير طبيعة صوته متعمدًا. كانت رسائل الفيسبوك مهيبة إلى حدٍّ ما، لكنه لم يستطِع أن يخفي ارتيابه الجبان من خلال الهاتف. أحسَّ بالكوميديا الساخرة في ذلك، أيضًا أحسَّ بالشفقة. تذكر كيدو فجأة مقولة ناكاكيتا الحازمة: «إن كان من محبي مايكل شينكر فمن المؤكد أنه رجل صالح».

سأله كيدو سؤالًا مباشرًا وصريحًا:

- أنت وكيل السيد يوشيهيكو سونيزاكي، أليس كذلك؟

فأجاب ببساطة:

- بلى.

مع إحساس كيدو بالإحباط بدأ هذه المرة يشك، وظن أنه ربما لا يكون دايسكيه، لكنه طلب من صديق أو شخص يعرفه أن يتصل أولًا.

- كما أرسلت إليك من قبل، لقد مات السيد دايسكيه تانيغوتشي منذ ثلاث سنوات. وترغب زوجته في معرفة حياته قبل أن يلتقي بها.
- وهل كان السيد تانيغوتشي متزوجًا؟
- أجل، ولديه طفلان.
- وماذا تعمل السيدة زوجته؟

- تعمل في محل لبيع الأدوات المكتبية.
- حقًّا؟! وماذا تريد أن تعرف؟
- لن أستطيع التحدث عن التفاصيل إلا إلى السيد سونيزاكي نفسه.
- أنا، أنا وكيله!
- لكنني لا أستطيع التأكد من ذلك.
ابتسم كيدو وهو يقول ذلك.
- ما القدر الذي تعرفه يا سيد كيدو؟
- على الأرجح أعرف كل شيء. إنني أرغب في مقابلة السيد سونيزاكي. إن تحقق ذلك، ورغب السيد سونيزاكي سأحكي له ما الذي حدث بكل تفاصيله.
- ....
- أنا شخصيًّا لا أدري ما تفاصيل ما دار بين السيد تانيغوتشي والسيد سونيزاكي. لكن الموت يأتي بالتأكيد، وأريد أن أنصح السيد سونيزاكي بالمشكلات التي تحدث وقتها بوصفي رجل قانون. وهذه الفرصة أعتقد أنها نادرة الحدوث وأعتقد أنني سأكون مفيدًا له.
من خلال رد الفعل تأكد كيدو مجددًا من أن الطرف الآخر هو دايسكيه وقال ذلك من أجل إقناعه. استمر الصمت على الطرف المقابل للشاشة السوداء، وبدا أنه يفكر في أمر ما، ثم سمع كيدو ما يشبه قرقعة لسان.
وفي النهاية، بدأ الحديث بنبرة وكأنها انتقلت إليه من كيدو الوكيل «الحقيقي» وقال فجأة ما لم يكن يتوقعه:
- يا سيد كيدو، هل سبق أن قابلت الآنسة ميسوزو غوتو؟
- أجل قابلتها، لماذا؟
- هل هي تعتقد حقًّا أن صاحب الحساب المزيف على الفيسبوك هو السيد دايسكيه الحقيقي؟ وفي الأصل مَن الشخص الذي يدير الحساب؟ هل هو كيوئتشي تانيغوتشي؟

- سأقول ذلك أيضًا للسيد سونيزاكي شخصيًا.
- أرجو أن تتوقف عن التسويف! أنا وكيله وقلق بشأن الآنسة غوتو هل هي بخير أم لا؟
- إنها بخير على حسب ما رأيت.
- إن كان الأمر كذلك أرجو منك إبلاغها رسالة.
- مِن مَن؟
- من موكلي.
- وما الرسالة؟
- يقول إنه يريد الاعتذار إليها.

ظل كيدو يحملق إلى الشاشة السوداء صامتًا، وكاد ينسى لحظيًّا أن الطرف الآخر يراه.

- سأبلغها ذلك.
- كذلك يطلب موكلي ألا تبلغ وسيلة التواصل هذه إلى كيوئتشي تانيغوتشي مهما حدث.
- فهمت. في كل الأحوال أريد أن يسمح لي السيد سونيزاكي باللقاء والتحدث معه بالتفصيل. هل يمكن أن تبلغه ذلك؟ سأذهب إلى أي مكان يختاره.
- أجل، سأبلغه.
- أرجو منك ذلك.
- فهمت. إلى اللقاء.

انقطع الاتصال. ثم نظر كيدو إلى السقف وظل فترة شاردًا فاغرًا فاه.

لم يكن هناك أي داعٍ لقلق ناكاكيتا من أن تكون ميسوزو «مترصدة». لا يفهم ماذا تعني جملة الاعتذار التي قالها، لكن على الأرجح بسبب أنه اختفى من دون أن يقول لها شيئًا.

كان حوارًا قصيرًا، لكن شعر كيدو بأن دايسكيه نادم على فقدان ميسوزو. بل كان ندمًا طازجًا كأنه انتعش في السنوات الأخيرة فقط.

تعاطف كيدو معه لأنه بدا أنه يعاني من حياته المعيشية، لكنه شعر بالعار عندما تذكر نفسه وكيف انتحل شخصية دايسكيه تانيغوتشي في حانة بميازاكي في الماضي، بل إلى درجة أنه تحدث إلى نادل الحانة الذي لا يعرفه عن علاقته بميسوزو. ثم شعر داخله بآثار لمشاعر يمكن أن يطلق عليها مشاعر الغيرة.

في نهار اليوم التالي، اتصل هاتفيًّا بميسوزو وأبلغها بمحتوى الحوار. فقالت:

- إنه دايسكيه بالتأكيد! أكاد أراه أمام عينَي. فلا أعرف أحدًا باسم «يوشيهيكو سونيزاكي».

وعندما أبلغها باعتذاره ضحكت ميسوزو فقط ضحكة واهنة.

- هل ستذهب للقائه يا سيد كيدو؟
- أنا أنوي ذلك. وأعتقد أنه سيوافق. حان الوقت لإنهاء لعبة مخبر التحريات الخاص هذه.
- أفكر أنا أيضًا في الذهاب معك!
- آه، هل تذهبين؟ هل أسأله؟
- وإن رفض أبلغه رسالة مني: «يجب أن تعتذر إليَّ شخصيًّا». أعتقد أنه سيوافق بالتأكيد.

أبلغه كيدو رغبة ميسوزو. يبدو أن موكله قال إنه لا يريد لقاءها وعندما أبلغه بما قالت ميسوزو كما هو، وصل رد يقول: «السيد سونيزاكي وافق على أن تأتي الآنسة ميسوزو».

وحدد له يوم السبت من الأسبوع الأول من شهر مارس. ومكان اللقاء مدينة ناغويا.

١٩

اتفق كيدو مع ميسوزو على حجز مقعدين متجاورين في قطار نوزومي السريع إلى ناغويا.

ركبت هي من طوكيو وعندما ركب كيدو في العربة نفسها من يوكوهاما، أشارت إليه بإشارة خفيفة بيدها واستقبلته بوجه مبتسم.

- هل قصصتِ شعركِ؟

- أمس.

- ماذا؟ من أجل لقاء اليوم؟

- كلَّا، بل بالمصادفة.

يصل شَعرها الذي ظهر من القبعة الشبكية بالكاد إلى كتفيها وصُبِغ من جديد بلون بني غامق. لم يختلف مظهرها عن ذي قبل، ارتدت في هذا اليوم معطفًا على طراز المعاطف العسكرية وتحته بنطلون جينز رفيع. كانت تلك المرة الثالثة التي يقابل كيدو فيها ميسوزو، لكنها المرة الأولى التي يجلس إلى جوارها. شم رائحة كولونيا ليمون تحتوي على مرارة معسولة.

كان كيدو نفسه يرتدي بدلة من دون رابطة عنق.

تحرك القطار بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، لكن كان الركاب قليلين، وكانت المقاعد أمامهما وخلفهما فارغة.

تستغرق المسافة حتى ناغويا ساعة ونصف الساعة، وظلَّا بعض الوقت يحكي كلاهما للآخر ماذا حدث له خلال تلك الأشهر التي مضت.

تحدثت إليه ميسوزو عن تركها الحانة، وقالت عن السبب وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

- لم أستطِع تحمُّل إلحاح المالك الشديد، في البداية كنت أعتقد أنه يمزح. لكن تدريجيًّا باتت طريقة غزله جادة.
- لكن كان واضحًا لي أنه جاد من أول نظرة.
- هل عرفتَ؟
- واضح. لكن أنا أتفهم مشاعره. فوجود امرأة جميلة مع أحد في مثل ذلك المكان الضيق من المؤكد أن يجعله يقع في هواها.
- إن طريقة الحب تلك هي ملخص حياتي. شعور طاغٍ بالضحالة.

قالت ميسوزو ذلك مازحة. تأمل كيدو من الجانب تلك الابتسامة الواسعة على وجهها.

- علاوة على ذلك لم أستطِع الاندماج في حديث هؤلاء الناس. منذ الوقت الذي ذهبت فيه إلى المظاهرات المضادة، بِتُّ لا أطيق البقاء في تلك الحانة. وفي الأصل كنت أعمل كهواية أكثر منه طلبًا للمال، فإن كان العمل غير ماتع فلا معنى للاستمرار فيه. ثم أصبح الوقوف حتى وقت متأخر من الليل مرهقًا لي إرهاقًا شديدًا. فلم أعُد شابة صغيرة.
- ليتني ذهبت مرة ثانية قبل أن تتركي الحانة. لأن كوكتيل غيملت الفودكا كان لذيذًا جدًّا.
- حقًّا؟! أستطيع صنعه في أي وقت. لكنني كنت لا أستطيع الشرب في تلك الحانة، لنذهب المرة المقبلة للشرب معًا في مكان آخر.

طبقًا لطريقة التعامل مع تلك الجملة ظهر للحظة حلم يقظة يقرر مستقبل كيدو ثم اختفى على الفور. ثم أهمل تلك الجملة بقوله:

- لقد شربتِ عندما كنتُ هناك.

ضحكت ميسوزو وهي تقول من دون أن تهتم بذلك اهتمامًا خاصًّا:

- في ذلك الوقت فقط. أنا لا أشرب على الدوام وأنا أعمل.

ثم تحدثت وهي مذهولة عن إهمالها حساب دايسكيه على الفيسبوك بعد شجار كبير مع كيوئتشي لأنه أصبح يتقرَّب منها بإلحاح.

- إن ذلك الشخص، لم يكن هدفه البحث عن دايسكيه أكثر من أنه كان يستغل ذلك لمواصلة الاتصال بي. لكن في النهاية كانت النتيجة أن جاء اتصال من دايسكيه حقًّا، فمشاعري باتت معقدة.

- لقد كان يصر بشدة على أن شقيقه قد قُتل، هل تكون النتيجة بهذا الشكل؟ لا أرى أنه إنسان شرير، لكنني لا أفهم ذلك السلوك.

- لم يصبح الأمر بهذا الشكل بسبب ما حدث هذه المرة. بل منذ الماضي البعيد. لم أقُل ذلك من قبل، لكن ربما كانت لي علاقة بأن يكون الشقيقان على خلاف. لأن كيوئتشي كان يحبني.

- آه، كما توقعت، كان الأمر كذلك؟

- إن كيوئتشي محبوب من النساء. لكنني لا أفضِّل ذلك النوع اللعوب من الرجال. أما دايسكيه فهو غير ماهر في علاقاته الإنسانية، ومظهره الخارجي غير جذاب، ومن النوع الذي يعامله الآخرون على أنه غبي. بالطبع هو نفسه السبب في ذلك. لأنه كان يتظاهر بالفرح بدور الشخص الذي يسخر منه الجميع. ومع أنه كان دائم الابتسام للجميع، لكنه في مواضع معينة لا يقدر على التحمُّل فينفجر. فيندهش الجميع وهم يقولون ماذا حدث له فجأة؟ لكن الأمر لا يكون فجأة.

شعر كيدو بأن صورة الشخص الذي تحكي ميسوزو على أنه دايسكيه تختلف تمامًا عما حكاه كيوئتشي، وكذلك عما سمعه من ريئه وحكاه ماكوتو عنه.

- وهل شخصيته الإنسانية تلك هي خلفية موضوع التبرع بالكبد؟

- من المؤكد أنها كذلك. الأمر يختلف عن أن يطلب زميلك في الفصل أن تقرضه بعض المال، أليس كذلك؟

- بلى.
- لأن كيوئتشي كان يستغباه، فلم يغفر له علاقته بي قَطُّ.
- يبدو فعلًا أنه ذو كبرياء شديدة.
قالت ميسوزو وهي تبتسم ابتسامة مرة تنم عن الأسى:
- هذا أحد الأسباب.
ثم واصلت كلامها وهي تحترس من أن يسمعها أحد من الركاب المحيطين:
- ألا تكون الشهوة الجنسية لطلاب الثانوية الذكور شهوة مهولة؟
- هاهاها. إلى حدٍّ ما.
- لم يكن يتحمل أن دايسكيه يمارس الجنس معي. لقد كان في حالة من الهياج والغضب وكأن شيئًا داخله قد أصابه الجنون.
أفلت الضحك من كيدو من دون إرادته وظل يضحك فترة. وانتقلت عدوى الضحكات إليها فبدأت ميسوزو تضحك.
- ولذلك ليس الأمر قصة شاعرية جميلة مثل أنه ظل يحبني طوال تلك السنين. مجرد أنه يريد أن يمارس الجنس معي فقط. مع أنني أمسيتُ عجوزًا كما ترى بلا أي جمال. لكنه لن يهدأ له بال إن لم يؤكد حقيقة أنه نام معي ولو مرة واحدة، من دون علاقة بما أنا عليه الآن.
- على الأرجح أنه يريد أن يزيل الخزي الذي شعر به في الماضي.
- هل تفهم مثل ذلك الأمر؟!
- أجل. لا يمكن القول إنه أمر لا يمكن فهمه.
- تفهم؟! عجيب! وهل لديك يا سيد كيدو مثل تلك الرغبة في الغزو؟
- إنها مشكلة درجة، لكن، يجب ألا نجزم بعدم وجودها! أعتقد أنه يجب محاسبة النفس، ما دام هناك احتمال أن يجرح الأمر المرأة بتلك الطريقة، في وجود وعي بذلك أو عدمه. كذلك الغيرة والصراع البائس بين الرجال. هل تعرفين نظرية «رغبة العلاقة الثلاثية» لرينيه جيرارد

على ما أتذكر؟ يقول إن رغبة الإنسان ليست رغبة واحد ضد واحد، بل لأن ثمة منافسًا فهو أيضًا يرغب في الطرف الآخر.
- آه، لكن، هل هذا المنافس يجب أن يحب الطرف الآخر أولًا؟
- سؤال لاذع. بمعنى ألا يتوهم أن ثمة منافسًا، أو أن يكون نوعًا من العبقرية أو الجنون.
- إذن هل دايسكيه وقع في حبي بسبب شعور التمرد على كيوئتشي؟
- إممم، أعتذر، لم يكن هذا الحديث جيدًا.
كانت ميسوزو تنظر إلى وجه كيدو، أظهرت على وجهها تعبيرات غامضة وكأنها لا تستطيع أن تتعامل مع آثار الابتسامة المتبقية على خديها، ثم قالت:
- أنت شخص جاد يا سيد كيدو.
- أحقًّا؟! أعتقد أنني أحاول أن أظهر لكِ الجانب الجيد.
- أجل، فأنت لك جوانب متعددة.
ضحك كيدو وهو يقول:
- أجل لقد تحدثتُ عن ذلك.
بالطبع من أجل مراعاته لوجود ميسوزو لم يفكر كيدو في التلفظ ولو بحرف عما يشعر به تجاه الشقيقين تانيغوتشي من مشاعر ملتوية. ثم شعر بالخزي من كل قلبه تجاه ذكره لرينيه جيرارد لإخفاء ذلك.
نظرت ميسوزو من النافذة من دون هدف، وبعد استمرار مناظر موحشة ظهر جبل فوجي من بعيد، فظلت تتأمله من دون أن تقول شيئًا، ثم التفتت إليه مرة أخرى ببطء وقالت:
- يحدث هذا لي كثيرًا. إنني لا أكره وجهي، ولكنني نوعًا ما أشعر بأنه يقود حياتي إلى الطريق السيئ فقط. لا أستطيع أن أستغله استغلالًا مفيدًا. تلك هي مشكلتي.
- مثل تلك المعاناة كثيرة!
- وعلى العكس ينصب عليَّ الوعظ أنني عندما أتحدث إلى الآخرين

تظهر ثغرات في كلامي. حتى مالك الحانة، طريقة عرضه بعد انتهاء العمل تكون فاضحة جدًّا. مع أنه لم يكن كذلك قَطُّ عندما كنتُ أذهب إلى هناك بوصفي زبونة.

- أنا لا أعتقد أن في كلامك ثغرات.

ابتسمت ابتسامة متكلفة، ثم قالت بعد فترة صمت قصيرة وكأنها تذكرت فجأة شيئًا جيدًا:

- لقد عثرتُ على حبيب خلال هذا العام.

- أحقًّا ذلك؟

أجاب كيدو وهو يتظاهر بالهدوء، لكنه ذُهل من أن ذلك القول صدمه إلى حدٍّ ما.

والسبب أنه مع تقبله أنه من الطبيعي جدًّا أن يكون لها حبيب، إلا أن عدم قدرته على معرفة تلك الحقيقة يدل على أنه لم يتطور قَطُّ منذ أن كان مراهقًا صغيرًا. كان ذلك الاعتراف دائمًا ما يكون مفاجأة له، وعندما يسمع شائعة دائمًا ما تكون غير متوقعة.

من الطبيعي وجود ميسوزو أخرى غير التي قابلها في الحانة وتواصل معها بشأن دايسكيه.

وحتى على الفيسبوك مع أنه يُفترض أنه رأى ذلك العدد الكبير من «الأصدقاء»، فلم تكن إلا سذاجة كبيرة منه أن مشاعر الغيرة لم تتوجه إلا إلى الأشخاص القريبين، مثل الأخوين تانيغوتشي أو مالك الحانة. ثم بفضل ذلك المنافس الذي لم يسبق أن قابله، شعر بأن أحلام يقظته تجاه «حياة أخرى» تخيلها من خلالها، توشك أن تتحفز من خلال «رغبة العلاقة الثلاثية».

- في أحد الأيام جاء ذلك الشخص إلى الحانة. إن كل الرجال الذين كانوا حولي حتى ذلك الوقت من نوع الرجل الجِلْف الذي يناديني بطريقة فظة، وكانت تلك أوَّل مرة أتعامل مع رجل مثقف ومهذب. كان

يعاملني بطريقة راقية جدًّا. وحتى عندما أتواصل معه على الإنترنت، كان جادًّا وأسلوبه في الحوار كان مؤدبًا وذكيًّا جدًّا.

كان كيدو يسمع كلامها وهو يفكر إن كان الأمر يتوقف على عدم مناداتها بطريقة فظة فهو أيضًا يفعل ذلك.

- وهنا حتى بعد أن أذهب للعمل في الحانة أظل في انتظاره وأنا أقول تُرى ألن يأتي اليوم؟ وأضغط على «الإعجاب» في حسابه على الفيسبوك. لكنه يبدو مشغولًا جدًّا، فلم يأتِ إلى الحانة مرة أخرى، لذا عرضت عليه تناول الطعام معًا.

- يا له من رجل سعيد! ماذا يعمل؟

لاحظ كيدو حيرتها فخفف عنها بالقول:

- آه، ليس من الضروري أن تجيبي، فليس ثمة هدف محدد من سؤالي.

- ليس عمله هو المهم بل الأهم أنه متزوج ويعول أطفالًا. وأنا مع حالي هذه فالخيانة هي الذنب الوحيد الذي لم أقترفه.

- حالك هذه؟

- أنا صادقة. أي أنني أبدو معتادة ذلك لأنني في الأربعينيات من العمر، وعزباء. وعلاوة على ذلك فإنه ليس فقط مشغولًا في عمله، بل يعطي إحساسًا بأن حياته مكتملة ولا ينقصها أي شيء، ولا يبدو أنه يحمل تجاهي أي نوع من الاهتمام على الإطلاق. في الواقع لقد كنتُ أعاني معاناة شديدة طوال الأشهر الستة الماضية. إلى درجة أنني فكرت أنني أصابني الجنون بعد أن وصلت إلى مرحلة الأربعينيات من العمر.

- ثم ماذا حدث؟

- مؤخرًا، حدث أمر بسيط، وكان هو السبب في أنني قررت أن أيأس. وأحد أسباب تركي العمل في الحانة أن انتظاره أن يأتي كان عذابًا. لقد كنت أقول ثلاثة انتصارات وأربع هزائم، لكن الهزائم متواصلة حاليًا.

- هل أبلغتِ الطرف الآخر بمشاعرك هذه؟

حركت ميسوزو أهدابها الطويلة مرات عديدة مثل البجع التي تطير فزعة من صوت مفاجئ. لم يفهم كيدو معنى تلك الحركات السريعة، لكن مرت ابتسامة طفيفة جدًّا على فمها المغلق، ولذلك ابتسم هو أيضًا ابتسامة مشابهة ولم يسألها أكثر من ذلك.

ثم فكر أنه رجل آخر، يشبهه تمامًا.

بعد ذلك بقي الاثنان على صمتهما.

ثم قالت ميسوزو مراعاةً له:

- لو لديك ما تفعله تفضَّل ولا تخجل.

فقال لها كيدو القول نفسه.

- يمكنك أن تنامي وسوف أوقظك.

- هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضَّلي.

- لماذا انتحل ماكوتو شخصية دايسكيه؟ أنا أفهم أنه كان يكره أصله وهويته، لكن ألم يكن من الأفضل أن يفكر في ماضٍ ونشأة يحبها هو ويختارها؟ هل كانت ثمة ضرورة لكي يعيش وهو يتعمد أن يجعل حتى قصة التبرع بالكبد جزءًا من ماضيه؟ هذا ما أفكر فيه.

- بالتأكيد هناك مَن يعيشون وهم يخفون ماضيهم بقصص مختلقة تناسبهم، لكن أعتقد أنه تشارك وجدانيًّا معه. مع السيد دايسكيه. ألا يحدث ذلك عند قراءة الروايات ومشاهدة الأفلام؟ ليس سهلًا أن يفكر المرء في قصة يحبها ويستطيع أن يستغرق فيها بكل مشاعره. ولا يستطيع جميع البشر فعل ذلك. وعلاوة على ذلك أليس من المهم مواجهة النفس والتأمل فيها من خلال حياة الآخرين؟ ثمة وحدة لا يمكن مواساتها إلا من خلال التأثر الوجداني من حكاية جراح الآخرين، والقول إنها أنا!

كان من الواضح جدًّا أن كيدو يتحدث بعد أن طابق ذلك اهتمامه تجاه ماكوتو.

- إممم. أشعر بأنني أفهم ذلك الشرح. لكن، نوعًا ما هناك دايسكيه الذي كنتُ أعرفه في الماضي، وبعد ذلك هناك «دايسكيه تانيغوتشي» آخر أسَّس عائلة رائعة في ميازاكي ومات في حادث في أثناء قطع الأشجار في الغابات، ثم هناك حياة دايسكيه الذي سوف نلقاه بعد قليل، أمر مدهش وعجيب.
- من المؤكد أن لا حدود أو نهاية لتنوعات الماضي، أليس كذلك؟ لكن ربما يكون الشخص نفسه لا ينتبه لذلك. حتى حياتي أنا، إن سلَّمت الراية إلى شخص آخر الآن، ربما يعيش حياتي في المستقبل أفضل مني.
- يبدو الأمر وكأنه استبدال رئيس شركة! أو استبدال مدرب فريق كرة قدم؟
- إن تلك هي طريقة تفكير المؤسسات منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. إن تغير الشعب فالدولة واحدة لا تتغير. وحتى القانون الروماني الذي يتأسس عليه القانون المدني الحالي، كان قائمًا على بديهية بقاء الإمبراطورية الرومانية إلى الأبد، لكن في الواقع اندثرت الإمبراطورية الرومانية وكانت حياة القانون أطول عمرًا.

بدأ كيدو في النهاية هذا الحديث، ونظر إلى ميسوزو التي تسمع باستمتاع بجواره ثم قال:

- حسنًا، ولذلك إن وصل الأمر إلى الأفراد يكون الأمر مختلفًا. أليس كذلك؟ فأولًا هناك الموت، وهناك العمر الافتراضي. وعلاوة على ذلك، إن ماكوتو لم يكن هو دايسكيه.
- لكنه لم يكن ماكوتو هارا أيضًا، أليس كذلك؟
- بلى. لكن هل تختلط حياته مع حياة دايسكيه أم يعيش فيها معه؟ وإن أصبح الأمر كذلك، عندما نحب شخصًا، ما الذي نحبه إذن في

ذلك الشخص؟ الشعور بمشاعر حب تجاه الطرف الآخر منذ لقائه في الوقت الحاضر، ثم بعد ذلك يصبح المرء يحب ذلك الشخص بماضيه أيضًا. إذن لو عرف أن ذلك الماضي هو ماضي شخص آخر يختلف عنه تمامًا، كيف ستكون علاقة الحب بين الاثنين؟

قالت ميسوزو بوجه عليه ملامح تقول إن الأمر ليس بتلك الصعوبة:

- بعد أن يعرف ذلك يعيد حبه من جديد أليس كذلك؟ الأمر ليس أنه إن أحببت مرة ينتهي الأمر، بل خلال وقت طويل من الزمن، يُعاد تجديد الحب بينهما أكثر من مرة. لأنه تحدث أمور عديدة.

تأمل كيدو وجهها. كانت تلك السكينة الحساسة ذات اللُّب القوي الذي ينير ملامح ذلك الوجه محببة إليه بشدة. وأدرك مجددًا أنه خلال هذا العام كله ظل يتلقى تأثير طريقة تفكير تلك المرأة. فمع استسلامها بمرارة لقدرها، لديها نوع من العناد الذي لا يصطبغ بالأعراف والتقاليد وبسبب ذلك هي حرة.

تأثر قلب كيدو بفكرتها تلك عن الحب التي حكتها وكأنها هي الأمر الطبيعي تمامًا.

- إنه كذلك حقًّا. ربما كان الحب ذاته هو الحب الواحد مهما حدث له من تغيرات. ولأنه يتغير بالذات فهو يستطيع الاستمرار، أليس كذلك؟

أُعلِن في العربة أن القطار سيصل إلى ناغويا بعد قليل. وعندما فكر أنه ربما تكون تلك هي آخر مرة يقابل فيها ميسوزو شعر بقليل من الحسرة والخسارة.

كان كيدو ما زال يفكر في قصة حبها المنكسر مؤخرًا التي حكتها له. ثم أخذ ينظر إلى جانب وجهها الذي ينظر من النافذة وهو يتظاهر بأنه هو أيضًا ينظر إلى المناظر خارج النافذة.

بذل جهده لإيقاف سوء الفهم الساذج ليكون في حدود بلادة منه، وهو يسخر من نفسه.

كان يأمل أن تتحسن علاقته مع زوجته. وظل يردد في سره أنه يجب عليه أن يتقبل عبارة «قررت أن أيأس» التي قالتها ميسوزو في اعترافها.

لأن الاثنين كانت نيتهما العودة في اليوم نفسه، فلم تكن معهما أمتعة كبيرة. لكن مع ذلك كان تحركهما من على المقعد في آخر وقت توقف فيه القطار.

في لحظة قصيرة جدًّا داخل كيدو نبتت مشاعر ترغب في عدم النزول إلى ناغويا والذهاب إلى مكان ما معًا، فاهتاجت مشاعره سريعًا فجأة. وتسارع نبضه وكأنه ظن أنه على وشك أن يقول لها ذلك. لكنه ظل يكرر الجملة التي قالتها هي منذ قليل تجاه كيوئتشي وهي «مع أنني أمسيتُ عجوزًا كما ترى بلا أي جمال»، وهو يخالف نيته تلك ويشعر بمشاركة ذلك الإحساس بقوة.

فكر كيدو: «أنا أيضًا أصبحت عجوزًا» كما قالت بالضبط، ويُفترض أنه «لا جمال» بالنسبة إلى كلٍّ منهما.

تقدم كيدو أمامها وقال لها وكأنه يقطع حبال الأمل في ذلك الحب:

- هيَّا بنا!

عندما التفتت ميسوزو نحوه، أومأت بتلك الملامح المشرقة الكسول.

مد كيدو لها يده. ابتسمت ميسوزو وأمسكت يده ثم وقفت وهي تقول:

- هيَّا بنا!

ثم سعدت بمراعاة كيدو لمشاعرها، وشكرته بصوت لا يحتمل الشك في صدقه.

٢٠

لأن الموعد مع «يوشيهيكو سونيزاكي» كان في الساعة الواحدة لذا تناول كيدو وميسوزو وجبة غداء خفيفة في مبنى محطة القطار، ثم افترقا بعد ذلك مرة.

كان ترتيب اللقاء أن يلتقي كيدو فقط معه أولًا ثم تلحق بهما ميسوزو فيما بعد. وكان مكان اللقاء «مقهى كوميدا» الذي يبعد عن محطة ناغويا عشر دقائق سيرًا على الأقدام، لكن تأخر كيدو عن الموعد بسبب عدم معرفته جيدًا بتلك المنطقة، ووجود أكثر من فرع للمقهى في المنطقة.

إن كان «يوشيهيكو سونيزاكي» هو «دايسكيه تانيغوتشي» فهو يعرف وجهه من صوره، لكنها صور مر عليها أكثر من عشر سنوات، ولذا كان قلقًا هل سيستطيع معرفته على الفور أم لا!

عندما أبلغ النادل أنه على موعد فأشار إليه بمعنى «أليس هو ذلك الشخص؟»، وقاده إلى مقاعد المدخنين. طاولة لأربعة أشخاص فقط وُضع بينها وبين باقي المقاعد حاجز خشبي، ويجلس هناك رجل يرتدي سترة من الساتان عليها رسم بألوان فاقعة وقبعة شبكية رمادية اللون.

كان ينظر تجاهه. تسربت من كيدو تنهيدة من دون صوت. ثم اهتاج صدره مثل المرة الأولى التي سمع فيها صوته من خلال السكايب. كان قد كبر في السن لكنه هو دايسكيه بلا شك.

«ما زال على قيد الحياة!».

فكر كيدو في ثقته بماكوتو هارا التي لم يتخلَّ عنها حتى النهاية، فشعر بحرارة في خديه وكأن الدماء تدفقت في رأسه.

كانت رائحة دخان السجائر المختلطة برائحة القهوة تتوقف عابقة في أرجاء المكان. وعندما وصل إلى المقعد قدم كيدو له بطاقة اسمه وألقى عليه التحية. خفض الرجل رأسه بالتحية وعلى وجهه علامات توتر جامحة، وحدَّق طويلًا إلى ظهر بطاقة الاسم.

سأله كيدو:

- أنت السيد دايسكيه تانيغوتشي، أليس كذلك؟

للحظة أصبح وجه ذلك الرجل المفترض أن يكون يوشيهيكو سونيزاكي مستاءً، لكنه بعد حيرة قصيرة قال:

- بلى أنا هو.

وعندما ابتسم كيدو تشوه خداه لا إراديًّا بشكل أخرق.

كان يُفترض أن عمره أكبر من كيدو بثلاث سنوات أي في الثانية والأربعين من عمره، لكن فقدت بشرته المتفخة نضارتها، وبلغ تعب العينين منتهاه.

وبعد أن طلب كيدو القهوة قال له الطرف الآخر:

- عذرًا، هل يمكن أن تدعوني باسم «يوشيهيكو سونيزاكي»؟ وبعد ذلك هل تسمح لي بالتدخين؟

- تفضَّل بالتدخين كما تحب. أعتذر إليك. سوف أدعوك باسم «يوشيهيكو سونيزاكي».

بعد أن سحب دايسكيه نفَسًا من سيجارته هدأت مشاعره قليلًا فواصل القول:

- على الأرجح أن من لم يخُض تلك التجربة لن يستطيع الفهم، لكن بعد تبديل الهوية، ومرور عام، يصبح الإنسان فعلًا شخصًا آخر. وبمنتهى الصدق لو قيل لي يا سيد تانيغوتشي فإنني أفكر: ماذا؟ هل أنا المقصود؟ لأننا نتبادل كل شيء بما في ذلك الماضي. لقد كنتُ أمقت عائلة

تانيغوتشي حتى بدلت هويتي، لكنهم الآن أغراب لا أشعر تجاههم بشيء. لما شاهدتُ كيوئتشي على الفيسبوك، لم أرَه إلا مالكًا بائسًا لنُزل ينابيع ساخنة في الأرياف.

- ألم تَعُد تتذكر الماضي قَطُّ؟

- إن قطعت علاقاتك الإنسانية وابتعدت عن ذلك المكان، من الطبيعي أن تنسى كل شيء. كلَّا، الماضي الكريه فقط لن تنساه أبدًا حتى وإن حاولت نسيانه. ولذلك تكتب فوقه ماضي شخص آخر. إن لم تستطِع محوه فليس أمامك إلا أن تكرر الكتابة فوقه إلى أن تصبح قراءته مستحيلة.

وصلت القهوة، فشرب منها كيدو وهو يومئ. كان ذلك يختلف تمامًا عما فكر هو فيه من أن العيش في قصة جروح شخص آخر يجعل المرء يستطيع العيش، ولم يكن أمامه إلا أن يصدق أن ذلك ما يحدث، لكن مع ذلك، كان الانطباع مختلفًا بالكامل عما سمعه من ميسوزو في أثناء مجيئه إلى هنا. عند النظر فقط إلى الوجه فما من شك أنه هو، لكن كما قال دايسكيه لم يشعر كيدو بأنه الشخص نفسه.

- أين وُلد السيد يوشيهيكو سونيزاكي؟

- في مدينة من مدن محافظة ياماغوتشي. وهو في الأصل ابن عضو في مافيا الياكوزا.

- فهمت. كيف يمكنني أن أسأل، وهل تعرف يا سيد سونيزاكي مع مَن بدَّلت هويتك؟

قال دايسكيه بتلقائية غير متوقعة:

- مع ماكوتو هارا، أليس كذلك؟

- بلى. وهل مَن توسط بينكما رجل يُسمَّى «أوميورا»؟

- لا أتذكر اسمه. رجل بوجه يشبه وجه سمكة الفوجو المنتفخ، رجل مشبوه جدًّا.

- أجل، أجل. ربما كان هو.
- لقد حكى لي خرافات لا تُصدق عن أناس يعيشون فوق مائتَي عام.

تسربت ضحكة من كيدو لا إراديًّا وأوشكت القهوة التي يمسكها في يده أن تنسكب.

- لقد قال لي إنها ثلاثمائة عام!

ابتسم دايسكيه ابتسامة خفيفة، وأبدى لأوَّل مرة تخليه عن التحفظ والكلفة.

- وماذا يعمل الآن؟
- إنه في السجن.
- حقًّا؟! ماذا فعل؟
- بتهمة النصب والاحتيال.

أغمض دايسكيه إحدى عينيه ثم نفث دخان سيجارته في استمتاع.

- هل تعلم عن نشأة ماكوتو هارا؟
- أجل أعلم. والده مرتكب جريمة قتل، أليس كذلك؟
- بلى. ثم بدَّل هويته مرتين. أولًا أصبح باسم «يوشيهيكو سونيزاكي»، ثم بعد ذلك...
- بدَّلها معي.
- ولماذا بدَّل هويته مرتين؟
- لماذا! إن هذا هو المعتاد في ذلك المجال. فمَن هم مثلي لا يبدِّلون هويتهم إلا مرة واحدة فقط هم الأقلية.
- حقًّا؟!
- إن سيرة السيد هارا الذاتية كانت ثقيلة، ولذلك لم يكن يملك رفاهية اختيار الطرف الآخر الذي يُبدل معه هويته، ولم يكن سبب تغييرها أن يوشيهيكو سونيزاكي ابن عضو في مافيا الياكوزا، لكن السبب الحقيقي هو أنه التقى به ولم يستطِع أن يحبه.

اقتنع كيدو بهذا الشرح. ويُفترض أن من أجبر الرجل المُسمَّى «تاشيرو» صاحب الإعاقة العقلية على هوية «ماكوتو هارا» هو ذلك الرجل الكريه.

تابع دايسكيه كلامه وهو يلهو بالقداحة الرخيصة في يده اليمنى.

- لقد كانت هوية دايسكيه عليها إقبال شديد في ذلك العالم. فليس له سجل إجرامي وماضيه مشرف. إلى درجة أن مَن يصل إلى هويتي بعد أن يبدِّل هويته عدة مرات يكون مثل مليونير القش. أما أنا فكان أكبر همي وقتها هو أن أقطع علاقتي العائلية بأسرتي، فكنتُ لا أمانع بتبديل هويتي مع أي شخص. لكن كنتُ أكره أن يكون شخصًا له سجل إجرامي، أيضًا ستكون ورطة لو كان شخصًا يثير مشكلات مع أسرتي بهدف الحصول على الميراث. وهنا قابلت السيد هارا، وتحدثتُ معه وفكرت أنني لا أمانع في التبديل معه إن كانت حياته ستصير إلى الأفضل.

- وهل تشارك السيد هارا وجدانيًّا مع ماضيك وأحبه؟

- هذا ما حدث. فقد تحدث معي بحميمية شديدة وقال لي إنه سيجتهد لكي يكمل هو ما تبقى من حياتي. إن كان ولا بد، فهذا هو الإنسان الذي أريد أن أتنازل له عن حياتي. لم أقابله إلا مرتين فقط، ولكنني أحببته، أحببته حقًّا. كانت عيناه في منتهى البراءة، ولاقى معاناة صعبة في حياته، ولذلك كان يبدو طيب القلب ورحيمًا. ويعطي إحساسًا أنه يكره أن ينهي حياته التي وُهبت له في هذا العالم هكذا.

- لقد كان السيد هارا وقتها يُسمَّى «يوشيهيكو سونيزاكي»، فهل تحدث معك عن حياة ماكوتو هارا؟

- أجل تحدث معي عنها. كان يمارس الملاكمة وحاول الانتحار مرتين.

- مرتين؟!

- أجل، هذا ما قاله لي.

بمعنى أن ماكوتو هارا نفسه حكى له حادث الوقوع إياه على أنه محاولة انتحار. ومع ذلك من العجيب أن هناك محاولة ثانية.

- وكيف كان يقيِّم عيشه بعد أن ترك الملاكمة؟

- ظل يعمل فترة بالمطاعم والمشارب. يبدو أنه عمل في أماكن متنوعة، لكن منذ أن انتشرت معلومات عنه في الإنترنت أصبح من الصعب أن يجد عملًا، فظل بعد ذلك يعمل في شركة إرسال عمَّال باليومية.

ظل كيدو يستمع إلى دايسكيه الذي يعتقد طوال هذا العام والأشهر الثلاثة أنه قُتل، وهو يجيب بهدوء ولا مبالاة.

- ماذا تعمل الآن يا سيد سونيزاكي؟

- آه، أجل، أعمالًا متنوعة، لا داعي لهذا الحديث.

- أنا آسف.

- لا داعي للاعتذار.

- لقد كنتُ أفكر؛ أليس كونك ابن عضو مافيا يسبب لك صعوبات؟

- بلى، أنا أُخفي ذلك. وحتى ابن رجل المافيا الحقيقي يخفي ذلك إن أراد أن يعيش بعيدًا في هدوء.

- أجل.

- مرة واحدة فقط. كنا في لقاء شرب مع زملاء العمل وكان هناك شخص مزعج فقلت له ذلك. لأنها عصابة كبيرة ومشهورة فقلت له ذلك بأسماء محددة. ومن بعدها تغيرت طريقة تعامله معي تمامًا. وحتى ذلك زاد من ثقتي بنفسي عندما أفكر أنني في الحقيقة وُلدت لعائلة في منتهى الخطورة، ولكنني أحاول هكذا بكل جهدي أن أعيش حياة صالحة.

- مفهوم.

- وهذا يختلف تمامًا عما كنتُ عليه في الماضي. لأنني لم أقابل السيد سونيزاكي الحقيقي، فلا أستطيع أن أتخيله بمهارة. ولذلك فصراحة أنا أضع السيد هارا أساسًا لحياتي. أتخيل لو أن السيد هارا ابن لرجل مافيا، ثم أضخِّم تلك الفكرة وأتخيل ممارستي للملاكمة في الماضي.

ظهرت ابتسامة معقدة على وجه كيدو.

- على ما سمعت كان السيد هارا يملك موهبة حقيقية! وفاز ببطولة شرق اليابان!
- ماذا؟ حقًّا؟! لم يقُل لي ذلك. لكنه الآن...
- أجل، لقد مات.
- مسكين. لكن عندما أفكر أن دايسكيه تانيغوتشي لم يعد له وجود في هذا العالم، أشعر بارتياح شديد. كنتُ أريد أن تطول حياة السيد هارا، لكنني عندما أفكر أن الابن الثاني لتلك الأسرة يعيش حاليًا في مكان ما، بصراحة كنتُ أشعر بالامتعاض.
- لكن بخصوص هذا الأمر، لقد تغيرت الظروف قليلًا، فقد أُلغيت شهادة الوفاة الخاصة بدايسكيه تانيغوتشي. وهو الآن ما زال على قيد الحياة لكنه مفقود.
- ماذا؟! أحقًّا ما تقول؟

ظهرت مشاعر الاشمئزاز على وجه دايسكيه وكأنه مضغ حشرة مُرَّة الطعم، طرح عليه عدة أسئلة وبدت عليه ملامح التفكير في معنى ذلك مجددًا. ثم سأل:

- ماذا فعل السيد هارا بعد أن أصبح دايسكيه تانيغوتشي؟

تحدث إليه كيدو بإيجاز من وقت ذهابه إلى بلدة سايتو ولقائه مع رِيئه وزواجهما إلى أن تُوفي. استمع دايسكيه بملامح جادة وهو يشبك ذراعيه ويواصل التدخين. وعندما قيل له إن لديه أطفالًا، أغمض عينيه ونظر عاليًا غارقًا في التفكير.

- بالمناسبة، هل زوجته تلك جميلة؟
- ماذا؟ آه، حسنًا، إنها ظريفة جدًّا. وعيناها واسعتان.
- حقًّا؟ يا له من محظوظ! تُرى لو أنا مَن ذهب إلى بلدة سايتو هل كانت لتتزوجني؟
- مَن يدري؟

- إنه مسكين لوفاته في ريعان شبابه، لكنني أحسده! لقد استطاع تأسيس أسرة سعيدة، إممم، يا لفشلي الذريع!

- ألم تتزوج؟

- لا أستطيع، فأنا مفلس!

- أليست لديك نية في العودة إلى أسرة تانيغوتشي؟ فهناك ميراث، ويبدو أن السيدة والدتك ترغب في لقائك. وبخصوص المشكلات القانونية يمكنني...

- أرفض ذلك بشدة. لو واصلت هذا الحديث سأرحل!

تعكَّر مزاجه سريعًا، وألقى بالقداحة التي كانت في يده على الطاولة. اعتذر كيدو إليه وشرح له شرحًا عامًّا عن حق الميراث، لكن لم يستطِع دايسكيه أن يركِّز ذهنه في ذلك الشرح.

- إنني لن أقابل أحدًا من تلك الأسرة حتى وإن أصبحتُ مشردًا بلا مأوى. مهما كان موقف دايسكيه في وثائق البلدية، أليس من الأفضل اعتباره قد مات وانتهى الأمر؟ فقط ميسوزو هي التي كنتُ أريد على الدوام أن ألقاها ولو مرة واحدة فقط. عندما أتخيل نفسي احتضر ويقال لي مَن الذي ستفرح لو جاء لزيارتك في مرضك؟ لكان ذلك الشخص، ميسوزو فقط. هي فقط. أجل. لقد تخيلت ذلك المشهد مرات كثيرة. ألا ترى أنني غبي؟ ألم تقابلها يا سيد كيدو؟

- بلى.

- هل ما زالت جميلة حتى الآن؟ هل كبرت في السن؟

- ستصل بعد ربع ساعة تقريبًا. أجل ما زالت جميلة، حتى الآن.

- هل تزوجَت؟

- من الأفضل أن تسألها هي هذا السؤال.

- بمعنى أنها عزباء! ماذا أفعل؟ لقد كانت أجمل فتاة أقمت معها علاقة في حياتي كلها، الأجمل على الإطلاق. لقد نسيتُ تقريبًا كل ما يتعلق

بماضي دايسكيه، لكن علاقتي مع ميسوزو فقط هي التي ما زالت حية أتذكرها حتى الآن. الأفعال الخليعة بيننا مثلًا.

قال دايسكيه ذلك ثم ابتسم ابتسامة مقززة إلى درجة تبعث على الكآبة.

وعندها شعر كيدو بأنه هو وشقيقه كيوئتشي بهما صفات متشابهة كثيرة وإن اختلفا في المظهر الخارجي. على الأقل عندما كان دايسكيه على علاقة مع ميسوزو لم يكن كذلك كما قالت هي. تُرى هل «ثقته بنفسه» لأنه ابن رجل مافيا هي التي غيَّرته؟ أم تُراه يحاول في مكان ما داخله أن يحاكي شخصية شقيقه الأكبر من دون وعي منه؟! في كل الأحوال، لقد شعر كيدو بأنه قد حدث له نوع من أنواع التدهور النفسي، سببه ظروفه التعيسة التي لا يمكن إرجاعها فقط إلى صفاته الشخصية.

وفكر كيدو أنه يشعر بالندم. كان وجهه يشبه وجه مُضارب البورصة الغشيم الذي عرف أن الأسهم التي ظل يحتفظ بها بلا جدوى، قد ارتفعت أسعارها في اللحظة التي باعها فيها بالخسارة. وعلى الأرجح أن قوله إنه لا يريد لقاء أحد من عائلة تانيغوتشي هو مشاعره الحقيقية. لكنه كان يبدو أنه يلوم نفسه على ضحالة تفكيره، وأنه كان يجب أن يُبدِّل بحياته حياة أخرى أفضل من تلك الحياة.

كان كيدو حتى المجيء إلى هنا يتخيل لقاء ميسوزو مع دايسكيه مرة أخرى ويشعر بقليل من الغيرة، لكنه فكر أن ذلك كان إفراطًا عاطفيًا منه.

شعر بالفجوة بين حياتَيهما التي وسَّعتها مدة عشر سنوات من الفراق، لكن شعر بأن ذلك أمر طبيعي، إذ إنه حاليًا يعيش بهوية شخص آخر.

ارتبطت رغبة كيوئتشي في النوم مع ميسوزو بأي وسيلة، مع كلمة دايسكيه الآن داخل رأس كيدو، فشعر باستياء لا يمكن وصفه. لقد تعاطف معه من كل قلبه بسبب الظروف التي جعلته يهرب من بيت عائلة تانيغوتشي. بات يشعر بكآبة عندما يفكر في حياة ماكوتو هارا التي عاشها بوصفها ماضيًا بصدق وإخلاص على أنها ماضيه هو.

دق هاتف كيدو. وكانت رسالة من ميسوزو تبلغه أنها في الطريق إليهما. وفجأة فكر كيدو أن دايسكيه ربما يتغير مرة أخرى إذا قابل ميسوزو مجددًا. لكنه لم يعرف هل ستتحرر ميسوزو من أوهامها وتُجرح جرحًا عميقًا، أم أنها ستميل إليه وتحاول أن تساعده، أو «هل تحبه من جديد؟». في كل الأحوال شعر كيدو بأنه لن يستطيع أن يتحمل ذلك المشهد.

لقد كانت نيته أن يحضر اللقاء بينهما، لكنه أعاد تفكيره وقرر أنه يجب ألا يتدخل في هذا الأمر، فقال وهو يحني رأسه:

- يبدو أن الآنسة غوتو على وشك الوصول. اسمح لي بالانصراف الآن.

- ماذا! هل سترحل؟

- أجل. فهناك ما يجب عليَّ عمله.

- حقًّا؟ ماذا! ماذا أفعل؟ لقد توترت أعصابي فجأة! لقد كنتُ أقلق من لقائك في البداية، لكن من الجيد أنني قابلتك. وسمعت منك ما أريد معرفته.

مد دايسكيه يده فتذكر كيدو يد ميسوزو التي لمسها اليوم، ثم سلَّم عليه بحرارة. ثم فكر: «تُرى يد مَن تلك الخشنة الغارقة في عرقها؟».

ربما كانت يد ماكوتو هارا الذي قابل هذا الرجل باسم «يوشيهيكو سونيزاكي» منذ سبع سنوات ونال حياة جديدة، وفي النهاية سلَّم عليه بيده هكذا، وافترقا. تخيل كيدو هذه الحقيقة وكأنه يتتبع آثارها داخله، وهو يذهب ليدفع فاتورة الحساب ثم يغادر المقهى بخطوات سريعة.

٢١

بعد أن قابل دايسكيه تانيغوتشي وسمع منه قصة تبادل هويته مع ماكوتو هارا، أكمل كيدو كتابة التقرير الذي كان قد توقف عن كتابته من أجل تسليمه إلى ريئه. ما زالت هناك معلومات أكثر يريد معرفتها عن ماكوتو هارا، لكنه في كل الأحوال شعر بضرورة إنهاء هذا البحث والتقصي الذي استمر على مدى سنة وثلاثة أشهر.

ذهب كيدو كما قالت له كاوري لاستشارة اختصاصي نفسي في عيادة بالقرب من مكان عمله، لكن كانت طريقة إلقاء الأسئلة تميل إلى الاهتمام الوظيفي أكثر، فسأله عن كل صغيرة وكبيرة وامتد بينهما حوار صاخب. وقيل له أن يأتي مرة أخرى في أي وقت يريد، لكنه في النهاية لم يذهب إلا تلك المرة الوحيدة فقط.

اطمأنت كاوري عندما سمعت منه ذلك، لكن عندما وصل الأمر إليها هي، أبدت كسلها. ومع ذلك سبب عدم إجبار كيدو لها على تنفيذ وعدها هو أنها منذ ليلة الحوار بينهما تغيَّر موقفها وقل عدد مرات توبيخها لسوتا حتى البكاء.

لم يحدث ذلك بالضرورة طبيعيًّا، لكن شعر كيدو بجهود ونية زوجته في محاولة تحسين العلاقة الأسرية. أراد أن يكون أكثر تعاونًا معها بعد أن تشاركا مجددًا العبء النفسي الذي تشعر به هي من جانبها نحو اتساع المؤيدين لطرد الأجانب وليس فقط الزلزال. كان يشعر بمشاعر الاعتذار

إليها لعدم مراعاته لمشاعرها بصورة كافية، وفي الوقت نفسه كان يشعر تجاهها بالامتنان.

ولم يتزعزع شعور كيدو هذا حتى هذه اللحظة.

ومن ثَمَّ، فإن الحدث التالي الذي وقع قبل ثلاثة أيام من مقابلته مع ريثه مرة ثانية، بات بالفعل وكأنه ذاكرة عطلة نهاية أسبوع عادية لا يُلتفت إليها وكأنها لم تكن! وربما ثمة مَن يقول إنه لا يستطيع تفهم ذلك، وثمة مَن يتفهمه على الأرجح.

زارت أسرة كيدو برج طوكيو الجديد إذ كان سوتا يريد الذهاب إليه منذ وقت طويل سابق.

ركبوا قطار خط طويوكو ثم بدَّلوا إلى خط الأنفاق هانزومون ووصلوا في الساعة الحادية عشرة.

ولقد خاب ظنهم أن الازدحام الشديد قد انخفض بعد مرور عامين على افتتاح البرج، وبصفة خاصة أنها كانت عطلة نهاية الأسبوع في إجازة الربيع، فأُبلغوا أن انتظار الحصول على تذاكر الطابور فقط يتطلب ساعتين.

كانت السماء خارج النافذة زرقاء منعشة في طقس صحو رائع.

تأمل كيدو السماء في ذلك اليوم الجميل.

ومرت على ذهنه سريعًا، جملة قرأها في الماضي في كتاب ما تقول:

مثل تلك اللحظة لمثل هذا اليوم!

كان شعوره بالضبط هكذا، لكنه لم يستطِع مهما حاول أن يتذكر مَن الذي قال ذلك!

عادت كاوري في الليلة السابقة في وقت متأخر بعد أن نام كيدو نفسه، لأنها كانت في تجمع لشرب الخمر مع زملاء العمل، لكنها مقارنة بذلك لم يكن بها أي من أعراض بقاء السُّكْر لليوم التالي، ومنذ أن استيقظتْ في الصباح وهي في مزاج جيد.

سألت كاوري ابنها:

- ماذا نفعل؟ هل ننتظر؟

قضم سوتا ظفر إبهامه، وهو ينظر إلى تلكما العينين، ظل فترة يتمايل يمينًا ويسارًا ثم قال:

- نذهب إلى متحف الأحياء البحرية!

تأكد منه كيدو مرة ثانية:

- هل أنت راضٍ؟

لكنه جذب ذراعه وقال:

- أجل هيًا بنا!

لقد بات ينظر جيدًا إلى مزاج الكبار ويتصرف على أساسه، ولم يكن كيدو يعرف هل هذا يتناسب مع عمره أم أنه حساسية زائدة من طفل؟ فقد قرر أن يكتفي بالنظر إلى البرج الجديد من الأسفل فقط.

نقل كيدو لكاوري شعوره أنه عند النظر إليه من بعيد لا يبدو إلا برجًا حديديًا لا قيمة له، لكن العجيب أنه حتى عند الاقتراب منه والنظر إليه من قريب لا يثير الانبهار المتوقع. ضحكت كاوري وهي تقول:

- بالفعل هذا حقيقي!

وفي منتصف الطريق أصر سوتا على شراء لعبة من ماكينة البيع الآلي فأعطاه كيدو عملات معدنية. فحصل على مجسم مصغر لساموراي يرتدي درعًا وخوذة.

كان متحف الأحياء البحرية داخل تجمع المباني نفسه، وكان مزدحمًا، لكن كان طابور الانتظار أقصر. لقد ذهب الثلاثة من قبل إلى حديقة الأحياء البحرية في جزيرة هاكيه، لكن كان كيدو وكاوري كذلك يدخلان هذا المتحف للمرة الأولى.

صُمِّم المكان من الداخل ليكون معتمًا مثل ما هو منتشر الآن في الأماكن المعدة لاستقبال المحبين في المواعدة، فكان سوتا يسير بين الزحام مبتهجًا، لكنه لم يلتفت قَطُّ إلى قناديل البحر أو الأسماك الصغيرة، وحتى إن حضنه

كيدو ورفعه إلى أعلى ليريه القضاعة التي في حوض عالٍ قليلًا، يقول له باقتضاب: «يكفي هذا». والأحواض التي يمكن فيها رؤية أسماك القرش وخفاش البحر، مؤخرًا، تظهر وكأنها شاشة عملاقة مثل التي تُرى في مجمَّع دور السينما، ويتجمع حولها الناس على أنها المكان الأحق بالمشاهدة، وهذه المرة قال سوتا: «أنا خائف». ومر من أمامها مسرعًا. نظر كيدو وكاوري بعضهما إلى بعض وابتسما ابتسامة ساخرة.

أما منطقة البطاريق فكانت مصممة على هيئة حمَّام سباحة كبير يُنظر إليه من أعلى، ويبدو أن سوتا أعجبه ذلك. في الأحواض الزرقاء وُضعت صخور صناعية وعند النزول إلى درجات السلم السفلى، يمكن رؤية البطاريق تعوم في ارتفاع العين نفسه. تسقط ظلال سباحتها كمجموعة على الأرضية، وعند النظر إلى ذلك فقط، تبدو وكأنها تحلق في السماء. سطح الماء الذي يُرى من أعلى خارج الحوض مستمر في الخفقان بلا انقطاع، فتتجعد الأشعة التي تنصب من السقف. ومع أن كلها تسبح في الاتجاه نفسه، إلا أن عددًا قليلًا جدًّا منها يبدأ في التقدُّم نحو الاتجاه المضاد بعمق وزاوية ميل، ثم في النهاية يغيِّر الحشد كله اتجاهه إلى ذلك الاتجاه. تأمل كيدو ذلك باستمتاع. ثم عندما انتبه لم يجد بجواره سوتا وكاوري.

ظل كيدو الذي فقد أثر الاثنين يحوم حول منطقة البطاريق، لكنه لم يعثر عليهما. وعندما اتصل بزوجته قالت له إنهما في محل الهدايا بجوار المخرج. وعندما ذهب إلى هناك بدهشة، ضحك سوتا وهو يقفز مبتهجًا وكأنه لا يتحمل كوميدية الموقف وهو يقول: «أبي تائه». وعندما تجهَّم كيدو تجاهه لم يعد قادرًا على التوقف عن الضحك.

كان ينوي أن يشتري له شيئًا كذكرى للزيارة، لكنه بعد أن بحث طويلًا قال إنه لم يجد ما يريده، وتقرر أن يبحثوا في محل آخر بعد وجبة الغداء.

كانت جميع المطاعم أمامها طابور طويل إلى درجة تبعث على الكآبة

والضجر، كان المطعم الذي جمّع أنواع الجعة من جميع أنحاء العالم في الطابق السابع يمكن دخوله سريعًا، تأكدا من وجود وجبات يمكن لسوتا أن يأكلها وقررا أن يتناولوا الغداء في ذلك المطعم.

كانت الطاولة التي أُعطيت لهم قريبة من النافذة على غير المتوقع، ويمكن مشاهدة مدينة طوكيو الواسعة تحت السماء الزرقاء ويُرى كذلك من بعيد القصر الإمبراطوري. فكر كيدو وهو يتأمل ذلك المنظر أنه كافٍ جدًّا حتى ولو لم يصعدوا إلى قمة البرج الجديد.

جلس الثلاثة وتنفسوا الصعداء. ظلوا يمشون لمدة ساعة ونصف الساعة فقط، لكن يضاف إليها وقت الانتقال بالقطارات، فكانوا مرهقين إرهاقًا لذيذًا.

امتلأ المطعم بالعائلات والأحباء في المواعدات، وكانت الأصوات عالية ربما بسبب الخمر. إن كان الأمر كذلك، فيبدو أن الأمر سيمر من دون قلق من مشاعر المحيطين حتى ولو لم يجلس سوتا على مقعده بهدوء.

طلبا لسوتا وجبة أطفال بها هامبرجر وعصير برتقال، وطلب كلاهما سلطة مع لحم ضلوع، واختارا جعة تشيماي بيضاء وجعة بليسنر ألمانية نادرة لا يُعرف كيف يُنطق اسمها.

أتت المشروبات على الفور، وتبادل الثلاثة الأنخاب مبدئيًّا. شرب كيدو ثلث الكوب في شربة واحدة، واسترخى مطلِقًا تنهيدة طويلة وكأنه يسترخي في حوض استحمام منزله الذي كان أوّل داخليه. امتدت على لسانه مرارة التشيماي العميقة بنكهة الفواكه.

– لذيذة جدًّا. عند شربها بعد غياب!

ثم شرب ثلثًا آخر، وقاوم التجشؤ بصعوبة.

شرب سوتا عصير البرتقال ثم قلّد والده قائلًا:

– هااه، لذيذة جدًّا. عند شربها بعد غياب!

ثم ضحك في مرح. وضحك كلٌّ من كيدو وكاوري.

مدت كاوري يدها بالكوب قائلة:

- تجرب أن تشرب؟ هذه أيضًا لذيذة جدًّا.

وضع كيدو الكأس على فمه ثم قال:

- حقًّا هذا صحيح. يمكن شربها بسلاسة.

ثم أومأ وهو يتأكد من الطعم المتبقي على لسانه.

جاءت السلطة فقط من الوجبة ولم يأتِ الباقي فترة طويلة، ثم جاء لحم الضلوع بعد ذلك، لكن لم تأتِ وجبة الأطفال وهي الأهم. وعندما حاولا أن يجعلا سوتا يأكل لحم الضلوع قال «إنها حارة»، فأعاد إلى الطبق قطعة اللحم التي قُدمت له مع الشوكة.

- ماما! أريد اللعب بألعاب الهاتف الذكي.

برزت ملامح تقول إنه لا حيلة في ذلك، فأعدت كاوري شاشة الهاتف على لعبة البازل التي يحبها سوتا وأعطته له.

كيدو الذي أنهى تقريبًا الكوب الثاني من التشيماي وهو يأكل اللحم، سكر قليلًا، فاعتدل مزاجه أكثر فأكثر.

- أعتذر سأغيب قليلًا.

وقفت كاوري وبدا أنها حارت ماذا تفعل في هاتفها الجوال، لكنها قررت تركه مع سوتا.

قال كيدو لسوتا:

- لقد تأخرت وجبة الأطفال جدًّا.

ثم تذكر الليلة التي قابل فيها كيوئتشي تانيغوتشي في شيبويا لأوَّل مرة في شتاء العام قبل الماضي. تذكر شعور السعادة العارم الذي أحسَّ به في تلك الليلة في غرفة سوتا وهو يجعله ينام، ثم صرح في سرِّه: «إنني الآن سعيد!».

«تُرى هل هناك أحد على وشك التخلي الآن عن حياته وأستطيع أنا إكمالها بطريقة أفضل منه؟ ولو تنازلتُ عن حياتي الحالية لأحد، هل يستطيع أن يكملها أفضل مني، كما عاش ماكوتو هارا مستقبلًا أجمل لحياة دايسكيه تانيغوتشي أفضل ممَّا لو أكملها هو بنفسه؟!».

ثم فكر كيدو مجددًا في معنى أن يكون المرء «إنسانًا عاديًّا» كما كان حلم ماكوتو هارا. فكر إلى أي درجة أعطت تلك الفكرة للإنسان اطمئنانًا وفي الوقت نفسه معاناة.

طأطأ كيدو رأسه وتأمل سوتا الذي يلعب بإصبع سبابته الصغيرة على شاشة اللمس بمهارة شديدة. وفكر أنه كثير الشبه به في طفولته من حيث الشكل والصفات. تُرى هل تشابُه الأبناء لآبائهم هو الأصلح من وجهة نظر نظرية الانتقاء الطبيعي؟ تُرى هل يربي الآباء أبناءهم باهتمام لأنهم يشبهونهم؟!

وعلى الفور وصل تفكير كيدو إلى الدلائل التي بلا عدد التي تدحض ذلك مثل الآباء والأمهات الذين يحبون ويهتمون بأبنائهم بالتبني، فتخلى عن استنتاجه هذا الذي بلا دليل. كان شعوره بالسعادة الشديدة لأن سوتا يشبهه حقيقة مؤكدة، لكن لا يعدم الأمر أن يكون ذلك سببًا لمعاناة ابنه في المستقبل.

وتأكد كيدو من أنه يجب عليه بأي طريقة أن يعيش حياة سوية صالحة. ثم تخيل موقف أنه يتنازل عن طفله هذا لأحد فكاد قلبه ينشق من الألم.

«من المؤكد أنني سأندم وأتعذب عذابًا شديدًا، مثل دايسكيه. إنه لو لم يكن ماكوتو وكان شخصًا آخر فإنه لم يكن ليقدَّر له أن يواصل حياة دايسكيه بتلك الدرجة من السعادة!».

شرب ما تبقى من البيرة في قاع الكوب بعد أن تبخرت الغازات منها وتذوقها بتمعن وهو يعض شفتيه. ثم ازداد تعلقه بحياته الحالية بشدة. وتخيل إلى أي درجة سيكون سعيدًا لو أنه ولد مثل ماكوتو ثم عاش بعد هذه الحياة على أنه كيدو. لو استطاع أن يعيش حياته وهي تتجدد هكذا في كل لحظة كشخص غريب عنه تمامًا، بعد أن تنازل له عنها.

– أبي! ألن تأتي الوجبة؟

– لقد تأخرت كثيرًا. سأقول لهم مرة أخرى.

أوقف كيدو النادلة التي كانت تحمل الأطباق الفارغة بحركات محمومة وطلب منها أن تُعجل في إحضار الوجبة.

وفي تلك اللحظة تذكر فجأة أنه في النهاية لم يُجِب بعد عن السؤال الذي سأله سوتا له: «لماذا تحوَّل نركسوس إلى زهرة؟» كان سوتا نفسه قد نسي الأمر، لكنه قرر انتهاز هذه الفرصة والبحث عن الإجابة فيما بعد، فكتب ذلك في مفكرة الهاتف المحمول.

كان يجلس إلى الطاولة المجاورة زوجان معهما طفلة في الثانية تقريبًا من عمرها ورضيع ربما يكون عمره خمسة أشهر، وكانت الأم تصنع في عجلة رضعة لبن صناعي من أجل الطفل الصغير الذي بدأ يبكي.

– المعذرة.

طأطأ الأب رأسه وهو يبدو عليه التأسف البالغ إلى كيدو الذي كان ينظر إليهم شاردًا.

– كلَّا، كلَّا، لا داعي للاعتذار.

– إن بدأ البكاء فهو لا يتوقف بسهولة.

– هذا هو الطبيعي.

ضحك كيدو ثم نظر إلى سوتا الذي ما زال منهمكًا بشدة في الألعاب. شعر بأنه كبر كثيرًا مع أنه ما زال في الخامسة من عمره. إن ابن ريئه الثاني لم يستطِع أن يعيش حتى هذا العمر أصلًا. إنها خاضت حزن ذلك الموت. وفكر أنه لن يستطيع تحمُّله أبدًا.

لم تَعُد كاوري مهما مر من وقت. ثم بعد فترة مد سوتا يده بهاتفها الجوال وهو يقول:

– آه، أبي! لقد تحولت الشاشة إلى مكان غريب.

عندما نظر كيدو كانت الشاشة قد انتقلت إلى صفحة دعاية للعبة مختلفة.

– آه، يبدو أنك لمست مكانًا خطأً.

قال له ذلك ثم وهو يعيد ضبط الشاشة، وصلت في تلك اللحظة رسالة على تطبيق «لاين». ظهرت الرسالة أعلى الشاشة ومع أنه لم يكن ينوي أن يراها ولكن عينيه رأتاها.

جملة «ليلة أمس» يتناثر معها إيموجي لقلوب تبدو وكأنها ملصق موجَّه إلى الأطفال. بحركة لا إرادية أزال كيدو الرسالة بإبهامه وكأنها غبار سقط فوق شيء سهل الكسر. بعد أن اختفت الرسالة بقي اسم المُرسِل وهو رئيس كاوري المباشر في رأس كيدو. لكن يُفترض أنها لا تزيد على أن تتوقف في النطاق المُسمَّى «الذاكرة قصيرة الأجل» داخل المخ. وما يجب الامتنان له أنها يُفترض أن تختفي على الفور من دون أن تترك أثرًا لها، فما ما من ضرورة لحفظها.

أظلمت الشاشة، فوضع كيدو الهاتف فوق الطاولة وشاشته إلى أسفل وكأنه لم يحدث شيء.

- أبي ما زلتُ أريد مواصلة اللعب.

- انتهى اللعب. انظر لقد جاءت الوجبة. تفرَّغ للأكل.

- ماذا! إذن بعد الانتهاء من الأكل؟

- وقتها اسأل والدتك.

بعد أن أنهى كيدو جعة التشيماي التي ذهبت برودتها طلب من النادلة كأسًا ثالثة.

أخيرًا عادت كاوري.

- طابور مهول عند دورة مياه السيدات! آه، أخيرًا جاءت وجبة سوتا؟

- أجل. جاءت الآن. لقد تعبت من انتظارها.

- هذه ثالث كأس، أليس كذلك، هل ستستطيع العودة إلى البيت؟

- بالتأكيد. فهي مجرد جعة.

ضحك كيدو، ومد ذراعه وقطَّع هامبرجر سوتا إلى قطع صغيرة من أجله. حصل الطفل المجاور أخيرًا على الحليب الذي أراده، فانهمك في امتصاص زجاجة الرضاعة.

وتمتد خارج النافذة، السماء الزرقاء في طقس صحو بدرجة بديعة.
فكر كيدو وهو يتأمل ذلك المنظر؛ يا له من يوم عطلة رائع!
مرت على ذهنه سريعًا، جملة قرأها في الماضي في كتاب ما تقول:

مثل تلك اللحظة لمثل هذا اليوم!

كانت تلك بالضبط هي مشاعره.

ثم ضرب على ركبتيه من دون أن يصدر صوتًا بعد أن استطاع أخيرًا أن يتذكر وهو يُبعد كأس الجعة ببطء عن فمه، بالتأكيد إنها كلمات الروائي موتوجيرو كاجي.

٢٢

في أثناء رحلة الطيران من مطار هانيدا إلى ميازاكي، التي تستغرق أقل قليلًا من ساعتين، غرق كيدو في التفكير وحيدًا وهو يتأمل المنظر خارج النافذة.

كان يومًا بطقس ربيعي في أبريل، وانتشى كيدو عندما تخيل أن ميازاكي ستكون أدفأ.

تمتد السماء الزرقاء من خط الأفق المائي وحتى مرمى البصر، وتغطي سحب خفيفة أرخبيل اليابان الذي يبدو وكأنه خارطة عملاقة لتخفيه كأنها دانتيلا دقيقة. كانت النافذة ناحية الشَّمال، فكانت الإضاءة غير شديدة على العين، بل مجرد الأشعة المضيئة فقط. استقرت الطائرة، وأُطفئت علامات الالتزام بربط الأحزمة، فأرجع كيدو مسند ظهر المقعد قليلًا، وقلَّب صفحات كتاب «التحوُّلات» لأوفيد الذي أحضره معه ليقرأه داخل الطائرة. من حسن الحظ كان المقعد المجاور خاليًا، فاستطاع أن يسترخي مستمتعًا بالوقت في عزلة. كان كيدو قد بحث في الإنترنت بعد ذلك مباشرة من أجل أن يجيب عن سؤال سوتا الذي أهمله عامين، واشترى النسخة الشعبية من هذا الكتاب الصادر عن دار نشر إيوانامي.

إن أسطورة نركسوس على ما يبدو لها عدة تفسيرات مختلفة. وسبب اختيار كيدو لكتاب «التحوُّلات» لأن سمعته في الإنترنت أنه أكثر الكتب تفصيلًا لمعرفة الأساطير اليونانية والرومانية. وأنه الأسهل في فهمه، لكن عندما حصل عليه، أصيب بالحيرة والارتباك بسبب امتداد عالم رمزي في منتهى التعقيد لا يستطيع أن يشرحه لسوتا مطلقًا.

لكنه كان تدريجيًا ينجذب بشدة إلى ذلك الكتاب كمتعة له هو شخصيًا.

طبقًا لأوفيد، وُلد نركسوس من اغتصاب عنيف من كينيسيا إله الأنهار للحورية ليريوني التي تسكن في الماء الأزرق بعد أن تدفق وحبسها داخل الماء وهو ينساب في تيار متعرج. اندهش كيدو عندما عرف لأوّل مرة سر ولادة نركسوس تلك، وإن كان الأمر كذلك، سيختلف تمامًا معنى رؤيته للماء وقتًا طويلًا عن مجرد أنه حب للذات.

بمعنى أن الماء هو والداه أنفسهما، وفي الوقت نفسه الماء هو ما حدث بين والديه، بل كان اغتصابًا مذمومًا. ولم يكن ليولد في هذا العالم إن لم يكن لذلك العنف وجود. لم يستطِع نركسوس أن ينظر إلى نفسه من دون النظر إلى طريقة ولادته تلك. ثم في كل الأحوال لم يكن يستطيع أن يجعل ذلك الماضي كأنه لم يكن، ولا يستطيع أن يتعامل معه أو يرجع إليه ثانية.

أسطورة نركسوس هي بالتأكيد قصة حب. يتحرق دومًا من الشوق والحب تجاه ذاته. لكن كانت مَن تحبه هي الحورية إيكو (الصدى) التي تقيم في عالم مختلف تمامًا وسط الجبال.

الإلهة يونور جعلت إيكو لا تستطيع إلا أن ترجِّع وتكرر نهاية كلام محدثها فقط.

ملخص الحكاية كما يلي:

نظر نركسوس إلى انعكاس صورته فقط، فلم يستطِع إلا أن يحب نفسه. وبالنسبة إلى إيكو، تكرر فقط صدى صوت الآخرين ولا تستطيع أن تجعل مَن تحبه يتعرَّف على وجودها.

نركسوس المنغلق على عالمه فقط، وإيكو التي أُبعدت خارج هذا العالم. لكن استطاع هذان الاثنان المنعزلان تبادل تحية الفراق بقول «وداعًا» بعد أن استجابا بعضهما لبعضٍ بالنواح بكلمة «آه».

تُرى هل ابتهج نركسوس المسكين في النهاية عندما سمع فتى حبه العبثي

يردد النحيب نفسه فوق سطح الماء؟ وماذا عن إيكو؟ ألم تصرخ بتلك الآهات وكلمات الوداع بالأصالة عن نفسها حقًّا، بقدر ما كانت كلمات حبيبها نركسوس في الوقت نفسه؟

كان كيدو يفكر في ماكوتو وهو يقرأ الجزء الذي يصرخ فيه نركسوس عندما انتبه لانعكاسه على سطح الماء قائلًا: «آه، لو أستطيع أن أفلت خارج هذا الجسد!»، لو كان ذلك ممكنًا لاستطاع نركسوس أن يحب نفسه. ويُفترض أن ماكوتو كان بالتأكيد يريد أن يهرب من جسده، ويصبح شخصًا مختلفًا غير نفسه، يُحِب إنسانًا آخر، ثم يُحَب من ذلك الإنسان. ألم تكن الرغبة في أن يصبح إنسانًا آخر، أن يستطيع في النهاية أن يحب نفسه؟ نفسه التي يُفترض أن وجودها بدأ في هذا العالم في الأصل مع اسم «ماكوتو هارا»؟

عبرت أشعة الشمس التي تنصب من النوافذ الجنوبية للطائرة الممر، وانصبت على وجه كيدو بإضاءتها الشديدة. ثم حجزت مضيفة الطائرة تلك الأشعة فطلب منها كيدو قهوة. نزع غطاء الكوب البلاستيكي وارتشف منها وهو يشم عبقها، ثم واصل التفكير متأملًا جناح الطائرة الذي يهتز اهتزازات دقيقة، ومتأملًا السماء الزرقاء خارج النافذة.

كتاب «التحوُّلات» وكما يشير العنوان يحتوي على حكايات عجيبة لتحولات متنوعة وعديدة، لكن في النهاية لم يستطِع كيدو اكتشاف الإجابة عن سؤال سوتا الطفولي الساذج؛ لماذا تتحوَّل الكائنات من الأصل؟

تذكر كيدو فايثون المسكين الذي لم يستطِع أن يقود عربة الأحصنة الذهبية لأبيه إله الشمس وقادها قيادة متهورة وكأنه يحرق العالم كله، ثم مات بعد أن اخترقته صاعقة جوبتر. وأخواته بنات الشمس هيليادس حزِنَّ وبكينَ لموته، واستمر عويلهن وفي النهاية تحوَّلن إلى أشجار تاركات دموعهن كهرمانًا جميلًا.

والبطل أكتايون بمجرد فقط أنه رأى مصادفة إلهة الغابات ديانا وهي

تستحم باء بغضبها الشديد فتحوَّل إلى وعل، لتقتله الكلاب التي يربيها من دون أن تنتبه إلى أنه مالك القطيع.

وأبوللو الذي رشق فيه سهم كيوبيد، وهو يلاحق دافني التي لا تعرف معنى الحب، فتكره جمالها وتتحوَّل إلى إكليل غار.

وهكذا وهو يمرر على ذهنه تلك الأساطير التي يتذكرها بلا ضابط ولا رابط كان كيدو يفكر، ليس في ماكوتو هارا فقط، بل في كل هؤلاء الناس الذين بدَّلوا هوياتهم بوساطة من أوميورا. ألم يكن هؤلاء الناس مضطرين إلى التحوُّل إلى ذوات مختلفة عن ذواتهم بعد أن غرقوا في أقصى درجات الحزن، أو بعد أن طُردوا وحُوصروا أو فقط بعد أن أجبروا على ذلك! فمنهم من أصبح سعيدًا بسبب ذلك بعد أن عثر على مَن يحبه، ومنهم مَن خاض تجربة أكثر انهيارًا وسقوطًا.

اقتربت ميازاكي، وبدأت الطائرة تقلل من ارتفاعها، فزادت الغيوم وكأن الطقس الصحو الرائع الذي استمر منذ الإقلاع من طوكيو كان كذبًا. تضرب قطرات المطر زجاج النافذة ثم تجري تاركة آثارها في شكل خطوط رفيعة.

وبعد الهبوط، كان الطقس ممطرًا مطرًا خفيفًا، لكن درجة الحرارة لم تكن منخفضة.

ومثل المرة السابقة، استأجر كيدو سيارة من مكتب تأجير سيارات في المطار وذهب إلى الفندق وأنهى إجراءات استلام الغرفة، وتناول وجبة الغداء.

لقد كان موعده مع ريئه في اليوم التالي. والتقرير نفسه أرسله إليها بالفعل من خلال إرفاقه مع رسالة بالإيميل، لم يكن يريد فقط أن يقابلها ويشرح لها مباشرة، لكنه كان يريد أن يزور هذه الأرض مرة ثانية مهما كلف الأمر. كان ينوي بذلك أن يحسم أمره وينهي عمله.

وكان أيضًا على موعد في عصر يوم وصوله مع مالك شركة إيتو للغابات التي كان يعمل بها ماكوتو هارا.

كان كيدو يريد فقط أن يرى المكان الذي كان يعمل به ماكوتو. بعد أن طلب من ريئه أن تعرِّفه على مالك الشركة، في البداية اتخذ المالك موقفًا حذرًا وسأله عن سبب اللقاء، فبدلًا من اختلاق سبب أكثر وجاهة ربما يكون على العكس مثيرًا للارتياب، قال له بصراحة إن «لديه اهتمامًا بصناعة الغابات». يبدو أن السيد إيتو قد اطمأن لذلك وقرر أن يرشده إلى غابة قطع الأشجار في الجبال.

قال إنه لا يمكن الذهاب إلى موقع العمل إلا بسيارة ذات دفع رباعي، ولذلك جعل مكان اللقاء في مرأب فرع بلدية مدينة ميازاكي في حي كيوتاكيه ومن هناك يركب كيدو مع السيد إيتو في سيارته.

نزل من السيارة التي استأجرها في مرأب البلدية، فنادى عليه رجل يمسك مظلة سوداء اللون، متين الجسد قصير الشعر إلى درجة تقترب من الصلع ويضع على عينيه نظارة شمس خفيفة، قائلًا:

- هل أنت السيد كيدو؟

أعطى له كيدو بطاقة الاسم وألقى عليه التحية، وأعطاه الهدية التي جاء بها من طوكيو فقال له:

- شكرًا للطفك.

وهو في حرج بالغ. كان لصوته صدى قوي يخرج من أعماقه.

قال إن موقع العمل في الجبال على بُعد أربعين دقيقة من مكان وقوفهما، وقال إنه ليس المكان الذي توفي فيه ماكوتو، لكنه مكان يشبهه ولا يبعد عنه كثيرًا.

في أثناء الطريق شرح له كيدو بإيجاز مرة ثانية أنه في أثناء مساعدة ريئه في معالجة ميراث السيد دايسكيه تانيغوتشي بناءً على طلبها، بات مهتمًّا بمجال قطع الأشجار من الغابات، وأنه في أثناء عمله يقابل موكلين يعملون في أنواع متعددة غير مألوفة ونادرة، وأنه في كل مرة ينتهز الفرصة لزيادة معارفه في مجالات مختلفة. كانت ملامح وجه إيتو لا توضح هل هو يتفهم ما يقوله أو لا يتفهمه، لكنه كان يوافقه بمشاعر مريحة بالقول: «أوه، أحقًّا هذا؟!». كان

كيدو قد اعتاد بالفعل على أن يُسمِّي زوج ريئه باسم «ماكوتو هارا»، لكنه ما زال يُعرف بين أهل هذه المنطقة باسم «دايسكيه تانيغوتشي».

كان إيتو بوجه جامد يميل إلى السمار، لكنه كان إنسانًا محببًا وصريحًا ومحبًّا للحديث. وكان يشغل راديو «إف إم» بصوت منخفض وتحدث في البداية حديثًا عامًّا عن صناعة الغابات وكأنه يستطلع درجة اهتمام كيدو.

قال إن شركة إيتو للغابات اشترت حق قطع الغابات المملوكة للدولة على نحو أساسي، وعرَّفه أن مساحة خمسة هكتارات ينتهي قطعها في ثلاثة أشهر، وأن لدى الشركة عملًا حتى عامين قادمين. وهي صناعة قائمة على الحصول على الدعم الحكومي، والمنافسة حامية مع الأخشاب المستوردة، لكن مع إنشاء محطات توليد بالطاقة الحيوية باتت الشركة تستطيع بيع أي نوع من الأشجار، ولذا فحالة الشركة الاقتصادية ليست سيئة.

- ربما الأمر يهمك بوصفك محاميًا، في الفترة الأخيرة دخلت المجال شركات جديدة رديئة السمعة، وبينها مَن يسرق الغابات ويفعل أفعالًا لا يمكن تصديقها.
- أحقًّا هذا؟!
- إن الجبال مكروهة حتى في الميراث، لذا زاد أصحاب الحقوق زيادة مطردة وهائلة، فهناك العديد من الغابات هنا وهناك لا يُعرف مَن الذي يملكها. الشركات السيئة تشتري حق مساحة صغيرة بجوار مثل تلك الأماكن، ثم تقطع أشجار كل تلك المنطقة التي لا يُعرف مَن مالكها على وجه التحديد.

كان إيتو يحكي كأنه يقول: «حديث شائق، أليس كذلك؟»، فقال له كيدو من دون وعي وهو يضحك:

- هذا فعل شنيع.
- إنها أيضًا مشكلة المجال كله. يجب علينا حلها بطريقة أو بأخرى. شركتنا أيضًا من أجل التأكد من ملاك الجبال القديمة، نتحقق من سجل

الهويات، لكن تتوزع الملكية وتنقسم بين أفراد عديدين، ويصبح الأمر في غاية التعقيد.

- هذا طبيعي.

فكر كيدو أن عبارة «نتحقق من سجل الهويات» يقصد بها «نتحقق من سجل الملكيات»، لكنه تعمد ألا يقول له ذلك. لكن الأكثر أهمية من ذلك هو اهتمامه بـ«هل تحدَّث ماكوتو هارا قبل موته مع إيتو عن هذا الحديث أم لا؟».

قلَّ عدد المساكن المحيطة تدريجيًّا وباتت متناثرة، وفي النهاية دخلا طريقًا جبليًّا غير معبَّد تحيط به الأشجار العالية.

- سوف تهتز السيارة قليلًا. البيوت التي مررنا بها منذ قليل تكون في العادة بيوت حطَّابين منذ قديم الزمان.

- أحقًّا هذا؟!

لا يعتقد كيدو أن السبب هو أنها منطقة جبلية، لكن بدأت الأمطار تشتد وتسارعت حركة مسَّاحات السيارة. غطت الأشجار المنطقة الأمامية لكن كان ما فوق الرأس منفتحًا، فكانت الأشعة تنير المكان، ومن حين إلى آخر تدغدغ الزجاج الأمامي أغصان لأشجار برية منخفضة القامة، وكلما اهتزت السيارة تخفق تحت عجلاتها أجنحة مياه الوحل وكأنها قد اندهشت. كان ثمة إحساس بالمغامرة في الاهتزازات التي يصل تأثيرها إلى أردافه.

لا يمكن رؤية إلا أطراف أقدام أشجار الأرز الممتدة إلى أعلى في خط مستقيم من النافذة المبللة بمياه الأمطار وهي تبرز عالية وسط الضباب. يُفترض أن لا شيء في نهاية تلك الأشجار إلا السماء فقط، لكن لا يمكن رؤيتها اليوم بسبب الضباب، ولأن السيارة تسير في طريق شديد الانحدار.

كان الطريق متعرجًا تعرجًا كبيرًا، وعندما ينفتح مجال الرؤية أحيانًا يُرى على مسافة بعيدة في الأسفل الطريق الذي يُفترض أنهما مرا عليه منذ قليل. ولم يكن يتوقع أنهما صعدا إلى ذلك الارتفاع العالي.

- هل يستمر العمل حتى وسط المطر؟

- إن كان بهذه الكمية. لو كانت أمطارًا شديدة نوقف العمل لأنها تسبب وقوع حوادث. ونعود مبكرًا عن الموعد المحدد.

تذكر كيدو فجأة أنه سمع أن المرة الثانية التي زار فيها ماكوتو محل الأدوات المكتبية الذي تعمل فيه ريئه كان الجو ممطرًا. على الأرجح ذلك اليوم إما كان عطلة وإما أنه أنهى العمل مبكرًا بسبب الأمطار.

- انظر! منطقة عمل مثل هذه مرفوضة. ألا ترى أنها قذرة؟ بعد الانتهاء من قطع الأشجار. لو أنها شركتي فلا يمكن أن نتركها هكذا بتاتًا. لأننا نعيد تنظيف المكان كاملًا كما يقول المثل: «الطائر لا يعكّر الماء الذي تركه». لقد أصبحنا على وشك الوصول.

- من المؤكد أن الطريق يصير مخيفًا في هذه الناحية عند الظلام. فالطريق ضيق، عندما تأتي سيارة في الاتجاه المقابل مثلما حدث منذ قليل.

- لكن هذه المنطقة ما زالت أفضل من غيرها. فثمة أماكن أكثر وعورة. فأنا لا أشتري مناطق يصعب الوصول إليها. فالحوادث مرعبة، وتكون الفاعلية سيئة تؤدي في النهاية إلى أن تصير الأرباح قليلة.

- مفهوم.

ثم بعد أن صمت إيتو فترة همس فجأة:

- لقد تسببتُ في مصير مؤلم للسيد تانيغوتشي. حتى الآن أذكره كل صباح وأُصلي من أجله أمام المذبح البوذي. لأنني منذ أن ورثت هذه الشركة من أبي لم يسبق أن وقعت حادثة كبيرة ولو مرة واحدة حتى الآن. إنها حادثة مؤلمة حقًا. في ذلك الوقت طُلب مني من شخص لا أستطيع رفض طلبه العمل في مكان بظروف سيئة.

- أحقًا هذا؟! هل حوادث العمل كثيرة في مجال قطع الغابات؟

- أجل. كثيرة بما لا يُقارن. فهي واحد في كل مائة. ليس في أثناء عملية القطع فقط. ولكن تسقط الآليات من فوق المنحدرات. وأيضًا هناك الثعابين والدبابير.

– آه، بالتأكيد ثمة مثل تلك الحوادث.

– في أثناء عهد جدي جاء عمَّال كوريون أيضًا للعمل.

بدت الدهشة على وجه كيدو لهذا الحديث الذي لم يكن يتوقعه. لكن لم ينتبه إيتو لذلك ولم يواصل ذلك الحديث.

– ما الظروف التي وقعت فيها حادثة السيد تانيغوتشي؟

– لم أكن موجودًا في الموقع. من الصعب توقُّع اتجاه سقوط الأشجار، مهما كان العامل خبيرًا وذا باع طويل في العمل لا يستطيع توقعه في بعض الحالات. خصوصًا الأشجار كثيرة الالتواءات من السهل أن تشتبك بها. في كل الأحوال أنا كل صباح أحذِّر العمال حتى يجف حلقي من وقوع حوادث.

أومأ كيدو إيماءة قصيرة، وانتظر حتى يهدأ مزاج إيتو قليلًا. كان صوته كئيبًا وشعر كيدو بأن دموعه تنساب، لكنه تعمَّد ألا ينظر إلى وجهه.

حالة مدير صالة الملاكمة نفسها، الذي كان على علاقة قوية مع «ماكوتو هارا» باسمه الحقيقي، شعر كيدو من أعماق قلبه بأن ذلك الموت كان سببًا لحزن عميق لهؤلاء الذين كانوا على علاقة صداقة أو معرفة معه. ولم يكن هناك شخص واحد يسيء القول فيه. وعرف كذلك بوجود جرح مستمر باقٍ في قلب كل واحد منهم.

بعد وقت قصير، لاحت في المقدمة سيارة نقل واقفة وبدت الأشجار التي قطعت متراكمة وعليها مشمع أزرق. قال إيتو:

– هذا هو الموقع.

ثم أوقف السيارة بمهارة شديدة في مكان بحيث يمكن للسيارات المقابلة أن تمر.

بعد أن نزل من السيارة وفرد المظلة قاد كيدو إلى مدخل الموقع.

– من الخطر الذهاب إلى عمق المكان لذا أرجو منك الحذر، هل لا تمانع من البدء من هذا المكان فقط؟

ثمة مكان مفتوح قطعت فيه الأشجار بحيث تستطيع سيارات النقل الدخول والخروج، وفي عمقه آلية تشبه الرافعة بعنق برتقالية طويلة، تحمل الأشجار واحدة بعد واحدة إلى أعلى ثم تسقط منها الأغصان. ويمكن رؤية ثلاثة عمَّال تقريبًا. وعند النظر إلى منطقة أعمق تواصلت أرض مسطحة قطعت منها الأشجار، لكن لم يكن ثمة شيء بعدها. يبدو أنها بعد ذلك تصبح منحدرًا مائلًا بزاوية شديدة الميل.

- ما عمر الأشجار تقريبًا؟
- نحن نقطع الأشجار التي عمرها خمسون سنة تقريبًا. وبعد ذلك تتحوَّل إلى أخشاب ثم إلى بيت لتعيش خمسين سنة أخرى. ولذلك أنا أرى أن عمر الشجرة الواحدة مائة سنة تقريبًا. خمسون بين الجبال وخمسون بين البشر. وأقول ذلك للعمَّال.
- مفهوم. مائة سنة!
- آه، هنا، احترس! أجل هناك. لا نقوم بأعمال القطع في طقس مثل اليوم بهذه الحال، لكن يكون العمل فقط كما ترى. مجال الغابات أيضًا أصبح اليوم مُميكنًا، أي نعم ما زالت المعاناة من الحر والبرد، لكن أصبح العمل البدني أريح كثيرًا. لكن بالطبع ما زال القطع نفسه مرهقًا.
- هل كان السيد تانيغوتشي أيضًا يستخدم الآليات؟
- أجل عمل عليها. في هذا العمل يصير العامل قادرًا على كل شيء خلال ثلاث سنوات. إننا نأخذ دعمًا من الدولة لتعليم العمَّال لأنها صناعة «عمالة طويلة الأمد»، لكن تانيغوتشي تعلَّم كل الأعمال خلال عام ونصف العام فقط. كان إنسانًا مجتهدًا وجادًّا، وقدرته على إصدار الأحكام كانت صائبة. كان يميل إلى النحافة لكن كان يملك لياقة بدنية عالية.
- هل كان يمارس رياضة ما؟
- كلَّا، يبدو أنه لم يكن يهتم بالرياضة على الإطلاق. وقال إنه مارس

الكندو في طفولته، وفي الواقع أنا أيضًا أحمل درجة في الكندو، وكنتُ أقول له إذن يجب أن نتبارز في وقت ما، لكنه كان يضحك فقط.

أومأ كيدو مبتسمًا تجاه إيتو الذي يتحدث بشوق وحنين. ويُفترض أن الكندو كان الرياضة التي تعلمها دايسكيه تانيغوتشي الحقيقي في طفولته. ولقد اندهش كيدو من دون أن يُظهر ذلك أن ماكوتو بدَّل ماضيه تمامًا حتى من دون أن يُعدِّل مثل هذه التفاصيل الدقيقة.

– لقد كان يرسم كثيرًا. في راحة الغداء مثلًا، لكنه لم يكن بارعًا.

قال إيتو ذلك ثم ضحك.

– لقد أطلعتني السيدة زوجته على رسوماته تلك.

– حقًّا! لوحات بسيطة وصريحة تنم عن شخصيته تمامًا. يبدو أن مثل هذه الصفات المولود بها المرء تظهر تلقائيًّا.

– أجل.

– أعتذر إليك، ألو! مرحبًا بك! اليوم السابق! أجل.

غادر إيتو المكان لمواصلة التحدث في الهاتف، فظل كيدو فترة وحيدًا يتأمل أشجار الأرز العالية المبللة بماء المطر.

هدوء شامل. صفا صوت تنفُّس كيدو بين صوت ضرب حبات كبيرة من المطر للمظلة وكأنها كرات، وبين ضربها للأرض.

يتغلغل ضباب أبيض بالخضرة ويحيط بها بخفوت بين أشعة الضوء التي تخترق الغيوم. تستمر الجبال المتسلسلة في شرود وكأنها صفحات يُطبَّق بعضها فوق بعض.

على الأرجح أن الطقس سيستمر هكذا طوال اليوم.

غرق كيدو في التفكير وهو يتخيل ما الذي كان يفكر فيه ماكوتو وهو يمسك المنشار كل يوم في هذا المكان ويقطع الأشجار!

فكر في أن شجر الأرز يستغرق خمسين سنة لينمو، ثم بعد ذلك خمسين سنة أخرى، تُرى هل كان ماكوتو يفكر بوعي في هذا الأمر الذي تحدث عنه

إيتو قبل قليل. إن مَن زرع هذه الأشجار أجيال سابقة عليه، ومَن سيقطع الأشجار التي زرعها أجيال لاحقة؟!

في وسط ذلك الزمن، تُرى كيف كان ينظر هو إلى الزمن منذ أن وُلد إلى أن وصل إلى هذا المكان؟ ألم يكن كل ما يسيطر على تفكيره أنه يريد فقط الانتهاء سريعًا من العمل والعودة بجسده الذي أنهكه العمل المضني طوال اليوم لينام بجوار طفليه ويشعر من أعماق قلبه بأنه سعيد الآن! ولأن المعاناة التي عاناها قبل الوصول إلى هذه السعادة لم تكن عادية قَطُّ، من المؤكد أن شعوره هذا كان شديدًا وواقعيًّا.

شعر كيدو بنشوة هائلة كادت تُنسيه نفسه تمامًا. وعندما أغمض عينيه، توقف الزمن في هدوء، وظل ينتظر طويلًا في صمت من دون أن ينطق حرفًا وهو مطأطئ الرأس تحت المطر.

تُرى كم مضى من وقت وهو على تلك الحالة؟

وعندما فتح عينيه مرة ثانية، رأى عاملًا يمشي في الموقع بعيدًا والمطر يبلله تمامًا وظن لأوَّل وهلة أنه ماكوتو.

فكر كيدو لو كان ماكوتو موجودًا هنا حقًّا، ما الكلمة التي يمكنه أن يقولها له؟

في نهاية محاولتين للانتحار، لكي يستطيع أن يعيش من جديد، عاش حياة شخص آخر. كان يريد أن يقول له إنه يتفهَّم مشاعره تلك!

«لقد كنت أبحث عنك طويلًا، وأنا في منتهى القلق عليك!».

تخيلت عينا كيدو أن ماكوتو توقف فجأة واتجه نحوه وهو يبتسم. وشعر لأوَّل مرة بأنه يراه من الأمام وجهًا لوجه بعد أن ظل يلاحق ظهره طويلًا ولا يرى إلا جانب وجهه فقط.

ومن العجيب أنه لم يفكر في ذلك من قبل! لكن شعر كيدو بأنه إنسان كان يتمنى أن يلتقي به ولو مرة واحدة!

٢٢

بعد ثلاثة أيام من لقاء ريئه مع المحامي أكيرا كيدو، أبلغت ابنها يوتو الذي زادت مؤخرًا فترات انعزاله في غرفته يقرأ الكتب، أنها تريد الحديث معه بعد انتهائه من الاستحمام.

كانت قد انتهت هي وهانا من الاستحمام معًا، وسمعت منها أن إحدى أسنانها الأمامية تهتز وعلى وشك السقوط وهي تشعر بمزيج من الخجل والفرح.

- هذا رائع! أريني إياها. آه حقًا! لكن أليس هذا مبكرًا؟ هل هناك مثلك في الفصل؟

- أجل في فصل الحَمَام، كانت هينانو فقط. تعرفين يا أمي اليوم كنت أريد أن أنادي على هينانو، فأخطأت وقلت لها يا هينونو! وضحكت عليّ الأستاذة هاشيموتو! يا لي من غبية!

كانت هانا مؤخرًا معجبة بعبارة: «يا لي من غبية!» تلك وترددها كل يوم تقريبًا. وفي كل مرة كانت ريئه تقول لها: «أنتِ لستِ غبية!»، ثم تمسح على رأسها. لكنها شعرت بأنها ربما تقول لأمها ذلك لكي تفعل ما تفعل وتمسح على رأسها.

والجملة التي كانت ترددها دائمًا حتى ستة أشهر مضت وهي «إن هانا تعتقد الآتي» أصبحت مؤخرًا لا تسمعها منها مطلقًا. كان النمو يجعل ابنتها تتغير تغيرًا يثير الارتباك، وكانت لا تتذكر حتى كيف كانت قبل عام من الآن! كانت الذاكرة

مبهمة إلى درجة أنها هي نفسها تعجبت من ذلك! بالطبع كان لديها ما ينم عن شخصيتها، لكن كان ذلك صفات عامة لكل الأطفال ومن الصعب تحديدها.

ومع ذلك، كان ما ينقذ ريئه هو أن هانا تضحك كثيرًا. وبسبب رحيل والدها المبكر كانت ريئه قلقة بصفة خاصة من مرح هانا، لكنها عندما تقابل أي مربية في روضة الأطفال كانت تقول لها المربية: «إن هانا دائمة الضحك والنشاط». وأحيانًا تقول المربيات لها إنها أكثر الأطفال مرحًا في فصلها. وكان ذلك أكثر ما يسعدها.

انتهى يوتو من الاستحمام في الساعة العاشرة تقريبًا. كانت هانا بالطبع قد نامت بالفعل وكذلك الجدة، وبقيت ريئه وحدها في غرفة المعيشة. كان يوتو الذي ارتدى ملابس النوم يحاول المرور من أمامها والذهاب إلى غرفته بلا مبالاة، فقالت له:

– توقف! ألم أقُل لك إنني أريد الحديث معك؟ انتظر!

– ماذا؟

بدا على يوتو الضجر، لكنها كانت تفكر مؤخرًا أنه ربما من الأفضل أن يُظهر مشاعره الحقيقية هكذا، فقد كان قلقها أن تتعقد حالته وتشتبك إلى درجة لا يمكن حلها قبل أن تنتبه لذلك، بسبب ظروفه الصعبة تلك التي تحمَّلها وحيدًا. وشعرت بأنها يجب عليها أن تتحمَّل بمفردها تمرد المراهقة بديلًا عن زوجها الذي انفصلت عنه وزوجها المُتوفى.

جلس يوتو على المقعد بعد أن لاحظ من ملامح والدته شيئًا.

– ماذا؟

– قبل ثلاثة أيام جاء المحامي الذي ظل من العام قبل الماضي يبحث عن والدك، وعرفت أخيرًا كل شيء. ولماذا غيَّر اسمه!

نظر يوتو إلى الأوراق التي في يد أمه مقلوبة على ظهرها. كانت ريئه منذ فترة تمسك طرف تلك الأوراق وتكوِّرها من دون وعي منها.

- مَن كان؟
- إن أمك حائرة إلى أي مدى يمكن أن أخبرك؟ ولذا فكرت أن أسألك وتقرر أنت بنفسك. هل تريد أن تعرف كل شيء؟ أم من الأفضل تأجيل ذلك إلى وقت آخر؟
صمت يوتو فترة، ثم سأل:
- هل فعل أبي شيئًا سيئًا؟ شيئًا يمكن أن تقبض عليه الشرطة بسببه؟
هزت ريئه رأسها:
- شيء بسيط جدًّا. غيَّر اسمه فقط.
- والسبب؟
- كل شيء مكتوب هنا. كتب لنا المحامي كل شيء.
- إذن سأقرأ.
- ربما، كيف يمكنني قول ذلك؟ ربما تصاب بصدمة شديدة. إن أمك حتى الآن لا تستطيع التعافي من الصدمة.
- ما من صدمة أكبر من موت ريو، ثم موت أبي!
مد يوتو يده لها وأخذ الأوراق التي جمَّعها كيدو وقلَّب فيها سريعًا للتأكد منها، وكأنه يقول كمية كبيرة على غير المتوقع. ثم قال:
- سأقرأها في غرفتي بالطابق الثاني.
وذهب إلى غرفته في الطابق الأعلى. وحاولت ريئه أن تتعرَّف على مشاعر ابنها من خلال صوت قدميه وهو يصعد درجات السلالم الخشبية.
بعد أن اخشوشن صوته، بدأت مؤخرًا تنبت له لحية خفيفة، فأخرج من مكان ما ماكينة الحلاقة الكهربائية التي كان والده المُتوفى يستخدمها وبدأ يستخدمها استخدام المبتدئين. كان الشعر المتبقي في تلك الماكينة مفيدًا في إجراء فحص الجينات الوراثية.
فكرت ريئه بقوة أنه يُفترض أن يزيد الشيب عندها وهي تنظر إلى سرعة نمو جسم ابنها.

لقد عانت وهي تفكر في ضرورة إخباره بنتيجة البحث الذي وصل إليه كيدو. لكن لأنها كانت أبلغته بالفعل أن الاسم مزيف، لم يكن هناك مفر من التحدث إليه بدرجة ما.

وعلاوة على ذلك كانت ريئه ترى أنه لو كان طفلًا آخر من أطفال عمر الرابعة عشرة فربما يختلف الأمر، ولكن بالنسبة إلى يوتو من الأفضل التحدث إليه بكل شيء من دون إخفاء.

كانت تبذل كل جهدها مؤخرًا لكي تتوقف عن معاملته معاملة الأطفال.

السبب الأول بيئة الأسرة كونها بلا عائل ذكر، كانت تخشى بجدية أن يصاب يوتو بعقدة الأم، ويصبح «ابن أمه». وكان يبدو أن الابن يقلق من الأمر نفسه بعد أن أصبح في مرحلة المراهقة، وكان ذلك سبب عدم قدرته على معرفة المسافة التي يجب أن تكون بينه وبين أمه.

وربما في هذا الموقف كان من الأسهل عليها أن تعامله على العكس معاملة الأطفال حتى النهاية. لأنه إن لم يكن طفلًا فسيكون الوضع أنها تعيش في بيت واحد مع ذكر ناضج وفي حالة غياب الأب سيزداد إحساسها ذلك أكثر فأكثر.

لكن عندما انتبهت إلى أن في داخل ابنها جزءًا لا تستطيع أن تفهمه هي، جعلها هذا تفكر في ضرورة تعديل نظرتها إلى يوتو. لم يكن ذلك شيئًا لا تفهمه بل مجرد أنه شيء لا تعرفه فقط. ثم اندهشت من أن ابنها في غفلة من الزمن يواصل التشكُّل ليصبح إنسانًا مختلفًا عنها تمامًا، ثم شعرت بالفرحة، وأصبحت تعتقد أنها يجب أن تحترمه على أنه إنسان كامل الأهلية.

بالطبع قالت له ما يجب أن يقوله أقرب الناضجين له، لكنها توقفت عن نبرة التحذير، وباتت تحاول أن تشرح له ما يقلقها تجاهه.

كان سبب تغيُّر قلب ريئه هو حماس يوتو في قراءة الأدب.

لقد قرأت «حدائق أساكوسا» لريونوسكيه أكوتاغاوا التي أخبرها بها ابنها يوتو في حديقة المقابر الأثرية، فغرقت في تفكير عميق. يبدو أنه سيناريو فيلم

قصير، لكن محتواه وكأنه حلم مقلق كُتب بطريقة سريالية، إذ إن اللافتات تصبح فجأة «رجل إعلانات» وصندوق البريد الدائري يصير شفافًا ليُظهر ما في داخله من خطابات، مما فاجأ ريئه غير المعتادة على قراءة الأدب. وما جعل عينيها تتسعان من الدهشة أن القصة ذاتها تدور حول صبي في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر يذهب مع والده إلى أساكوسا ثم يتوه منه فيدور بحثًا عنه في قلق.

وفي النهاية يجلس الصبي فوق قنديل حجري ويُخفي وجهه بيديه ويبدأ بالبكاء. لكن في ذات الوقت، في مكان لا يدري عنه الصبي شيئًا، يتحول رجل إلى أبيه الذي تاه عنه في غفلة منه، يمتلئ وجهه بابتسامة تُعطي شعورًا بأنه شرير، ويرتدي كمامة على وجهه، الذي ظن منذ قليل أنه والده الذي تاه عنه.

لم تستطِع ريئه فهم معنى تلك القصة بأكملها. لكن في المشهد الذي يبدأ فيه ذلك الطفل بالبكاء، بكت معه هي أيضًا لا إراديًا. ليس لأنها اعتقدت أن ذلك الطفل تعيس يستحق الرثاء، لكن انسابت دموعها لأنها تخيلت أن يوتو قرأ ذلك المشهد وهو يشارك الصبي مشاعره الوجدانية. إن يوتو مؤخرًا لا يشتكي مطلقًا بالقول إنه يعاني أو إنه يشعر بالوحدة، لكنه من المستحيل ألا يكون كذلك.

وما أثار دهشتها أكثر أن يوتو كان يقرأ تلك الحكاية قبل أن تخبره أن والده ليس «دايسكيه تانيغوتشي».

تُرى هل كانت مصادفة؟ أم أنه شعر بشيء ما من دون أن تعرف هي؟

لقد كتمت ريئه أنفاسها وهي تقرأ الجملة المفاجئة التي تقول: «أسرع! أسرع! فربما تموت في أي وقت!»، بل ولم يقُل يوتو لها إن تلك الحكاية هي لصبي ينفصل عن أبيه بل ذكر الحوار العجيب بين الصبي وزهور الزنبق الأرقط فقط.

لكن مع ذلك ألم يكن يريد أن تعرف أمه أنه يقرأ تلك الحكاية؟

لم تكن ريئه متأكدة من فهمها لمحتوى الحكاية ذاتها، لكن من خلال رغبة يوتو في أن تشاركه أمه بطريقة ملتوية في الكلام، تعاطفًا وجدانيًا، باتت تستطيع فهم ابنها بوصفه إنسانًا فهمًا أعمق بكثير من السابق. على الأقل أن

تعرف عمق ما في داخله، ومع ذلك من العجيب أنها استطاعت الاقتراب من قلبه من خلال كتاب واحد فقط مع أنها تتعامل معه مباشرة كل يوم.

تحترم ريئه منذ زمن بعيد الأشخاص كثيري القراءة، لكن من سوء الحظ لم تكن تحمل ذلك المؤهل قَطُّ، وليس هي فقط بل كذلك زوجها السابق وزوجها الراحل. بمعنى أن يوتو صار كذلك في غفلة من الزمن بوصفه إنسانًا يختلف عن والده وكذلك عن والدته. المؤكد أن سبب ذلك هو الظروف التي أحاطت به وشعرت ريئه بأن ذلك أمر جميل جمال الوردة التي تنبت في غفلة من الزمن وسط حطام الأطلال.

لقد بات قليل الكلام مع أفراد الأسرة، لكن مقابل ذلك يبدو أنه يواظب على كتابة نوع من الأدب في مفكرته. كانت ريئه بالطبع مهتمة بما يكتب، لكنها خافت أن تتسبب قراءتها لها من دون علمه في جرح ثقة ابنها فيها جرحًا لا يمكن علاجه مرة ثانية، وقررت بحسم ألا تقترب منها.

ثم بعد فترة وجيزة من ذلك ومن دون أن تضطر إلى قراءتها خلسة استطاعت ريئه أن تتعرَّف على طرف مما يريد يوتو التعبير عنه بالكتابة.

في خريف العام الماضي، فاز شعر الهايكو الذي قدمه واجبًا لعطلة الصيف في مسابقة أقامتها إحدى الجرائد بجائزة أفضل عمل بين طلاب المدارس المتوسطة في اليابان كلها، وأعطيت له شهادة ودرع بذلك.

ظل يوتو يكتم عنها حتى ذلك الخبر فترة، لكنها عثرت على الدرع الكبيرة التي تسلمها ملقاة في غرفته بإهمال فعرفت بالأمر بعد فترة طويلة من حدوثه.

كان شعر الهايكو كما يلي:

صوت الزيز

يتردد صداه

بقوة

داخل الشرنقة!

لم تستطِع ريئه أن تقيِّم بنفسها جودة ذلك الشعر. لكن كان من الصعب عليها أن تُصدق أن يوتو هو الذي ألَّفه. وفي مسببات الفوز التي أراها لها بعد ذلك وهو متكاسل، ثمة تلميح إلى الصعوبة بالقول: «المباهاة بالموهبة تُشعر بالنفور»، لكن من جهة أخرى ثمة عبارة غير متوقعة تقول: «موهبة نضجت مبكرًا»، وفي كلمة الفائزين كتب يوتو الشرح الآتي بنفسه:

> عثرت وسط أشجار الكرز في حديقة المقابر الأثرية، على شرنقة تقف لحشرة زيز.
> وفوق الشجرة نفسها عدد من حشرات الزيز تصرخ زاعقة!
> أصغيتُ بأذنَي لكي أحدد أيًّا منها التي خرجت من هذه الشرنقة. ثم تخيلت كيف تستمع الشرنقة نفسها إلى صوت الزيز الذي ظل معها لمدة سبع سنوات داخل الأرض.
> ثمة شرخ في ظهر الشرنقة، عندما نظرتُ إليه بإمعان شعرت وكأنه فتحة الصوت في آلة الكمان.
> ثم بدت لي الشرنقة وكأنها بأكملها آلة موسيقية تردد صدى الصوت، ولذلك فكرتُ في كتابة ذلك الهايكو.

لم يشِر يوتو قَطُّ إلى موت أخيه أو موت أبيه. لكن فكرت ريئه أنه من المؤكد أن شجرة الكرز تلك هي الشجرة التي اختارها والده لكي تكون شجرته. لكنها لم تستطِع أن تحدد هل حدث بالفعل في صيف العام الماضي أن زار يوتو بمفرده حديقة المقابر الأثرية أم أن كل ذلك مجرد خيال منه؟ لكن في كل الأحوال تخيلت ريئه ابنها يقف تحت تلك الشجرة وحيدًا يتأمل الشرنقة، فلم تستطِع إيقاف دموعها المنهمرة من عينيها. لم تكن تعرف هل هو «موهبة نضجت مبكرًا» أم لا! لكنها في كل الأحوال، فهمت لأوَّل مرة أن الأدب هو الذي ينقذ ابنها. كانت تلك هي الطريقة التي عثر عليها بنفسه للتغلب على مصاعب الحياة، التي لم تستطِع هي أن تنتبه لها، ولا تقدر على إعطاء نصائح له بخصوصها.

ريئه التي سمعت التقرير النهائي من كيدو، عرفت أن اسم زوجها الذي فقدته خلال سنة وبضعة أشهر هو «ماكوتو هارا» فشعرت أخيرًا بأنها تعاود اللقاء به مرة ثانية. ومع قول ذلك، في ذلك اليوم، لم يكن الأمر ينتهي بمجرد أن تعطيه اسم «ماكوتو هارا» داخل ذكرياتها التي عاشتها معه منذ أن زار المحل أوّل مرة وحتى موته.

لم تكن تريد التعامل مرة ثانية مع اسم «دايسكيه تانيغوتشي» الذي كانت تدعوه به في أثناء حياته، كأنه أملاك شخص آخر استخدمتها عن طريق الخطأ، إلا أنها لم تستطِع أن تدعوه في قلبها باسم «ماكوتو هارا». إذ إنها لا تستطيع أن تعرف هل هذا النداء هو الصحيح أم لا! لأنها لا تستطيع أن تسمع منه الرد.

طبقًا لتقرير كيدو كان زوجها الذي ظلت تعتقد حتى الآن أنه أكبر منها بعام هو في الحقيقة أصغر منها بعامين. وعندما عرفت ذلك شعرت باقتناع الآن فقط لرغبتها في أن تدعوه بلقب «كون» بعد أن كانت لا تدري سببها.

ثم بعد أن رحل كيدو، شعرت وهي تحملق بعد غياب طويل إلى صورة دايسكيه على شاشة الكمبيوتر التي لم تكن تستطيع النظر إليها منذ فترة طويلة، أنه كان يريد أن تناديه باسمه الحقيقي في وقت ما. ألم يكن يتمنى من كل قلبه أن يُحب كله، ليس على أنه دايسكيه تانيغوتشي ولكن على أنه ماكوتو هارا؟!

لم تكن ريئه تعرف الشخص المُسمَّى «كِنكيتشي كوباياشي». يبدو أنها جريمة شهيرة فعلى الأرجح أنها شاهدت وقتها الأخبار المتعلقة بها، لكنها لا تتذكر منها شيئًا. كان محتوى الجريمة بشعًا إلى درجة أن تشعر بالغثيان منها وتشيح بوجهها بعيدًا، وحارت فترة طويلة في هل يجب أن تخفي ذلك الجزء فقط عندما تُري التقرير ليوتو أم لا!

أُصيبت ريئه بالاضطراب والقلق من حقيقة أن جرائم القتل التي لم يكن لها بها أي علاقة من قريب أو من بعيد أمست من دون أن تدري قضية عائلية خاصة. من المؤكد أن كيوئتشي تانيغوتشي لمَّح إلى احتمالية أن يكون

زوجها الراحل مرتكبًا جريمة شنيعة. لكنه عندما يعرف أنه في الواقع ابن مجرم سفَّاح، تُرى هل يقول انظروا! ألم أقُل لكم؟ لكن كما توقعت هي؛ لم يرتكب زوجها الراحل جريمة على الإطلاق.

وشعرت ريئه تجاه ظروف حياة ماكوتو هارا التي كتبها كيدو في تقريره بالشفقة والتعاطف من كل قلبها. ثم وكما هو المتوقع فكرت أنه على الأرجح أراد أن يخبرها بهذا من خلال إخبارها بتعاسة حياة دايسكيه تانيغوتشي. لم تستطِع فهم لماذا اختار هذه الطريقة لإخبارها. فهل كان يريد منها أن تعرف فقط بالجراح العميقة التي في قلبه أيًّا كانت أسبابها؟ حتى وإن زُيِّفت الأسباب فالجراح هي الجراح، والألم هو الألم! لكن يُفترض أن طريقة العلاج تضطرب بذلك القدر فقط!

لم تستطِع ريئه إلا أن تشعر بمعاناة جديدة عندما تفكر في هانا، بسبب شهادة معارف ماكوتو وقت ممارسته الملاكمة بأنه كان يتعذب ويعاني بسبب جيناته الوراثية.

وليس معنى ذلك أنها اشمأزت فجأة من أن دماء هانا تسري فيها دماء القاتل السفَّاح نفسها. إنها لم تفكر في ذلك قَطُّ إلى درجة غير متوقعة، لكنها قلقت من احتمالية معاناة ابنتها عندما تعرف ذلك مستقبلًا. وفي هذه النقطة يختلف الأمر مع يوتو الذي لا تربطه علاقة دم مع ماكوتو هارا. لو كان يوتو أيضًا طفلًا له به علاقة دم، لربما كانت حيرتها زادت شدة في إعطائه تقرير اليوم ليقرأه.

ثم أيضًا لم تستطِع ريئه أن تمنع نفسها من السؤال: تُرى لو كانت تعلم تلك الحقيقة منذ البداية، هل كانت ستقع في حبه وتتزوجه؟

تُرى هل الحب يحتاج إلى الماضي؟

لكن عندما فكرَت، باستبعاد الكلام المنمق الجميل، في تلك الفترة التي كانت بالكاد تستطيع أن تحمي حياتها وحياة يوتو بكل جهودها، شعرت بأنها ربما لم تكن تستطيع أن تتقبل حياته التي تحمل عبء تلك المعاناة الرهيبة.

لم تكن تعرف. لكن بفضل كذبه، استطاعا أن يتحابا وأن ينجبا ابنتهما هانا.

إن الجملة التي جعلت قلبها يهتز بعنف في تقرير كيدو، هي التالية التي بلَّغها لها بعد أن انتهى من حكي الحكاية كاملة:

> لقد عرف الراحل ماكوتو هارا لأوَّل مرة في حياته معنى السعادة، في أثناء مدة السنوات الثلاث والأشهر التسعة التي قضاها معك يا سيدة ريئه. في أثناء تلك المدة من المؤكد أنه كان سعيدًا حقًّا. كانت فترة قصيرة، لكنها كانت هي حياته كلها.

كان تقرير كيدو عملًا بذل فيه مجهودًا خرافيًّا، إلى درجة أن ريئه ارتابت متسائلة لماذا يفعل كل ذلك من أجلها؟ وعلاوة على ذلك جاء خصوصًا لمقابلتها مع أنه كان يمكنه الاكتفاء بالإيميل أو الهاتف!

لكنها عندما سمعت منه تلك الجملة القوية التي تمتلئ بالتشجيع والمواساة، عرفت أنه ربما جاء خصوصًا لكي يقول لها تلك الجملة مباشرة ووجهًا لوجه. في النهاية لم تعرف السبب الذي دعاه إلى فعل ذلك، لكنها قررت ألا تبحث عنه.

انعزل يوتو في غرفته لمدة ساعة تقريبًا. فكرت ريئه أن الوقت قد حان لكي تذهب وتطمئن عليه، لكن في تلك اللحظة نفسها سمعت صوت قدميه تنزلان من الطابق الثاني.

قال يوتو وهو يسلِّم أمه الأوراق بفظاظة:

– قرأتها.

– انتهيت؟

– أجل.

ظل يوتو واقفًا من دون أن يُظهر أي تعبيرات على وجهه، ثم كان على وشك العودة إلى غرفته، كما هو في صمت.

– يوتو!

- ....
- هل أنت بخير؟
- لا تقلقي! أنا بخير. إن أبي لم يقتل أحدًا، أليس كذلك؟
- بلى. هذا حقيقي.
- يا له من مسكين. أبي!
- أنت رحيم القلب يا يوتو.
- لقد عرفت لماذا كان أبي يعاملني بكل هذا الحنان.
- لماذا؟
- إن أبي كان يعاملني بالمعاملة التي كان يتمنى أن يعامله بها أبوه.

فقدت ريئه النطق واحمرت عيناها تجاه ملامح ابنها الطفولية البريئة.

- أجل، لكن ليس هذا فقط، ولأنه كان أيضًا يحبك حقًّا يا يوتو!
- أمي، أنا آسف!
- ماذا؟ لماذا تعتذر؟

طأطأ يوتو رأسه وهو واقف كما هو وأخيرًا انهار بالبكاء. اهتزت كتفاه من النشيج ومسح دموعه بذراعه، محاولًا بكل جهده أن يتوقف عن البكاء. وبكت معه ريئه. وعندما حاولت أن تعيره المنديل، دعك وجهه المبتل براحة يده ونظر إلى والدته بعينيه اللتين ورمتا واحمرتا قائلًا:

- إذن ماذا سيكون اسم العائلة؟ هل سيصبح هارا؟

قالت ريئه مبتسمة تجاه ابنها الذي يحاول أن يتحدث بكل جهده في أمور الواقع:

- تُرى هل يمكن أن نلقب باسم «هارا»؟! ألا ترى أنه من الأفضل البقاء على اسم «تاكيموتو» كما هو؟

بعد أن سعل يوتو قليلًا أومأ موافقًا.

- ماذا سنفعل في مقبرة أبي؟
- أجل ماذا نفعل! ما رأيك لو ندفنه مع ريو وجدك في المقبرة نفسها؟

- أرى أن هذا هو الأفضل. وبذلك لا يشعر أي منهم بالوحدة!
- يوتو.
- نعم!
- أمك هي التي يجب أن تعتذر إليك! عن أنني أخفيت عليك الأمر طويلًا.
هز يوتو رأسه بالنفي، وأخذ نَفَسًا عميقًا لكي يهدِّئ نفسه ثم سأل بوجه جاد:
- هل سنخبر هانا بأمر والدها؟
- ما رأيك؟
- لن تفهم شيئًا لو أخبرناها الآن.
- صحيح.
- يجب علينا أن نحمي هانا!
تحاملت ريئه على نفسها حتى لا تنهار بالبكاء مجددًا، وأومأت وهي تنظر إلى عينَي ابنها القويتين. وفكرت؛ لقد نضج كثيرًا!
- عندما تشعر بأي معاناة يجب أن تُخبر أمك يا يوتو.
أومأ يوتو إيماءة قصيرة ثم قال:
- وأنتِ أيضًا يا أمي. حسنًا تصبحين على خير!
- تصبح على خير! أراك غدًا.
فكرت وهي تنظر إلى ظهر ابنها وهو يغادر غرفة المعيشة، في كيف سيقضي هذه الليلة بعد ذلك؟ فضاق صدرها من التأثر. لكنها لا تستطيع الآن إلا أن تتركه وحيدًا.
بعد أن أصبحت وحيدة وضعت مرفقيها فوق منضدة الطعام ووضعت عليهما رأسها المحني ثم أغمضت عينيها فترة.
سمعت صوت عقارب ساعة الحائط تقطع الوقت بانتظام.
رفعت رأسها عاليًا، ثم حملقت إلى صور والدها وريو التي تزيِّن رف أواني الطعام، ثم ألقت نظرة على الصورة العائلية لهم هم الأربعة.

إنه لم يعد له وجود. وقد كبر كثيرًا الطفلان اللذان تركهما.

وفكرت ريثه أنها خلال السنوات الثلاث والأشهر التسعة كانت سعيدة إلى درجة أنها تشعر بأن ذكرياتها تلك كافية جدًّا لما تبقى من الحياة القادمة.



المؤلف

كيئتشيرو هيرانو روائي ياباني وُلد عام ١٩٧٥. حاز عمله الأول «الكسوف» جائزة أكوتاغاوا؛ أعرق الجوائز الأدبية في اليابان، في حين كان طالبًا في جامعة كيوتو، وكان أصغر مَن يحصل على تلك الجائزة المرموقة وقتها. ثم توالت الأعمال والجوائز، فحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة وزير التعليم والثقافة عن رواية «انهيار السد»، وعلى جائزة بونكامورا دوغوما عن رواية «الفجر»، ثم نال وسام الفنون والآداب الفرنسي في عام ٢٠١٤، ثم حصل على جائزة جونئتشي واتانابه عن رواية «ما بعد الماتنيه».

حازت روايته «أحد الرجال» جائزة يوميوري العريقة في الأدب عام ٢٠١٨، وحصلت على المركز الثاني في جوائز المكتبات الكبرى، كما حُوِّلت إلى فيلم سينمائي من إخراج كيه إيشيكاوا، فحصد الفيلم جوائز دولية عديدة، وفاز بأغلب جوائز الأكاديمية اليابانية للسينما عام ٢٠٢٣، وشارك الفيلم في مهرجان القاهرة السينمائي الدولي عام ٢٠٢٢، وحاز جائزة أفضل سيناريو.

المترجم

ميسرة عفيفي مترجم مصري، وُلد في القاهرة ويعيش في اليابان منذ عام ١٩٩٦. ترجم وكتب عددًا من الدراسات والمحاضرات والأبحاث والقصص القصيرة والمقالات. نُشرت له ترجمات لعدد من الروايات اليابانية منها: «مقتل الكومنداتور» لهاروكي موراكامي، و«علت الرياح» لتاتسو هوري، و«شمس غاربة» و«صندوق باندورا» لأوسامو دازاي، و«الكسوف» و«حكاية قمر» لكيئتشيرو هيرانو، وصدرت له عن دار الكرمة رائعة أوجاي موري: «الإوزة البرية» وتحفة ياسوشي إينويه الخالدة «بندقية صيد».

«تحتوي «أحد الرجال» على كل مظاهر القصة البوليسية الآسرة: زوجة ثكلى، ورجل ميت ينتمي اسمه إلى شخص آخر، ورسائل مشفرة غامضة، ومحامٍ عازم على كشف الحقيقة. ومع ذلك، تكمن رواية مدروسة بعمق، تُفسح فرضيتها المشوقة الطريقَ لفحص أعمق الأسئلة المتعلقة بالهوية والإبداع الفني، في عمل متجذر في التاريخ الثقافي الياباني» — **أرتس دسك**

«رواية مثيرة» — **وردز ويذاوت بوردرز**

«هيرانو مستمر في الاشتباك مع موضوعات جديدة منذ ظهوره لأول مرة. وفي هذا العمل، وصل إلى السؤال الأساسي حول ما الذي يثبت الوجود الإنساني»
— **يوكو أوغاوا، مؤلفة رواية «شرطة الذاكرة»**

كيدو محامي طلاق يشارف زواجه على الانهيار بسبب الانفصال العاطفي. إضافةً إلى أزمة منتصف العمر التي تلوح في الأفق، تنقلب حياة كيدو رأسًا على عقب بسبب عودة موكِّلة سابقة تريد منه أن يحقق مع رجل ميت - زوجها المُتوفى مؤخرًا. فبعد وفاته اكتشفت أنه كان يعيش كذبة كبيرة: اسمه، وماضيه، وهويته، تنتمي إلى شخص آخر. يجذب التحقيق كيدو إلى لغزين مثيرين: معرفة هوية الزوج الحقيقية، واكتشاف المزيد عن الرجل الذي تظاهر بأنه هو. ومع كل اكتشاف جديد يزداد لدى كيدو هوسه والإغراء بمحو حياة شخص ما لخلق حياة جديدة.

حازت هذه الرواية اليابانية الفلسفية المثيرة جائزة يوميوري المرموقة للأدب في اليابان. يبحث فيها كيئتشيرو هيرانو، أحد أهم أدباء اليابان حاليًا، عن الهوية، وغموض الذاكرة، والحكايات التي نحيا ونموت بها، والتصالح بين مَن كنت تأمل أن تكونه ومَن أصبحت عليه في الواقع.

تُرجمت هذه الرواية إلى عدة لغات، وتحولت إلى فيلم سينمائي ناجح نال عددًا من الجوائز.



ISBN 978-977-87219-4-2
9 789778 721942